

UNIVERSAL
LIBRARY

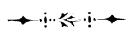
OU-234352

UNIVERSAL
LIBRARY

٨٢٩

تاريخ التمدن الاسلامي

وهو يبحث في نشوء الدولة الاسلامية
وتاريخ مصالحها الادارية والسياسية والجندية وبيان ثروتها
وتاريخ العلم والادب والتجارة والصناعة فيها ونظام
الهيئة الاجتماعية وآدابها والعادات
والاخلاق الخ



تأليف

عمر زكي

منشأة الهلال

الجزء الثالث

في العلم والادب وما كان منهما عند العرب قبل الاسلام وما أحدثه
الاسلام من التغيير في القرائح والعقول وما نقل عن اللغات الاجنبية
من العلوم وما كان من تأثير التمدن الاسلامي في كل ذلك

مطبعة الهلال بالنجالة بمصر

سنة ١٩٠٤

المقدمة

العلم أعظم أركان الحضارة وأقوى أسبابها والبحث في علوم الأمم وأدبهم من أهم واجبات المؤرخين وخصوصاً في الاسلام لملاقة العلوم الاسلامية بأحوال الدول وسياستها . ولذلك كانت ابجاث هذا الجزء من تاريخ التمدن الاسلامي اهم ابجاث هذا الكتاب . ويزيد اهميته ارتباط تاريخ العلوم في الاسلام بتاريخها قبله لان المسلمين نقلوا الى لسانهم معظم ما انتجته عقول البشر من أول عهد المدنية الى ايامهم في العقليات والعقليات فورثوا علوم الكلدانيين والفينيقيين والمصريين والفرس واليونان والهنود . فجزأ النظر في ما نقله العرب من علوم تلك الأمم الى البحث في تاريخ تلك العلوم عند كل منها . فكأن هذا الجزء من تاريخ التمدن الاسلامي يشتمل على خلاصة تاريخ العلم والفلسفة والأدب من أول عهد العمران الى ظهور الاسلام فضلاً عن تاريخها فيه

وقد رسخ في اعتقاد بعض الكتبة من الافرنج وغيرهم ان المسلمين أو العرب قلما افادوا العلم لانهم نقلوه عن اليونان ولم يزيدوا فيه شيئاً من عند انفسهم . وذهب آخرون الى ان نقلهم لم يقتصر على استبقاء علم اليونان كما كان بل هم شوهوا ما نقلوه فأضروا العلم وفسدوه . وقد نشأ هذا الاعتقاد في زمن التعصب وتولى وتنوقل الى أوائل هذا العصر . ولم يتعرض للتحقيق او نقده احد من العرب أو المسلمين

على ان المنصفين من مستشرقى الافرنج ذكروا للتمدن الاسلامي افضالاً على العلم اشاروا اليها باختصار . وقد توسع بعضهم في تعدادها بكلام اجمالي اذا قرأه العربي انشرح صدره فاذا اراد تحقيقه ذهب اكثر سعيه عبثاً . ووجه التحقيق ان نجد تلك المآثر مثبتة في كتب العرب القدماء لانها المصدر الوحيد لتاريخ الاسلام والمسلمين والآداب الاسلامية . واكثر ما كتبه الافرنج في هذه المواضيع مرجعه الى كتب العرب . فاذا رأينا في كتب الافرنج مآثر منسوبة الى العرب ولم نجد لها ذكراً في كتبهم ضعفت ثقتنا في صحتها . اذ قد تكون منقولة عن بعض الرحلات الافرنجية في

العصور الوسطى وأكثرها يحتاج الى تمحيص . كرحلة بنيامين التودلي اليهودي التي وصف فيها القسطنطينية ومصر وسوريا وفارس الى حدود الصين في القرن الثاني عشر الميلاد فقد ضمنها من الحوادث والاخبار ما يخالف التاريخ فضلاً عما فيها من المبالغات والغرائب . كتبها الرحالة المذكور في اللغة العبرانية ثم نقلت الى اللاتينية في القرن السادس عشر والى الفرنسية في القرن الثامن عشر والى الانكليزية في القرن التاسع عشر

ومن أمثلة ما جاء فيها انه كان في الاسكندرية على عهد الفاطميين عشرون مدرسة علمية وفي القاهرة عدد عظيم من المدارس الكلاية وسترى في كلامنا عن تاريخ المدارس انها لم تبين بمصر الا بعد انقضاء عصر الفاطميين . ومع ذلك فاننا نرى كتابنا ينقلون هذه الاخبار على علاقتها فرحاً بتعداد مآثر العرب ولو تقبوا عن اساسها لذهب فرحهم . وهذا ما نهينا اليه صديقنا النعماني العالم الهندي في كتابه الذي نشرنا خلاصته في مقدمة الجزء الماضي اذ اقترح علينا ان نذيل صفحات كتابنا هذا بالماخذ التي ننقل عنها وقد اطعناه . وأصبحنا لكثرة ما يعرض لنا من مغالط المؤرخين في هذا الصدد لاثق الابطاماء بالاسناد الى النصوص التاريخية او بقرينة لا نقل قوة عنه

على اننا لا نرى بدءاً من تصديق كتاب الافرنج في ما هو متعلق بادابهم وتاريخهم كحكاية الساعة التي يقولون ان هارون الرشيد اهداها الى شارلمان مثلاً وكقولهم ان عرب الاندلس علموهم الرقاص . وقول الباحثين في تاريخ الكيمياء مثلاً ان العرب استحضروا المركب الفلاني او اكتشفوا المادة الفلانية . واما في ما خلا ذلك فلا بدءاً من الرجوع الى المصادر العربية من كتب التاريخ والادب وهي كثيرة وفيها فوائد مهمة تظهر بالمطالعة والامعان . ولا ينبغي لنا ان ننسى فضل جماعة المستشرقين في نشر الكتب العربية التي لولاهم لضاعى أو ظلت في زوايا الاهمال . ونذكر منها على الخصوص كتاباً كثير الفائدة في هذا الموضوع نعي كتاب الفهرست لابن النديم والفضل في نشره للمستشرق غوستاف فلوغل وقد علق عليه ملاحظات جزيلة الفائدة ومقابلات مهمة شملت مجلدًا كاملاً

فجعلنا معوانا في استخراج الحقائق التاريخية التي بنينا عليها بحثنا في هذا الكتاب على الكتب العربية بعد التحصيل والانتقاد . واستيفاءً لاسباب البحث تصفحنا ما كتبته في هذا الشأن افاضل الافرنج وغيرهم في الانكليزية والفرنساوية والالمانية وغيرها . ووقفنا على كتاب في اللغة الهندستانية (الاوردية) للنعماني المشار اليه سماء « رسائل شبلي » ذكر فيه فصولاً في مدارس العرب ومارستاناتهم ومكتابهم وكتبهم ذيلها بالاسناد وهو كتاب جليل . وبعد الاطلاع على آراء العلماء وبجائهم في هذا الموضوع رجعنا الى المصادر العربية فتصفحناها بامعان وتدقيق فعثرنا فيها على ما ادهشنا من ضخامة ذلك التمدن وخصوصاً في العلم والادب مما استرأه مفصلاً في هذا الجزء

موضوع هذا الجزء

وقد قسمنا الكلام في موضوع هذا الجزء الى علوم العرب قبل الاسلام وعلومهم بعده . فذكرنا أولاً خلاصة ما كان عند العرب الجاهلية من العلوم والآداب كالنجوم والانواء والميثولوجيا والكهانة والعرافة والطب والشعر والخطابة واندية الآداب والانساب والتاريخ وبحثنا في مصادر تلك العلوم بحثاً فلسفياً . وقسمنا الكلام في علوم العرب بعد الاسلام الى ثلاثة اقسام : أولاً العلوم التي اقتضاها الاسلام وسميناها العلوم الاسلامية . ثانياً العلوم التي كانت في الجاهلية وارتقت في الاسلام وهي الآداب العربية الجاهلية . ثالثاً العلوم التي نقلت من اللغات الاخرى وهي العلوم الدخيلة

وقبل النظر في هذه الاقسام قدمنا الكلام بمقدمات تمهيدية : (١) في الاسلام والعلوم الاسلامية وكيف تدرج العرب في وضعها واستازمت بعضها بعضاً (٢) العرب والقرآن والاسلام وما كان من تأثير القرآن في نفوس العرب واكتفائهم به دون سواه (٣) ما جرّ اليه ذلك الاكتفاء من احراق ما عثروا عليه من كتب الاقدمين وخصوصاً مكتبة الاسكندرية (٤) في الرومان والاسلام والعالم وان الذين يقابلون بين الرومان والعرب في أسباب التمدن يظلمون العرب وانه يجب ان يقابل بين الرومان والاسلام (٥) ان حملة العلم في الاسلام اكثرهم العجم والسبب في ذلك (٦) تدوين العلم في الاسلام وعلة امساك العرب عن تدوينه الى آخر القرن الأوّل للهجرة (٧) الخط

العربي وتاريخه ووضع الحركات والاعجام وما الذي دعا الى ذلك ولما فرغنا من هذه المقدمات انتقلنا الى البحث في العلوم الاسلامية وقسمناها الى العلوم الشرعية الاسلامية اي الدينية والعلوم اللسانية او اللغوية والعلوم التاريخية . وأبتدأنا من العلوم الشرعية بالقرآن وتاريخ جمعه وتدوينه وقرآته وتفسيره وتأثير أسلوبه في النفوس . ثم الحديث وما دعا الى وضعه واسناده وعدده . ثم الفقه ومصدره والفقهاء والرأي والقياس ومنزلة الفقهاء عند الخلفاء وكيف ترئبت تلك العلوم بعضها على بعض . ثم انتقلنا الى العلوم اللسانية وبيننا انها مما اقتضاه الاسلام وفصلنا الاسباب التي دعت الى وضع النحو وذكرنا تاريخ الادب واللغة في البصرة والكوفة وبغداد وعلاقة ذلك بالسياسة . ونشرنا فصلاً في بلاغة الانشاء وتاريخها ومصيرها وأسبابها الفلسفية . ثم أتينا الى التاريخ والجغرافية فبيننا الاسباب التي دعت الى وضعها ومزيجها في اللسان العربي عما في سائر اللسانة ثم ذكرنا الآداب العربية الجاهلية وهي الخطابة والشعر وما كان للاسلام من التأثير فيها وما نسبة الخطابة عند المسلمين الى خطابة الامم الاخرى . وما كان من حال الشعر وطبقاته واسلوبه ورواته وتأثيره في الدولة وعدد الشعراء وأشعارهم ثم تقدمنا الى العلوم الدخيلة التي نقاها المسلمون الى العربية وتقيدها لفهم الموضوع قدمنا الكلام في تاريخ آداب الامم التي نقلت تلك العلوم عن أسننتهم وأههم اليونان والفرس والهنود والكلدان . فذكرنا أولاً تاريخ آداب اللغة اليونانية منذ اقنيس اليونان العلوم من الكلدان والمصريين والفينيقيين حتى وضعوا التاريخ والفلسفة والنجوم وغيرها الى زمن الاسلام وتوسعنا خصوصاً في تاريخ الفلسفة وما مرت به من الادوار الى سقراط وافلاطون وفارسطو وتاريخ مؤلفات ارسطو . ثم تاريخ مدرسة الاسكندرنية في عصرها اليوناني والروماني الى الفتوح الاسلامية . ثم ذكرنا آداب اللغة الفارسية وما كان من تأثير آداب اليونان عليها في مدرسة جنديسابور وغيرها . وبيننا نحو ذلك في آداب الهنود والسريران باسباب متسلسلة مترابطة ثم انتقلنا الى الكلام في العرب والعلوم الدخيلة وما الذي حملهم على نقلها واول

من اشتغل فيها قبل الدولة العباسية . ثم اشتغال المنصور في نقل النجوم والطب عن الهند والفرس والاسباب التي حملته على نقلها ثم المهدي والرشد . وأسهبنا الكلام في المأمون والفلسفة والمنطق وما الذي حمله على نقلها . وأنينا بفصل خاص عن نقلة العلم في العصر العباسي وملخص تراجعهم وكلهم من غير المسلمين وفيهم التصرافي واليهودي والصابي والمجوسي والسامري وفيهم النقلة من اليوناني او من الفارسي او الهندي او النبطي . وفصل في السوربين ونقل العلم بيننا فيه ان السوربين ما زالوا منذ القدم ينقلون العلوم بين الامم

ثم تقدمنا الى ذكر الكتب التي ترجمت في تلك النهضة بالتفصيل عن كل لغة على حدة باعتبار المواضيع والمؤلفين وبازاء كل كتاب اسم ناقله . فذكرنا ما نقل عن اليونانية والفارسية فالهندية فالنبطية فالعبرانية فالقبطية وهي تعد بالآلاف . وقد نقلت بسرعة لم تنفق لأمة من الامم فذكرنا الاسباب التي ساعدت على تلك السرعة وفي جعلتها محاسنة الخلفاء للعلماء غير المسلمين . ثم بحثنا في انتشار العلوم الدخيلة في المملكة الاسلامية ونبوغ الفلاسفة والاطباء في الانحاء المتباعدة واشتغال الخلفاء والامراء انفسهم في العلم وتنشيط العلماء وتأليف الكتب لهم وما كانوا يبذلونه في هذا السبيل ثم بحثنا في المؤلفين وكثرتهم والمؤلفات وتعدادها وضخامتها

ثم نظرنا في تأثير التمدن الاسلامي في هذه العلوم . فبدأنا بالفلسفة وما ترتب عليها من علم الكلام وتاريخ تنقلها في ممالك المشرق وما كان من اضطهاد الخلفاء لاصحابها بعد النهضة العباسية حتى تألفت الجمعيات السرية ومن جعلتها جمعية اخوان الصفا وكيف انتقلت رسائلهم الى الاندلس وما كان من تاريخ الفلسفة هناك . ثم تاريخ الطب الاسلامي والفرق بينه وبين الطب اليوناني او الفارسي او الهندي وانه جامع بينها كلها واحصينا الاطباء المسلمين وتاريخ الممارسات في الاسلام . ثم نظرنا في ما ادخله المسلمون من عند انفسهم في الطب وفروعه كالكيمياء والصيدلة والنبات وغيرها . ثم تاريخ النجوم او الفلك في الاسلام وتاريخ المراصد عندهم والفرق بين التنجيم والنجوم ومن نبغ من علماء الفلك في الاسلام وما احدثوه من الآراء الجديدة وآلات الرصد

الجديدة وما يلحق بذلك من الرياضيات كالحساب والجبر والهندسة . ثم تاريخ الفنون
الجميلة وان المسلمين لم يقصروا فيها كما ظن الاكثرون . وختمنا الكلام في المدارس
وتاريخ تأسيسها وأسبابه . ثم المكتاب عندهم وعدد ما حوته من الكتب مما يدل على
فخامة العلم في ذلك التمدن العجيب . وبذلنا الجهد في تحقيق كل عبارة وتمحيص
كل رأي بما يبلغ اليه الامكان وبأذن به الممكن

ونعتم هذه الفرصة للثناء على العلماء الافاضل الذين تلقوا خدمتنا بالرضى
وذكروها بما هم أهله . ونخص منهم كبار المستشرقين في أوربا ممن وصل اليهم كتابنا
المذكور فقد جاءتنا كتبهم ورسائلهم بعبارات الاستحسان والتنشيط وكتب بعضهم
النقاريظ في المجالات الافرنجية . فاستحسنا ذلك على الافتداء بهم في خدمة هذه اللغة
التي سبقونا الى احياء علومها وآدابها ومهدوا لنا سبيل البحث فيها . فنستأذن الذين
تفضلوا منهم بالكتابة اليها ان ندون أسماءهم في صدر هذا الجزء اقراراً بفضلهم .
وهذه اسمائهم بالترتيب الهجائي :

الاستاذ دي كويه	في ليدن
» ديرنبرج	» باريس
» روزن	» بطرسبرج
» غولد تزيير	» بودابست
» غويدي	» رومية
» مرجليوث	» اكسفورد

وسنعمن فرصة أخرى لنشر ما جادت به قرائحهم في هذا الشأن . ونرجو ان
يقع هذا الجزء موقع القبول لديهم
وأما الجزء الرابع من هذا الكتاب فيصدر في السنة القادمة ان شاء الله .
وموضوعه طبقات الناس والآداب الاجتماعية في المملكة الاسلامية والله الموفق
في كل حال

علوم العرب قبل الاسلام

تمهيد في جزيرة العرب وأهلها

جزيرة العرب شحيحة المياه كثيرة الصحاري والجبال فلم يشتغل أهلها بالزراعة لجذب الارض • والانسان صديعة الاقليم فنشأ العرب على ما تقتضيه البلاد المجربة من الارتزاق بالسائمة والرحيل في طلب المرعى • فغلبت البداوة على الحضارة فيهم وانصرف اكثرهم الى تربية الماشية وهي قليلة بالنظر الى احتياجاتهم منها فنشأ بينهم التنازع عليها وجرتهم التنازع الى الغزو واضطروهم الغزو الى الانتقال بحيامهم وانعامهم من محج الى محج ومن صقع الى صقع ليلاً ونهاراً وجوئهم صاف وسماؤهم واضحة فعملوا في الاهتداء الى السبل على النجوم ومواقعها • واحتاجوا في مطاردة اعدائهم الى استنباط الادلة للكشف عن مخابئهم فاستنبطوا قيافة الانر والجأهم ذلك أيضاً الى توقي حوادث الجو من المطر والاعاصير ونحوها فعنوا في التنبؤ عن حدوث الامطار وهبوب الرياح قبل حدوثها وهو ما يعبرون عنه بالانواء ومهاب الرياح

ودعاهم الغزو من الجهة الاخرى الى الصبغة لتأليف الاحزاب نعمدوا الى الانساب يترابطون بها • والارتحال في الغزو ونحوه يقتضي العناية بالسلاح والخيل ولو كانوا أهل حضارة لاتقنوا صنع السلاح واما الخيل فبرعوا في تربيتها وانتقامها ومعالجة امراضها

والعرب اخوان الكلدانيين والبابليين والفينيقيين وغيرهم من اركان التمدن القديم فهم اهل ذكاء وتعقل لو سكنوا وادي الفرات او وادي النيل لكان منهم ما كان من أولئك او ما كان من جيرانهم اتباعاً ولكنهم أقاموا في بادية صفا جوها واشرفت سهاؤها فصفت اذهانهم وانصرفت قرائحهم الى قرض الشعر يصفون به وقائعهم او يبينون به انسابهم او يعبرون به عن عواطفهم • وقويت فيهم ملكة البلاغة فبرعوا في القاء الخطب يستنهضون بها الحمم او يدعون الى الحرب او السلم او للمفاخرة او المنافرة • ولولا ما في فطرتهم من الذكاء والتعقل لما ظهر منهم اكثر مما ظهر من جيرانهم في العدو الغريبة من البحر الاحمر فاتهم ما زالوا من حيث المدنية على نحو ما كانوا عليه منذ قرون • وشأن جاهلية العرب من هذا القبيل شأن جاهلية اليونان في عصرهم ميروس فلما تمدن العرب اتوا بمثل ما أتى به أولئك

على ان العرب لم يسلّموا مما وقع فيه معاصروهم من الامم العظمى من اعتقاد الكهانة والعرافة وزجر الطير وخط الرمل وتعبير الرؤيا مما ينتج عن جهل الاسباب مع رغبة الناس في تعليل الحوادث ولذلك فقد كثرت عندهم الكهانة والعرافون ونحوهم فالعلوم التي كانت شائعة في جزيرة العرب قبل الاسلام ضرورية باعتبار طبيعة ذلك الاقليم وطبائع اهله • وقد سميها علوماً بالقياس على ما يمثّلها عند الامم الاخرى في عصر العلم والا فالعرب لم يتعمقوا في المدارس ولا قرأوها في الصحف ولا القوا فيها الكتب لانهم كانوا أميين لا يقرأون ولا يكتبون وانما دي معلومات تجمعت في محفوظهم بتوالي الاجيال بالاقباس او الاستنباط وتنوقلت في الاعقاب وهي تنمو وتتزايد حتى بلغت عند ظهور الاسلام بضعة عشر علماً بعضها من قبيل الطبيعيات والبعض الآخر من قبيل الرياضيات او الادبيات او الكهانة او ما يتعلق بذلك ولو أردنا التوسع في وصفها لضاق بنا المقام فنذكرها على سبيل الاختصار

واذا أمعنا النظر في مصادر تلك العلوم رأينا بعضها خاصاً بالعرب وقد نشأ عندهم والبعض الآخر دخل اقتبسوه من الامم الاخرى — فالعلوم العربية الانساب والشعر والخطابة • والذخيلة النجوم والطب والانواء والحيل ومهاب الرياح والميثولوجيا والكهانة والعيافة والقيافة وغيرها كما سترى في ما يلي :

١ — علم النجوم عند العرب

الكلدان اساتذة العالم في علم النجوم وهم وضعوا أساساته ورفعوا اعمدته ساعدتهم على ذلك صفاء سمائم وجفاف هوائهم واستواء آفاقهم فرصدوا الكواكب وعينوا اماكنها ورسوموا الابراج ومنازل القمر والشمس وحسبوا الحسوف والكسوف بالآلات فلكية منذ بضعة واربعين قرناً عنهم اخذ اليونان والهنود والمصريون وغيرهم من أهل التمدن القديم وما زال الكلدان اول البابليين اهل دولة وسنطان الى اوائل القرن الثامن قبل الميلاد فسقط عليهم الاشوريون فلم يؤثر ذلك شيئاً في ادايتهم الاجتماعية لتشابه الشعبين لغة وديناً فلما كان القرن الخامس (ق ب) سطا عليهم الفرس وفتحوا بلادهم واستبدلوا الهتهم واستبدلوا فيهم فنقل ذلك عليهم وضاعت الارض بهم فهاجر كثير من منهم الى ما جاورهم من البلاد وخصوصاً بلاد العرب لانها كانت حى المهاجرين من العراق ومصر والشام لامتناعها على الجنود بالصحاري الرمضاء ولسهولة الاقامة عليهم هناك لقرب لسان العرب من لسانهم

وكان في جملة المهاجرين اليها جماعة من الكهان واصحاب النجوم فتعلم العرب منهم احكامها وأخذوا عنهم اسماءها وتعلموا منهم مواقع الابراج ومناطقها ومنازل القمر والشمس وربما كان لهم علمٌ بشيءٍ من احكامها من عند انفسهم أو بما وصل اليهم من طريق الهند أو غيرها . ولكن يقال بالاجمال ان العرب مديونون بعلم النجوم للكلدان وهم يسمونهم الصائبة — والصائبة ان لم يكونوا الكلدان انفسهم فهم خلفاؤهم أو تلامذتهم^(١) وكان الصائبة كثيرين في بلاد العرب ولهم مثل منزلة النصارى أو اليهود . فاخذ العرب عنهم علم النجوم باصطلاحاته واسمائهم وان كان معظم اسماء السيارات لا يرثى الى أصله الكلداني فربما كان له أسباب عارضة ضاعت أخبارها

على ان بعضها لا يزال أصله الكلداني ظاهراً فيه كالمريخ مثلاً فانها تقابل « مرداخ » الكلدانية لفظاً ومعنى . ولكن معظم تلك الاسماء قد ضاعت المشابهة اللفظية بينها وبقيت المشابهة المعنوية . فان « زحل » معناه في العربية الارتفاع والعلو وهي نفس دلالة « كاون » اسم هذا السيارة في الكلدانية . واما الابراج ومنازل القمر فلا تزال كما كانت عند الكلدان لفظاً ومعنى — واليك اسماء الابراج عند كليهما

اسماؤها العربية	اسماؤها الكلدانية	اسماؤها العربية	اسماؤها الكلدانية
الحمل أو الكبش	امرا	الميزان	ماساثا
الثور	ثورا	العقرب	عقربا
الجوزاء أو التوأمين	تاغي	القوس أو الرامي	قشتا
السرطان	سرطان	الجدي	كديا
الاسد	اريا	الدلو	دولا
السنبلة	شبلتا	الحوت أو السمكة	نونا

واما منازل القمر والشمس فقد تبدل بعض اسمائها كما احاب السيارات . ولكن العبرة بالاكثر في قواعد هذا العلم ومصطلحاته فانها عند العرب كما كانت عند الكلدان تماماً حتى لفظاً . « منازل القمر » و « منازل الشمس » فان هذا التعبير هو نفس ما كان يعبر به الكلدان عن هذه المنازل وقد ابدلته الامم الاخرى التي اخذت هذا العلم عن الكلدان

مضت مدة نوء ولم يكن فيه مطر او حرا وبرد اوريج^(١) ومن امثالهم « اخطأ نوءك » يضرب لمن طلب حاجة فلم يقدر عليها^(٢)

وكانوا اذا امطرت السماء نسبوا المطر الى تأثير النجم المتسلط في ذلك الوقت فيقولون مثلاً مطرنا بنوء المجرة او هذا نوء الخريف مطرنا بالشعرى . وقالوا ان النوء سقوط نجم ينزل في المغرب مع النجرو طلوع رقيقه في الشرق من النجم المنازل ولذلك كانت الانواء ٢٨ نوءاً او نجماً كانوا يعتقدون انها هي علة الامطار والرياح والحرا والبرد . وفي اشعارهم امثلة كثيرة تدل على علاقة احوال الجو او فصول السنة باقترانات الكواكب او طلوعها وقد نظموها شعراً ليسهل حفظها على الناس لقلة الكتابة عندهم — من ذلك قولهم :

اذا ما قارن القممر الثريا لثالثة فقد ذهب الشتاء
وقول الآخر

اذا ما البدر ثم مع الثريا اناك البدر اوله الشتاء
وقول الآخر

اذا ما قارن البدران يوماً لاربع عشرة قمر التمام
فقد حنف الشتاء بكل ارض نوارس مؤذات باحندام
وحلق في السماء البدر حتى يقاص ظل اعمدة الخيام
وذلك في انتصاف الليل شطراً ويصفو الجو من كدر الغمام
وقول الآخر

اذا ما هلال الشهر اول ليلة بدا لعيون الناس بين النعائم
انك رياح القر من كل وجهة وطاب قبيل الصبح كور العائم

وقول الآخر

وقد برد الليل التمام باهله واصبحت العواء للشمس منزلاً^(٣)
وكانت عندهم المطلع كل كوكب او منزل وصف يدل على تأثير ذلك في الطقس على اعتقادهم ومن هذا القبيل اعتقادهم تأثير النجوم في اعمال البشر على ما كان عند الكلدان^(٤) على انهم كثيراً ما كانوا يستدلون على المطر ايضاً بالوان الغيوم واشكالها فاقول الغيوم مطراً

(١) البيروني ٣٣٩ (٢) الميداني ٢٠٢ ج ١ (٣) البيروني ٣٣٦

عندهم البيضاء ثم الحمراء ثم السوداء ومن اقوالهم « السحابة البيضاء جفل والحمراء عارض^١ والسوداء هطلة^(١) »

وكان العرب في حاجة الى معرفة مهاب الرياح للاهتداء في اسفارهم ولذلك فقد وضعوا لها الاسماء ولكنهم اختلفوا في عدد جهاتها فحسبها بعضهم ستة والبعض الآخر اربعة فاصحاب القول الثاني يعدونها (١) مهب الصبا من الشمال (٢) مهب الشمال من المغرب (٣) مهب الدبور من الجنوب (٤) مهب الجنوب من المشرق ويزيد عليها اصحاب القول الاول النكباء بجانب الشمال والحوء بجانب الجنوب واليك قول ذي الرمة في ذلك

اهاضب انواء وهيفان جرّتا على الدار اعراف الجبال الاعافر
وثالثة تهوي من الشام حرجف لها سنن فوق الحصى بالاعاصر
ورابعة من مطلع الشمس اجفلت عليها بدعاء المعاف فقرافر
تحتشها النكب السواني فاكثر حنين اللقاح القاريات العواشر^(٢)

٣ - الميثولوجيا

ومما يلحق بعلم النجوم ايضاً ما يعبر عنه الافرنج بالميثولوجيا وهي عبارة عما كانوا يزعمون وقوعه بين الكواكب أو هي الالهة عندهم من الحروب او الزواج او نحو ذلك من حوادث البشر على نحو ما ذكره عن آلهة اليونان . فالعرب اهلوا الاجرام وعبدوها وقد ضاع خبر ذلك لعدم تدوينه على اننا نستدل عليه من بعض ما وصل اليه من اسماء اصنامهم وعبادة بعض رجالهم . فاللات اسم للزهرة وقد اشتهر كثيرون بعبادتها وعبادة الشمس والقمر والشعري وكانوا يتناظرون في افضلية بعضها على بعض قالوا « وابوكبشة اول من عبد الشعري وكان يقول الشعري تقطع السماء عرضاً ولا ارى في السماء شمساً ولا قمراً ولا نجماً يقطع السماء عرضاً غيرها^(٣) »

أما تدخيص تلك الاحرام وانزالها منزلة البشر فقد كان معروفاً عند العرب . ومن الاقايص ايثولوجية التي كانوا يتناقلونها ان الدبران خطب الثريا وأراد القمر ان يزوجه فابت عليه ووات عنه وقالت للقمر ما أصنع بهذا السبروت الذي لامال له فجمع الدبران قلاصه يتمول بها فهو يتبعها حيث توجهت يسوق صداقها قدامه يعنون القلاص . وان

الجدي قتل نعثاً فبناته تدور به تريده • وان سهلاً ركض الجوزاء فركضته برجلها فطرحته حيث هو وضربها هو بالسيف فقطع وسطها • وان الشعري اليمانية كانت مع الشعري الشامية فنارقتها وعبرت الحجره فسميت الشعري العبور فلما رأت الشعري اليمانية فراقها اياها بكت عليها حتى غمخت عنها فسميت الشعري الغميصاء^(١)

ومن هذا القبيل تأليهم بعض المشاهير من الملوك او القواد او الاسلاف واعتبار البعض الاخر من نتاج الملائكة او الجان • فعندهم مثلاً ان باقيس كانت أمها خنية وان جرها كان من نتاج الملائكة وبنات آدم • وكذلك كان ذو القرنين عندهم أمه ادمية وأبوه من الملائكة^(٢) • واما أصل هذه الاعتقادات فاما هندي او يوناني او مصري أما الكلدان فقلما كانت لهم عناية بامثال ذلك

٤ - الكهانة والعرافة

هما لفظان لمعنى واحد وفرق بعضهم بينهما فقال الكهانة مختصة بالامور المستقبلية والعرافة بالامور الماضية • وعلى كل حال فالمراد بهما التنبؤ واستطلاع الغيب • على ان العرب كانوا يعتقدون في الكاهن القدرة على كل شيء فكانوا يستشيرونه في حوائجهم ويتناضون اليه في خصوصاتهم ويستطبونه في امراضهم ويستقونونه في ما أشكل عليهم ويستفسرون منه رؤاهم ويستنبئون عنه مستقبلهم • وبالجملة فالكهان عندهم هم أهل العلم والفلسفة والطب والقضاء والدين شأن تلك الطبقة من البشر عند سائر الامم القديمة في بابل وفينيقية ومصر وغيرها

والكهانة من العلوم الدخيلة على العرب جاءتهم من بعض الامم المجاورة لهم والغالب في اعتقادنا ان الكلدان حملوها اليهم مع علم النجوم • ويؤيد ذلك ان الكاهن يسمى في العربية أيضاً « حازي » او « حزء » وهو لفظ كلداني ممدون ممدناه الاشتقاقي الناطر او الرأي او البصير وهو يدل عندهم على الحكيم والنبي • واما لفظ « الكاهن » فقد اقتبسه العرب بعدئذ من اليهود الذين نزعوا اليهم على أثر ما أصابهم من التكبكات في اورشليم وخصوصاً بعد خرابها على يد طيطس سنة ٧٠ للميلاد وقد أخذ عنهم العرب كثيراً من الاداب والعادات مما لا يدخل في بحثنا

وأما الكهانة فاصلها من عند الكلدان ولعل الذين حملوا علم التنجيم الى العرب هم الكهنة الكلدانيون انفسهم فكانت الكهانة في جملة ما حملوه اليهم ويؤيد ذلك ان العرب كانوا يطلقون لفظ الخزاء على الكاهن والمنجم^(١) على ان اهل بابل ما زالوا يتواردون الى بلاد العرب الى ما بعد الاسلام والعرب يحلونهم لعلمهم وتعقلهم

فالعرب كانوا يعتقدون في الكهنة العلم بكل شيء وان ذلك يأتيهم بواسطة الارواح فمن كان منهم يعتقد التوحيد نسب ذلك الى استطلاع الغيب عن أفواه الملائكة . واذا كان من عبدة الاصنام اعتقد احتلال الارواح في الاصنام واباحتها اسرار الطبيعة للكهان والسنة فيقول العرب ان الاصنام تدخلها الجن (اي الارواح) وتخطب الكهان وان الكاهن يأتيه الجنى بنجر السماء ورماعبروا عنه بالهاتف . ومن اقوالهم « الاحبار من اليهود والرهبان من النصارى والكهان من العرب »

فكل ما كان يصنمه الكهان انما مصدره الغيب فاذا استطبه مريض من ربيع او صداع عالج بالرقى واذا استشاره في معضلة خط له في الرمل او نفت في العقد . واذا حكمه متخاصمان رمى لهما بالقداح واذا استطلعه سرقة أخذ قمعة جعلها بين يديه ونفت فيها ونحو ذلك من الحركات الوهمية واذا استفسره برؤيا تتم وتظاهر باستطلاع الغيب قلنا ان الكهانة انت العرب من بين النهرين فالكهان القدماء كانوا في الغالب كلدانيين (او صابئة في قولهم) وكان العلم كله عندهم ثم تعدد الكهنة من اليهود وغيرهم ثم ما لبث العرب انفسهم ان اخذوا ذلك عنهم فنشأ الكهان منهم . على ان بعض العرب اقتصروا في ما تناولوه على علم دون آخر فكان بعضهم يتعاطى الطب فقط وبعضهم تعبير الرؤيا او القيافة او القضاء

(الكهان) واشتهر في بلاد العرب جماعة كبيرة من الكهان والكواهن اقدمهم شق وسطيح وحكايتهما أشبه بالخرافات منها بالحقائق . فعندهم ان الأول كان شق انسان (اي تصفه) بيد واحدة ورجل واحدة وعين واحدة وان سطيحاً كان لهما يطوى كما يطوى الثوب لاعظم فيه غير الجمجمة ووجهه في صدره . ويزعمون ان هذين الكاهنين عاشا بضعة قرون الى غير ذلك من الالوهام . ومن الكهان الذين نبغوا في النهضة العربية قبل الاسلام ختاف بن التوام الحميري وسواد بن قارب الدوسي . وفيهم من يعرفون بما ينسبون اليه من

البلاد أو القبائل كقولهم كاهن قریش وكاهن اليمین وكاهن حضر موت وغيرهم
ويقال نحو ذلك في العرافين واكثرهم ينسبون الى بلدانهم وقبائلهم كمراف هذيل
وعراف نجد واشهرهم عراف اليمامة شهره عروة بن حزام بيت قاله نيه - وكذلك
الشعراء يشهرون بمدوحهم - وهو قوله

أقول لعراف اليمامة داوئي فانك ان داويتني لطيب

وأما الكواهن من النساء فانهن عديدات منهن طريفة كاهنة اليمین وهي اقدمهن واليهما
ينسبون الانذار بخراب سد مأرب واتبان سيل العرم • وزبراء بين الشجر وحضر موت
وسلمى الهمدانية الحميرية وعقبراء الحميرية وفاطمة الحنعمية بمكة وزرقاء اليمامة وغيرهن
وينسبن الى القبيلة او المدينة ككهنه بني سعد يزعمون انها أقدم عهداً من شق وسطيح
وانها استخلفهما^(١) وما زالت الكهانة في العرب حتى جاء الحديث في ابطالها وهو « لا كهانة
بعد النبوة »^(٢)

وكان للكهان عند العرب لغة خاصة تمتاز بتسجييع خصوصي يعرف يسجع الكهان
مع تعقيد وغموض • ولعلمهم كانوا يتوخون ذلك للتنمية على الناس بعبارات تحمل غير وجه
كافعل بعض مشايخ التسجييع في هذه الايام حتى اذا لم يصدق تكهنهم جعلوا السبب قصور الناس
في فهم قول الكاهن • ومن أمثلة سجيع الكهان ما يروونه عن طريفة كاهنة اليمین حين خاف
أهل مأرب سيل العرم وعليهم من بقياء عمر بن عامر فانها قالت لهم « لا تؤموا مكة حتى
أقول وما علمني ما أقول الا الحكم المحكم رب جميع الامم من عرب وعجم » قالوا لها
« ما شأنك يا طريفة » قالت « خذوا البعير الشذقم فحضوه بالدم تكن لكم ارض جرهم
جبران بيته المحرم »^(٣)

(القيافة) ومن قيل الكهانة أيضاً القيافة لكها تختص بتتبع الآثار والاستدلال منها
على الاعيان وهي قسبان قيافة الاثر وقيافة البشر • والاولى تختص بتتبع آثار الاقدام والحوافر
او الاخفاف والاستدلال من آثارها في الرمال أو التراب على أصحابها • والفائدة من ذلك
الاهتداء الى الفار من الناس او الضال من الحيوان وقد اتقن العرب ذلك حتى فرق بعضهم
بين أثر قدم الشاب والشيخ وقدام الرجل والمرأة والبكر والثيب • وأما قيافة البشر فهي

(١) السيرة الحلبية ٣٦ ج ١ (٢) كشف الظنون ٣٣٩ ج ٢

(٣) الاغانى ١١٠ ج ١٣

الاستدلال بهيئات أعضاء الشخصين على المشاركة والاتحاد بينهما في النسب والولادة وسائر أحوالهما وهي من قبيل الفراسة

وكانت القيافة شائعة في العرب ثم اختصت بعض القبائل بها دون البعض الآخر . واشهر العرب بقيافة الاثر بنو مدلج وبنو لهب . ولا تزال هذه القيافة شائعة الى اليوم في بعض قبائل نجد ويقال انهم بنو مرة وهم اعلم الناس بها حتى لقد يعرف احدهم الانسان من اثره وربما نظر الى اثر بعير فقال هذا بعير فلان وكثيرون منهم يميزون بين العراقي والشامي والمصري والمدني

والفراسة كانت شائعة في العرب وكانت لهم فيها براعة يستدلون بهيئة الانسان واشكاله والوانه واقواله على اخلاقه ومناقبه وهي من قبيل الذكاء وسرعة الخاطر وسجية طبيعية ومن قبيل الكهانة تعبير الرؤيا وكان معروفاً عند العرب وكانوا يفرعون الى الكهان في تفسير الاحلام على ان كثيرين من غير الكهان كانوا يتعاطونها اشهرهم ابو بكر الصديق ^(١) ومن هذا القبيل زجر الطير وخط الرمل وقد اغنينا عنها لضييق المقام

٥ - الطب في الجاهلية

الطب من جملة العلوم التي وضع اساسها الكلدان كهنة بابل وهم اول من بحث في علاج الامراض فكانوا يضعون مرضاهم في الازقة ومعابر الطرق حتى اذا مرَّ بهم احد اصيب بذلك الداء فيعلمهم بسبب شفائه فيكتبون ذلك على الواح يعلقونها في الهياكل ولذلك كان التطبيب عندهم من جملة اعمال الكهان . وعن الكلدان اخذت سائر الامم القديمة وفي جملتها العرب وهو متشابه عند تلك الامم في مصر وفينيقية واشور . ثم تناوله اليونان فانقنوه ورتبوا ابوابه وعندهم اخذ الرومان والفرس . ونظراً لمعاصرة العرب لهذه الدول فقد اقتبسوا شيئاً من طبها اضافوه الى ما جاءهم به الكلدان والى ما استنبطوه من عند انفسهم بالاخبار فتألف من ذلك ما عبرنا عنه بالطب في الجاهلية ولا يزال كثير منه باقياً الى اليوم في قبائل البادية . وكان للتطبيب عندهم طريقتان الاولى طريقة الكهان والعرافين والثانية طريقة العلاج الحقيقية . فالكهان كانوا يعالجون بالرقى والسحر كما تقدم او بذبح الذبائح في الكعبة والدعاء فيها او بالتعزيم او نحو ذلك

وكان التطبيب بالرق شائعاً في الامم القديمة كلها وقد وجدوا في الآثار المصرية كثيراً من العزائم التي كانوا يصفونها لمعالجة المرضى . وجاء من اخبارهم ان كاهنهم كان اذا سار لمعالجة مريض صحبه خادمان احدهما يحمل كتاب العزائم والثاني يحمل صندوق العقاقير الطبية وهم يعالجون بالاثنتين جميعاً . وكانوا يوجهون كلامهم في العزيمة او الرقي الى احد آلهتهم وخصوصاً ايزيس واوزيريس ورع ولهم عبارات يقولونها عند صنع الادوية وعند تناولها للمريض فمن امثلة العزائم التي كانوا يتلونونها عند تناول الدواء « هذا هو كتاب الشفاء لكل مريض فهل لايزيس ان تشفيني كما شفت حوريس من كل الم اصابه من اخيه ست حينما قتل اباه اوزيريس فيا ايزيس انت الساحرة الكبيرة اشفيني وخلصيني من كل شيء مكر ردي شيطاني ومن امراض اللبسة والامراض القاتلة والخبثية بانواعها التي تعتريني كما خلصت ابنك حوريس . . . »^(١) وكان عندهم عزائم لاجراج الارواح الشريرة التي تسبب الامراض في زعمهم . فعلى هذه الكيفية كان العرب يتلون العزائم لاصنامهم ويرقون لاجراج الجانف او الشياطين . وكان اعتقادهم من هذا القبيل انهم اذا خافوا وباءً نهقوا نهيق الحمار يزعمون ان ذلك ينفعهم من الوباء وان دماء الملوك يشفي من الخبل

واما معالجاتهم العقارية فشيبة بما كان عند المصريين وغيرهم من الامم القديمة فقد كانوا يعالجون بالعقاقير البسيطة او الاشربة وخصوصاً العسل فانه كان قاعدة العلاج في امراض البطن — على ان اعتمادهم في معالجة الامراض كان معظمه عائداً الى الجراحة كالجامة والكي ومن اقوالهم « كل داء حسم بالكي آخر الامر وآخر الطب الكي » وكثيراً ما كانوا يعالجون بالقطع او البتر والغالب ان يكون ذلك بالنار فان النار عندهم كانت تقوم مقام مضادات الفساد عندنا . فاذا ارادوا فصل عضو احمو شفرة بالنار وقطعوه بها كما فعلوا بصخر بن عمرو اخي الخساء لما تنأت قطعة من جوفه مثل الكبد على اثر طعنه فاحموا له شفرة وقطعوها^(٢)

وكانوا يعالجون حول البصر بادامة النظر الى حجر الرجي في دورانه ويزعمون ان العين تستقيم به . ومن معالجاتهم التي نعلوها اليوم خرافة ان الجروح اذا شرب الماء مات^(٣) واذا خافت المرأة حتى يرد قلبها سقوها ماءً حاراً^(٤)

(١) بغية الطالبين ٢٥٨ (٢) الاغانى ١٣٧ ج ١٣

(٣) الاغانى ١٣١ ج ١٤ (٤) الاغانى ٣٢ ج ١٠

❖ الاطباء ❖ واما الاطباء فقد كانوا في اول الامر من الكهنة ثم تعاطى الطب جماعة من العرب ممن خالطوا الروم والفرس واخذوا الطب عنهم فاشتهروا بهذه الصناعة واكثرهم من اهل النهضة الاخيرة قبل الاسلام حوالي القرن السادس لليالاد . على ان بعضهم اقدم من ذلك كثيراً واقدم اطباهم لقمان وهو حكيمهم وفيلسوفهم وفي اصله وزمن وجوده اختلاف . يليه رجل من تيم الرباب يقال له ابن حذيم ويضربون به المثل بالحدافة في الطب فيقولون لمن ارادوا وصفه بذلك اطب من ابن حذيم وفيه يقول اوس بن حجر :

فهل لكم فيها الي فانسى بصير بما اعني الطاسي حذيماً

ومن احدث اطباء الجاهلية الحرث بن كعدة توفي سنة ١٣ للهجرة وهو من بني ثقيف من اهل الطائف رحل الى ارض فارس واخذ الطب من جنديسابور وتعاطى صناعة الطب هناك واكتسب مالا ثم عاد الى بلاده واقام في الطائف ونال شهرة واسعة وقد ادرك الاسلام وكان النبي يامر من كان به علة ان ياتيه فيستوصفه — ومنهم ابن ابي رومية التميمي والنضر بن الحرث بن كعدة

واكثر هؤلاء الاطباء تناولوا الطب من بلاد الفرس او الروم وبعضهم اخذه عن الكهان او الاحبار من الاديار ونحوها . وربما اخذوا عنهم شيئاً من الفلسفة القديمة كما فعل النضر المذكور . والظاهر ان بعضهم كان يخصص نفسه للاعمال الجراحية فيغلب عليه لقب الجراح واشهر جراحى الجاهلية ابن ابي رومية التميمي فقد كان جراحاً مزاولاً لاعمال اليد^(١) ونظراً لعناية العرب بجيولم وابائهم كان بعض الاطباء يخصص نفسه لمعالجتهم ما يعبرون عنه اليوم بالبيطرة . ومن يياطرة الجاهلية العاص بن وائل^(٢)

٦ - الشعر في الجاهلية

الشعر عند العرب الكلام الملقى الموزون وهو تعريف النظم وليس تعريف الشعر . لان النظم غير الشعر اذ قد يكون الرجل شاعراً ولا يحسن النظم وقد يكون ناطلاً وليس في نظمه شعر — وان كان النظم يزيد الشعر طلاوة ووقعاً في النفس . فالنظم هو القالب الذي يسبك فيه الشعر . واما الشعر باعم معانيه فيضعب الاختصار في تعريفه لما ينطوي تحته من اساليب التعبير وما يؤثره في النفس مما لا يستطيع تائيده الكلام المرسل . والفرق بينهما

اننا نعتبر بالكلام المرسل عما نشاهده او نستنتج من اعمال الحياة بالقياس او البرهان واما الشعر فنعتبر به عن شعورنا بالانفعالات النفسية بلا قياس ولا برهان . فالكلام المرسل « لغة العقل » والشعر « لغة النفس او القلب » وقال بعضهم « الشعر صور ظاهرة لحقائق غير ظاهرة » ولذلك فالشعر قديم لم تخل منه امة من امة العالم قديماً ولا حديثاً وهو مرآة آداب الناس وصحيفة اخلاقهم وديوان اخبارهم وصحف ادبائهم . لان الانسان ارتقت نفسه وتحرك قلبه قبل ان ارتقى عقله وتهذب مداركه فتكلم بالشعر قبل ان تكلم في العلم ولذلك كان اقدم اخبار الناس من قبيل الخيال واقدم المحفوظ من مدونات الامم كتب الشعر وقد دونوا فيها شعائهم الدينية والادبية او الحماسية او غير ذلك من صور الانفعالات النفسية . فالحماة والراميات عند المنود واللياذة والادويسية عند اليونان والانياذة عند الرومان وبعض اسفار التوراة عند اليهود والشهامة عند الفرس انما هي شعر حفظت فيها عادات تلك الامم واخلاقهم واخبارهم وخصوصاً من حيث العبادة والآلهة . وذلك طبيعي لان الشعر كما قلنا لغة النفس تعبر به عن انفعالها وتطلب به مشتهاها لا تقدم على ذلك برهاناً ولا تطلب دليلاً . والدين اكثر اعمالها حاجة الى التسليم والطواف في عالم الخيال

✽ الشعر العبراني ✽ والتعوب السامية اكثر الامم اعراقاً في عالم الخيال ولذلك كانوا اميل الناس الى اعتقاد التوحيد والتدين بما لا يقع تحت الحواس ولهذا السبب ايضاً كانوا اقرب الناس طبعاً الى التصورات الشعرية وترى ذلك واضحاً في ما خلفوه من الآثار الشعرية . واقدم آثار الساميين من هذا القبيل التوراة وقد وجدوا التصورات الشعرية في اقدم اسفارها . فما كلام لامك لامراتيه عادة وصلة في سفر التكوين (ص ٤ ع ٢٣) الأجزاء من نشيد ضاع ولم يبق منه الا مطلعاه وفي اصله العبراني ما يدل على انه شعرٌ موزون ومقفى . فهو اقدم منظومات العبرانيين بل اقدم الشعر المقفى في العالم على الاطلاق وفي التوراة امثلة كثيرة من التصور الشعري كقول يشوع لموسى لما سمع جلجلة الشعب عند نزول موسى من الجبل ولوحا الشهادة معه (خروج ٣٢ : ١٧) « صوت حرب في المحلة » فقال موسى « ليس ذلك صياح ظفر ولا صياح هزيمة بل صوت غناء انا سامع » والمظنون ان هذه النقرة بيت قديم تمثل به موسى في تلك الحال وقس عليه وهناك اسفار كلها شعر كسفر ايوب ويقال ان اصله عربي وسفر اشعيا ومزامير داود وغيرها مما هو مشهور . وقد بلغ الشعر العبراني اسمى درجاته في ايام سليمان الحكيم لاستتباب الامن وسعة الملك ورخاء العيش وهو العصر الذهبي عند اليهود مثل عصر المأمون عند

العرب . وكان سليمان نفسه حكيماً وشاعراً كما كان المامون ايضاً
❖ الشعر العربي ❖ والعرب كالعبرانيين في استعدادهم الفطري لقرض الشعر والاستغراق
في عالم الخيال لانهم ساميون مثلهم . واللغة العربية اكثر استعداداً للتعبير الشعري من
العبرانية لما فيها من المترادف والمتوارد واساليب المعاني والبيان . واذا اعتبرنا الاقليم والبيئة
راينا العرب اولى بالتصور الشعري من اليهود نظراً لانطلاقهم في الصحاري واستقلالهم في
احكامهم وافكارهم وسائر احوالهم . ولذلك كان شعرهم اكثر من قبيل الحماسة والفروسية
واما اليهود فالذل والانكسار والتدين هي الصفات المميزة لاشعارهم

على ان الغالب في الشعر ان يكون منظوماً وان اخذت الام في كيفية نظمه فاكتفى
بعضهم ان يكون موزوناً غير مقفى والبعض الآخر مقفى غير موزون او مقفى وموزون
معاً . والعرب يشترطون في شعرهم الوزن والتقفية والاقافية ليس من قبيل الشعر عندهم خلافاً
لما هو عند اخوانهم السريان والعبران . فقد كان السريان القدماء ينظمون بلا قافية اي
بلا التزام قافية واحدة كافرام السرياني واتحق الانطاكى وغيرها ^(١) . والعبرانيون لم
يكونوا يشترطون هذا ولا ذاك وربما اشتراطوا القافية دون الوزن — ولذلك لما سمعوا آيات
القرآن بما فيها من التصور الشعري الديني مع التزام القافية قالوا هذا شعرٌ بالقياس على
الشعر في لسانهم

ولا ريب ان للوزن والقافية رنة تزيد المعنى الشعري تأثيراً في النفس لانها هي
تجعله شعراً . فالخطابة تؤثر في النفوس وتهيج العواطف وكلامها غير موزون ولا مقفى
وهي من قبيل التصورات الشعرية وسيأتي الكلام عليها

❖ كيف توصلوا للنظم ❖ فالنصوص الشعرية فطرية في العرب اما النظم فحدث عندهم .
وربما صاغوا الشعر اولاً بعبارات قصيرة تحفظ وتتناقل على سبيل الامثال ومنها الامثال
الحكمية ونحوها . والظاهر انهم فضوا اجيالاً والنظم عندهم على سبيل الامثال حتى انتق
لبعضهم وهو يقول المثل انه جعله شطرين مستجوعين في مثل واحد او مثلين متالفين فراى
في ذلك رنة فترنم به واخذه عنه الناس وجعلوا يتغنونه في حدودهم وانشادهم وراء ابلهم —
والغناء لسان طبيعي — فاعجبهم رنة القافية والوزن فزادوا شطراً او شطرين او اكثر على
قافية واحدة وهو الرجز في ابسط احواله : وظلوا دهرًا طويلاً يقول شاعرهم من الرجز
البيتين او الثلاثة اذا هاجت فيه قريحة الشعر لمفاخرة او مشامة او منافرة وكانوا كما نبغ

فيهم نايغة ادخل في النظم تحسبنا . وقد ذكروا من حسنوا نظم الرجز المجاج والاغلب الهجلي ^(١) ولم يعينوا زمينه

اما القصيد فاشهر من اطلق سراحه امرؤ القيس امام الشعراء وجدده المهلهل من اهل القرن الخامس لبيد . فالمهلهل يقولون انه اول من قصد القصائد وامروء القيس اول من اطلما وتفنن في نظمها وفتح الشعر وبكى ووصف وهو اول من شبه الخيل بالعصا والقوة والسياح والطباء ^(٢) ورقة السيب وغير ذلك ولعله تنبه لهذا الفن في اثناء اسفاره في بلاد الروم فسمع اشعارهم او اشعار اليونان والنبه تنمق قريحته بالاخذلاط فزاد اخباره فادخل في الشعر ما ادخله . وكان الشعراء الجاهلية قلما يدخلون بلاد الروم وانما كانوا يقفون على الحدود في البقاء عند بني غسان او في الحيرة عند بني لخم المناذرة الا قليلا

فالعرب مطبوعون على الشعر (١) لانهم ساميون اهل خيال من فطرتهم (٢) لانهم سكنوا البادية وتعودوا الحرية والاستقلال (٣) لان شؤنهم البدوية قضت بينهم بالنزاع والتنافر والتفاخر مما يشمذ الازهان ويستحث البداه (٤) لان لغتهم تساعدهم على النظم . والعرب امة قديمة ولذلك وجب ان تنظم الشعر من قديم الزمان والحال ان اقدم ما وصل الينا من اشعارهم لا يتجاوز القرن الثاني قبل الهجرة فهل كان العرب قبل ذلك ينظمون؟ والغالب في اعتقادنا انهم نظموا كما نظم العبرانيون ولا يبعد ان يكون سفر ايوب من بقايا شعرهم القديم وقد حفظ في العبرانية وضاع اصله العربي . ولولم يحفظ في العبرانية لضاع كما ضاع غيره من منظومات العرب لجهلهم الكتابة ولا نقطاعهم عن الامم التي كانت تعرفها في ذلك العهد

* كثرة شعر العرب * على اننا نكتفي في الاستدلال على كثرة ما نظمته العرب باعتبار ما وصل الينا من اشعارهم في نهضتهم الاخيرة قبل الاسلام ^(٣) فقد نظموا في قرن واحد او قرنين ما لم يجتمع عند امم العالم المتقدم في عدة قرون وخصوصا في العصر الجاهلي فالباذة هوميروس ما معظم شعر جاهلية اليونان ولا يزيد عدد ابياتها على ٣٠,٠٠٠ بيت وكذلك واوذ يسته مها بهارانة الهنود ٢٠,٠٠٠ بيت وراماياتهم ٤٨,٠٠٠ بيت ^(٤) واما العرب فيؤخذ مما بلغنا من اخبارهم عما نظموا في نهضتهم الاخيرة قبل الاسلام انه يربو على اضعاف اضعاف ذلك . فهم يعدون منظوماتهم بالقصائد وليس بالايات فقد

(١) المزهري ٢٤٣ ج ٢ (٢) الشعر والشعراء ٥٢

(٣) تاريخ التمدن الاسلامي ٢٢ ج ١ (٤) Litt. Hist. of India 213

ذكروا ان ابا تمام صاحب كتاب الحماسة كان يحفظ من اشعار العرب (الجاهلية) ١٤٠٠ وارجوزة غير القصائد والمنطامات^(١) وكان حماد الراوية يحفظ ٢٧٠٠٠ قصيدة^(٢) على كل حرف من حروف الهجاء الف قصيدة . وكان الاعمى يحفظ ١٦٠٠٠ ارجوزة^(٣) وكان ابو خنم يروي اشعاراً لمائة شاعر كل منهم اسمه عمرو^(٤) . ومع ما يظن في ذلك من المبالغة فانه يدل على كثرة ما خلفه العرب من المنظومات . وخصوصاً اذا اعتبرنا ان ما وصل الى رواة الشعر في الاسلام انما هو بعض اشعار الجاهلية لان كثيرين من رواة الشعر الجاهلي قتلوا في الفتوح الاسلامية فذاع ما كان في محفوظهم من الاشعار — قال ابو عمرو ابن العلاء « ما انتهى اليكم من افال العرب الا اقله ولو جاءكم واقرأ الجاء كم علم وشعر كثير »^(٥) وزد على ذلك ان العرب نظموا الشعر الكثير وابدعوا فيه وهم بكادون يكونون فوضى لا دولة لهم ولا جامعة ولا دين ولا شيء مما حمل اليونان او المنود او غيرهم على النظم وانما اندفعوا اليه بفطرتهم . ولولا ذلك لنا خروا في النظم حتى قامت دولتهم ونشبت قرائنهم كما حدث للرومانين فان الشعر لم ينظم بلسانهم الا بعد تأسيس دولتهم ببضعة قرون . ولم يبلغ الشعر اللاتيني عصره الذهبي الا في ايام اوغسطس وطيباريوس نحو القرن الثامن من تأسيس رومية (القرن الاول للميلاد) ثم اخذ في التفتقر . ويقال نحو ذلك في دول اوربا الحالية فان الشعر لم ينضج عندهم الا بعد نشوء دولهم وتقدمهم في العلم والادب

❖ اقسام الشعر ❖ والشعر من حيث موضوعه ينقسم الى قسمين كبيرين الاول ما يعبر به الشاعر عن عواطفه وعواطف ذويه والثاني ما يصف به احوال الآخرين والاول هو الذي يسميه الافرنج Lyric اي الغنائي او الموسيقي من Lyric العود ويدخل فيه حكاية كل ما تشعر به النفس من الحب والشوق والوجد والرتاء والحماسة والفخر والانتقام . او ما علمته بطول الاختبار والتأمل كالامثال والحكم ونحوها . والثاني يشمل سائر ضروب الشعر ويدخل فيه الشعر القصصي الذي يسميه الافرنج Epic وهو عبارة عن نظم الحوادث والوقائع شعراً والشعر الوصفي والتثبيتي Drama . فاشعار الامم السامية اكثرها من النوع الاول وخصوصاً العبرانيون فانهم ارثى اهل الارض وابكاهم واشكاهم . فالزماير والمرائي

(١) ابن خلكان ١٢١ ج ١ (٢) النجوم الزاهرة ٤٢٠ ج ١

(٣) ابن خلكان ١٢١ ج ١ وطبقات الادباء ١٥١

(٤) الشعر والشعراء ٤ (٥) المزهري ٢٣٧ ج ٢

ونحوها من قبيل العواطف . والامثال والجامعة من الحكم . ويقال بالاجمال ان الخيال الشعري منصرف في العبرانيين الى الاحساس الديني كالعبء والشكوى والاستسلام .
ويقال نحو ذلك في العرب غير ان الخيال الشعري فيهم منصرف الى ما ندعو اليه احوالهم من المفاخرة والحماسة والتشبيب وذكر السيف والفرس . وقد عدوا من اشعارهم بضعة عشر نوعاً معظمها من قبيل الشعر الموسيقي الذي يعبر به عن العواطف كالغزل والفخر والمدح والهجاء والعتاب والاعذار والزهد والرثاء والتهاني والوعيد والتحذير والحماسة وبعضها من قبيل الوصف كالزهرات والخمرات وبعضها من قبيل العظة كالادب والحكم . ولو تدبرت معانيها لرايتها ترجع الى التعبير عن عواطف الشاعر او عواطف قبيلته .
واما الشعر الوصي او القصصي فلا نقول انه معدوم في العربية ولكنه قليل وخصوصاً في الجاهلية واكثر ما عثروا عليه منه لا يخرج عن وصف بعض الادوات او الحيوانات او بعض الوقائع القصيرة . واما الشعر القصصي على نحو ما في الياذة هوميروس او شاهنامة الفردوسي فلا وجود له عندهم . ولا بدل ذلك على انهم لم ينظموا مثلها بل يغلب على ظننا انهم نظموا كثيراً من اخبار حروبهم المشهورة بين قبائلهم ونظراً لعدم تدوينها ضاعت من مخزنهم الا قطعاً بقيت الى زمن تدوين الشعر في الاسلام نقتصر القصيدة منها على وصف وقعة او بعض وقعة من تلك الحروب والمقام لا يساعدنا على زيادة البحث .
وكان الشعر فطرياً في العرب يندر فيهم من لا يستطيعه حتى المجانين والبلهوس ^(١) ناهيك بالنساء فقد نبغ منهن جماعة كبيرة من الشاعرات . ومن لم يستطع الشعر لم يفته الاجتماع في المجالس العمومية اسماءه او مناشدته . وكثيراً ما كانت النساء يعقدن المجالس لمنشدة الاشعار وذكر الشعراء ونقد اقوالهم وبيان ما يتفاضل به بعضهم على بعض ^(٢) وكان اكثرهم ينظمون الشعر وهم اطفال لم ينظروا في الادب او الشعر ^(٣) فمن شب ولم تنفق قريحته عدواً ذلك نقصاً فيه وعيباً على اهله

﴿ منزلة الشعر ﴾ فكانوا يثيرون بذلك غير ابناءهم على انكان الشعر و يحرضونهم على نظمه . لان الشعراء كانوا حماة الاعراض وحفظة الآثار ونقلة الاخبار وربما فضلوا نبوغ الشاعر فيهم على نبوغ الفارس ولذلك كانوا اذا نبغ فيهم شاعر من قبيلة اتت القبائل الاخرى فهنأتها به وصنعت الاطعمة واجتمع النساء يلعبن بالزاهر كما يلعبن في الاعراس

وثبأشر الرجال والولدان لاعتمادهم انه حماية لاعراضهم وذب عن احسابهم وتحليل لما آثرهم واشادة لذكركم^(١) وفي الواقع ان ما بقي لنا من اخبار العرب الجاهلية وآدابهم وعلومهم واخلاقهم انما هو منقول عن اشعارهم فمن شعرهم استخرج الناس اخبار ايامهم وحروبهم ومنه الف السجستاني كتاب المعمرين ومنه استخرجوا احوال الشعراء المتقدمين وألفوا الكتب كابن قتيبة وغيره . ومن شعرهم استخرجوا وصف البلاد والجبال والادوية والوهاد ومنه ألفوا ما ألفوه في الحيوان والنبات ككتاب الحيوان للجاحظ والنبات لابن حنيفة الدينوري . ومن اشعارهم استطاعوا ادبايتهم في ايام جاهليتهم وقس على ذلك كل ما عرفوه من عاداتهم وآدابهم في الضيافة والفروسية والاعراس والمآتم وغيرها

وقد ذكروا شعراء هموا اعراض قبائلهم ببلاعة شعرهم كما حى زياد الاعجم قبيلة عبد القيس من لسان الفرزدق وكما حى عتبة بن ربيعة بنى قضي وغيرها كثيرون^(٢) وقد بلغ من احترام العرب للشعر والشعراء انهم عمدوا الى سبع قصائد اخثاروها من الشعر القديم وكتبوها بآء الذهب في القبايطي (التيل المصري) بشكل الدرج الملفت وعلقوها في استار الكعبة وهي المعلقة ولذا يقال لها المذہبات ايضا كذهبة امرء القيس ومذهبة زهير^(٣) وبعضهم يجعل المذہبات غير المعلقة . ونخبة اشعار الجاهلية ٤٩ قصيدة لتسعة واربعين شاعرا تنقسم الى سبعة مجاميع كل مجموع سبع قصائد تعرف بلقب خاص وهي : المعلقة والمجدهرات والمنقبات والمذہبات والمراثي والمثوبات والمخيمات . وهي مجموعة في كتاب جمهرة اشعار العرب لابن زيد الانصاري

* تأثير الشعر * اما تأثير الشعر في حماية الاعراض فسببه ما فطر عليه العرب من الحماسة والخيال فيثأثرون بالكلام البليغ وربما اقامهم البيت الواحد واقدمهم . ولذلك كانوا يخافون هجو الشعراء ويفتخرون بدأجهم حتى عمر بن الخطاب فانه كن اذا عرض عليه الحكم بين شاعرين كره ان يتعرض للشعراء واستشهد رجلاً للفريقين مثل حسان بن ثابت وغيره^(٤) وقد اشترى اعراض المسلمين من الخطيئة بثلاثة آلاف درهم ليؤكد الحجة عليه^(٥) وبلغ من شدة خوفهم الهجاء لئلا يبقى ذلك محفوظاً في الاعقاب انهم اذا اسروا

(١) المزهر ٢٣٦ ج ٢ (٢) بلوغ الارب ٩١ ج ٣ (٣) العقد الفريد ٩٣ ج ٣

(٤) البيان والتبيين ٩٧ ج ١ (٥) فوات الوفيات ٩٩ ج ١

الشاعر أخذوا عليه المواثيق . وربما شدوا لسانه بنسعة لئلا يهجوهم كما صنعوا بعبد يغوث بن وقاص المخاريبي حين اسره بنو تميم يوم الكلاب . وهو الذي يقول :

اقول وقد شدوا لساني بنسعة امعشر تميم اطلقوا من لساني
وتنحك مني شيخنة عبشمية كأن لم تر قبلي اسيراً يمانياً^(١)

فكانوا يبدلون قصارى الجهد في ان يمدحهم الشعراء . ومن مدحوه ارتفعت منزلته واذا كانت له بنات تزوجن كما فعل الاعشى الاكبر بالخلق اذ مدحه الاعشى بقصيدة اشدها في سوق عكاظ فاشتهر وخطبت بناته . وكما فعل مسكين الدارمي في اتفاق الخمر السود بعد كسادهما بيتين وصف بهما مليحة عليها خمار اسود وهما :

قل للمليحة في الخمار الاسود ماذا اردت بناسك متعبد
قد كلت شمر الصلاة ثيابه حتى قعدت له بياض المسجد
فرغب الناس بلبس الخمر السود فاشترؤا منها ما كان عند ذاك التاجر^(٢) وسياً في باقي الكلام على تأثير الشعر في النفوس في كلامنا عن العصر الاسلامي
القاب الشعراء ❀ وكان الشاعر يلقب بانفرد ورد في بعض اشعاره . فعوف بن سعد بن مالك القاب بالمرقش لقوله :

الدار قنبرٌ والرسوم كما رقص في ظهر الاديم قلم

وجريز بن عبد المسيح النخعي لقب بالمتلس لقوله :

فهذا اوان العرض حتى ذبابه زنا بـيره والازرق المتلس
وزياد بن معاوية الديلمي لقب بالنابعة لقوله :

وحلت في بني القين بن جسر وقد نبغت لنا منهم شؤون

وبقال نحو ذلك سيفه سائر القاهم كلخرق وافنون وتابط شراً واعصر والمستوعر والاعسر وطرفة وذو الرمة والمزرد وعويق وجران العود والعجاج وموسى الشموات والرقيات وصرير الغواني وغبار العسكر ومقبل الريح وغيرهم^(٣)

وكانت قبائل العرب تفتاوت في شاعريتها واشعرها ربيعة ومنهم المهمل والمرفشان الاكبر والاصغر وطرفة بن العبد وعمر بن قتيبة والحارث بن حازمة والمتلس والاعشى

(١) البيان والتبيين ١٧١ ج ٢ (٢) ابن خلكان ٤٤٦ ج ١

(٣) لطائف المعارف ١٧

والمسيب ثم انقل الشعر الى قيس ومنهم النابغة بن زهير بن ابي سلمى وربيعة وليبد والحطيئة
والشماخ وغيرهم . ثم اسنقر الشعر في تميم ومنهم اوس بن حجر شاعر مضر ويليهم هذيل وغيرها
وكان في حمير جماعة من الشعراء^(١) ومن الغريب ان العرب كانت تقرأ لقريش بالتقدم عليها
في كل شيء الا الشعر فانها كانت لا تقرأ لها به^(٢) والظاهر ان اختلاط العرب بالاعاجم
كان ينفق قرائحهم ويحملهم على النظم ولذلك كان اكثر القبائل شاعرية اقرهم الى
العراق واشعرهم من اختلاط بالفرس واشعر من كليهما من عاشر الفرس والروم
وبالجملة فقد كان الشعر شائعاً في العرب ولم تخل قبيلة من شاعر او غير شاعر يحصي
ذمارها ويصف عواطفها وكان الشعر عندهم مستودع الاخبار وخزانة الآداب والاخلاق
ولذلك قيل الشعر ديوان العرب . ومن قبيل الشعر الامثال فانها مرآة العادات والاخلاق
والآداب واستخرج الناس كثيراً من آداب العرب الجاهلية من امثالها

٧ - الخطابة في الجاهلية

الخطابة تحتاج الى خيال وبلاغة ولذلك عددناها من قبيل الشعرا وهي شعري منشور
وهو شعري منظوم وان كان لكل منهما موقف . فالخطابة تحتاج الى الحماسة وبغلب تأثيرها في
ابناء عصر الفروسية واححاب النفوس الالية طلاب الاستقلال والحرية مما لا يشترط في
الشعر . ولذلك تشابهت جاهلية العرب وجاهلية اليونان من هذا الوجه لان كليهما اهل شعر
وخطابة واهل اباء واستقلال . ولذلك ايضاً كانت الخطابة رائجة عند الرومان مع تأخر الشعر
عندهم ولنفس هذا السبب قصر العبرانيون في الخطابة مع تقدمهم في الشعر لعلبة النذل
والضعف على طباعهم فتحول خيالهم الشعري الى الشكوى والتضرع وانصرفت قرائحهم الى
نظم المراثي والحكم

اما العرب فقد قضى عليهم الاقليم بالحرية والحماسة وهم ذوو نفوس حساسة مثل سائر
اهل الخيال الشعري فاصبح للبلاغة وقع شديد في نفوسهم فالعبارة البليغة قد تقدمهم او
تقيمهم بما تثيره في خواطرهم من النخوة . واقتضت المنازعات بينهم ان يتفاخروا ويتنافروا
فاحتاجوا الى الخطابة في الاقتناع وتأليف الاحزاب وان غاب في مواضع خطبتهم المفاخرة
بالاحساب والآداب في المجالس والاندية العمومية والخصوصية . وكانوا يحطبون وعليهم

العمائم وهم وقوف في ايديهم المخاصرو يعتمدون على الارض بالقسي ويشيرون بالعصي والقنا وقد يخطبون وهم جلوس على رواحلهم^(١) . وما يدل على تشابه الشعر والخطابة ان الغالب في الشعراء ان يحطبوا والخطباء ان ينظموا فيكون الواحد شاعراً وخطيباً فاذا غلب عليه الشعر سموه شاعراً او الخطابة سموه خطيباً . والقبائل التي كثر خطباؤها هي غالباً التي كثر شعراؤها . ومن اقوالهم في تاريخ الشعر والخطابة ان عبد القيس بعدت حاربه اباد تفرقوا فرقتين ففرقة وقعت بعمان وشق عمان وفيهم خطباء العرب وفرقة وقعت الى البحرين وشق البحرين وهم من اشعر القبائل ولم يكونوا كذلك حين كانوا في سرّة البادية وفي معدن الفصاحة^(٢) ويدل ذلك على ما قدمناه من نتائج احثكك الافكار عند الاختلاط بالاعاجم ولهذا السبب كثر الخطباء ايضاً في اليمن لاختلاطهم بالفرس وكان الفرس اهل خطابة مثل العرب

❖ مواضع الخطب ❖ وكان العرب يخطبون بعبارة بليغة فصيحة وهم أميون لا يقرأون ولا يكتبون وانما كانت الخطابة فيهم قريحة مثل الشعر وكانوا يدرّبون فتيانهم عليها من حداثتهم^(٣) لاحتياجهم الى الخطباء في ايفاد الوفود مثل حاجتهم الى الشعراء في حفظ الانساب والدفاع عن الاعراض . ولكنهم كانوا يقدمون الشاعر على الخطيب في الجاهلية فلما جاء الاسلام صار الخطيب مقدماً لحاجتهم اليه في الاقناع وجمع كلمة الاحزاب . ولكن نظراً لحاجة العرب الى الخطباء في ارسال الوفود فقد كان خطيب القبيلة عندهم عميدها وزعيمها وهو واحد يعدل قبيلة ولسان يعرب عن السنة

اما ايفاد الوفود فقد كان شائعاً في تلك العصور فكانت دول الروم والهند والصين والفرس يتبادلون الوفود لمبادلة العلائق او للمفاخرة . ولم يكن للعرب دولة تستوفد من قبلها ولكن المناذرة ملوك العرب في العراق كانوا يذكرون فصاحة العرب بين يدي الاكاسرة وخصوصاً كسرى انوشروان فكان يميل الى مشاهدتهم . فانفق مرة ان النعمان خاطبه في ذلك فطلب اليه ان يريه واحداً منهم فاستقدم جماعة من خطباء العرب اخثار من كل قبيلة اثنين او ثلاثة هم بالحقيقة حكامهم ووجهائهم ومنهم اكثم بن صيفي وحاجب بن زرارة من قبيلة تميم والحارث بن ظالم وقيس بن مسعود من قبيلة بكر وخالد بن جعفر وعقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل من بني عامر وغيرهم . فقدموا على كسرى وخطب كل منهم بين يديه

(١) البيان والتبيين ٣٠ ج ٢ (٢) البيان ٤٢ و ١٣٩ ج ١

(٣) البيان ٥٨ و ٩٨ ج ١

خطاباً ذكره ابن عبد ربه مفصلاً في الجزء الثالث من العقد الفريد على ان عرب اليمن وشرقي جزيرة العرب كانوا يقدمون على كسرى للشكوى من عاله هناك وكان غيرهم من العرب يفدون عليه بالهدايا من الخيل ونحوها على سبيل الاستجداء كما فعل ابو سفيان والد معاوية

وكانوا يفدون على الامراء من العرب وغيرهم كوفود حسان بن ثابت على النعمان بن المنذر بالحيرة وعلى آل جفنة في البلقاء . ووفود وجهاء قريش على سيف بن ذي يزن في اليمن بعد قتله الجشة وفدوا عليه للتهنئة بالنصر وكان في جملة خطباء ذلك الوفد عبد المطلب جد النبي . ومن هذا القبيل وفود القبائل على النبي بعد ان استتب له الامر فقد جاءه من كل قبيلة وجهاءها وخيرة باغائها لاعتناق الاسلام او للاستفهام او غير ذلك . ومن هذا القبيل وفود العرب على الخلفاء للتسليم والتهنئة كوفود جيلة بن الابهيم وعمرو بن معدي كرب على عمر بن الخطاب ووفود اهل اليمامة على ابي بكر وغيرهم مما يطول شرحه

❖ الخطباء ❖ وجملة القول ان الخطباء كانوا عديدين في النهضة الجاهلية كالشعراء والغالب فيهم ان يكونوا امراء القبائل او وجهاءها او حكماءها . وكان لكل قبيلة خطيب او غير خطيب كما كان لها شاعر او غير شاعر . واشهر خطباء الجاهلية قيس بن ساعدة من بني اباد وقد ادركه النبي فراه في سوق عكاظ على جمل احمر وهو يقول في خطابه « ايها الناس اجتمعوا فاسمعوا وعوا من عاش مات ومن مات فات وكل ما هو آت آت » ^(١)

ومنهم سحبان وائل الباهلي الذي يضرب المثل بفصاحته فيقال « هو اخطب من سحبان وائل » وكان اذا خطب يسيل عرفاً ولا يعيد كلمة ولا يتوقف ولا يقعد حتى يفرغ . ومنهم جماعة كبيرة من حمير كدويد بن زيد وزهير بن خباب ومرثد الخير وغيرهم من سائر القبائل كالحارث بن كعب المذحجي وقيس بن زهير العبسي والربيع ضبيع الفزاري وذو الاصبع العدواني واكثم بن صيفي التميمي وعمرو بن كلثوم التغلبي وكثيرون غيرهم

وكانوا يتخبرون في خطبهم الالفاظ الرقيقة المعاني المألوفة . وكانت خطبهم على ضربين الطوال والقصار والقصار اكثر عدداً لانهم كانوا يفضلونها لسهولة حفظها . وكانوا لشدة عنايتهم بالخطب يتوارثونها ويتناقلونها في الاعقاب ويسمون بها باسماء خاصة كالعجوز اسم خطبة لآل رقية والعدراء خطبة قيس بن خارجة والشوواء خطبة سحبان وائل ^(٢)

٨ - مجالس الادب وسوق عكاظ

كان العرب يعقدون المجالس لمناشدة الاشعار ومبادلة الاخبار والمسامرة او البحث في بعض الشؤون العامة وكانوا يسمون تلك المجالس الاندية ومنها نادي قریش ودار الندوة كانت بجوار الكعبة . على انهم كانوا حينما اجتمعوا على فراغ من العمل عمدوا الى المناشدة والمفاخرة والمسامرة وخصوصاً في المواسم المعبر عنها بالاسواق

(الاسوق) والمراد بالسوق مكان يجتمع فيه اهل البلاد او القرى في اوقات معينة يتبايعون ويتداولون ويتقاضون . ولا تزال امثال هذه الاسواق تقام الى اليوم في القرى او في البلاد البعيدة عن التمدن الحديث . على ان في بعض المدن الكبرى كالقاهرة مثلاً اسواقاً تستعد في بعض ايام الاسبوع وتعرف بها كسوق السبت او السبتية وسوق الثلاثاء او الاربعاء . فيجتمع اليها الناس من الضواحي للبيع والشراء

ومن هذه الاسواق ما يعقد كل اسبوع ومنها ما لا يعقد الا مرة في الشهر او في السنة ومنها ما يعقد مرة كل بضع سنين . فان للهنود سوقاً يقيمونها في هردوار على ضفاف الكنج كل سنة ويبلغ عدد المجتمعين هناك في الموسم ٣٠٠,٠٠٠ نفس . ويقيمون في ذلك المكان حجاً مرة كل ١٢ سنة يبلغ عدد الحاجين اليه نحو مليون نفس وهو اكبر اسواق العالم . وامثال هذه الاسواق كثيرة في روسيا وبلاد الدولة العلية وفي جرمانيا وفرنسا وانكلترا واميركا . ففي روسيا سوق تقام في مدينة نوفكروود مرتين في السنة يبلغ عدد الذين يؤمونها ١٢,٠٠٠ نفس يجتمعون هناك من سائر بلاد روسيا ومن شرقي اوربا ويقدر ان قيمة ما يباع من البضائع في اسواق روسيا بنحو ١٢,٠٠٠,٠٠٠ روبل في العام وقس على ذلك سائر الاسواق الكبرى

وقد كان كثير من امثال هذه الاسواق في العالم القديم . ولكن الاقدام لا تتراحم فيها الا اذا كان الغرض من الاجتماع حجاً دينياً . فاذا اجتمع الناس في مكان الحج وتكاثروا احتاجوا الى من يبيعهم الاطعمة والاشربة وغيره فقام الاسواق لهذه الغاية — كذلك كان شأن العرب في سوق عكاظ وغيرها من اسواق الجاهلية

(اسواق العرب) كان للعرب في الجاهلية اسواق يقيمونها في اشهر السنة وينتقلون من احداها الى الاخرى يحضرها العرب من قرب منهم ومن بعد . فاذا فرغوا من سوق انتقلوا الى سواها فكانوا ينزلون دومة الجندل في اعالي نجد اول يوم من شهر

ربيع الاول فيقيمون اسواقها للبيع والشراء والاخذ والعطاء ثم ينتقلون الى سوق هجر فيقيمون هناك شهراً ويرتحلون منها الى عمان فيقيمون سوقهم ثم يرتحلون الى حضرموت فعدن وبعضهم ينزل صنعاء فيقيمون اسواقهم ثم يرتحلون الى عكاظ في الاشهر الحرام وكانت لهم اسواق أخرى في صحار والشحر والمجنة وحباشة والمشقر وغيرها^(١)

(سوق عكاظ) واشهر اسواق العرب الجاهلية سوق عكاظ وهي مكان بين الطائف ونخلة . فكانت العرب اذا قصدت الحج اقامت بهذه السوق من اول ذي القعدة يبيعون ويشترون الى عشرين منه ثم يتوجهون الى مكة فيقضون مناسك الحج ثم يعودون الى اوطانهم . وكان كل شريف انما يحضر سوق بلده الا عكاظ فانهم كانوا يتوافدون اليها من كل ناحية . ومن كان له أسير سعى في فدائه هناك ومن كانت له حكومة ارتفع الى الذي يقوم بأمر الحكومة في أيام المواسم وهم أناس من تميم . ومن كان له ثأر على أحد ولم يعرف مكانه طلبه في الموسم . او أراد أحد ان يعمل عملاً تعرفه العرب او يستشهدا فيه عمله في عكاظ^(٢) أو أراد ان يفاخر أحداً على مشهد من الناس فاخذه هناك . وكانوا يتفاخرون حتى في كبر المصائب — ذكروا ان الخنساء لما أصيبت بمصائبها المشهور اعلنت انها اكبر العرب مصيبة فبلغ ذلك هند بنت عتبة وكانت تعتقد انها اكبر مصيبة منها فأمرت يهودجها فسوّم براية وشهدت الموسم بمكاظ فقالت « اقربوا جلبي بجمل الخنساء » ففعلوا فلما دنت منها قالت لها الخنساء « من أنت يا أخية » قالت « أنا هند بنت عتبة أعظم العرب مصيبة وقد بلغني انك تعاطمين العرب بمصيبتك فبم تعاطمينهم » فقالت الخنساء « بعمرو بن الشريد وصخر ومعاوية ابني عمر وبم تعاطمينهم أنت » قالت « يا عتبة بن أبي ربيعة وعمي شيبه بن ربيعة وأخي الوليد قالت الخنساء « أوسواء هم عندك » ثم أنشدت تقول :

ابكي ابني عمرًا بعين غزيرة	قليل اذا نام الحلي هجودها
وصنوي لا أنسى معاوية الذي	له من سراة الحرتين وفودها
وصخر أومن ذا مثل صخر اذا غدا	بسلابة الابطال قبا يقودها
فذلك يا هند الرزية فاعلمي	ونيران حرب حين شب وقودها

فقال هند تحيها :

ابكي عميد الابطحين كليهما وحاميا من كل باغ يريدها

أبي عتبة الخيرات وبحك فاعلمي وشيبة والحامي الزمار وليدها
 أولئك آل المجد من آل غالب وفي العز منها حين ينمى عديدها ^(١)
 فإذا كانت هذه حالهم في المفاخرة بالمصائب فكيف بالانساب والاحساب والشجاعة
 والفضل ولذلك كثرت الخصام هناك وانتشبت عدة مواقع لا محل لذكرها هنا
 وإنما بهمننا في هذا المقام ان العرب كانوا يغتيمون وقت الموسم واجتماع القبائل ويقومون
 مجالس البحث والمناشدة والمفاخرة فينشد الشعراء ويخطب الخطباء فيختارون كبيراً من
 وجهاتهم يحملونه حكماً في ما يختلفون فيه • وكان النابغة الذبياني اذا أتى عكاظ في الموسم
 ضربوا له قبة حراء من ادم وتأنيه الشعراء فتعرض عليه اشعارها ^(٢) ليحكم فيها ويقال
 انهم كانوا اذا أقروا على فضل قصيدة علقوها هناك او في الكعبة ومنها المعلقة السبع
 وشأن العرب في ذلك مثل شأن اليونان القدماء في الجناسيوم وهي ابنية كانوا
 يجتمعون فيها للالعب البدنية وفيهم الفلاسفة والعلماء فكانوا يغتيمون فرصة وجودهم
 هناك ويتباحثون ويتناظرون ويتنافرون كما كان يفعل العرب في عكاظ • ولا يخفى ما في ذلك
 من تمحيص الحقائق واستحثاث القرائح فضلاً عما كان يترتب على ذلك الاجتماع من
 تنقيح اللغة ونحوها • فان قريش كانوا يسمعون لغات القبائل في أثناء تلك الاجتماعات فما
 استحسَنوه من لغاتهم تكلموا به فصاروا افصح العرب وخلت لغتهم من مستبشع اللغات
 ومستبجج الالفاظ كالشكشة والكمكسة والغنعة والفخفخة والوكم والوهم والعجمجة
 والاستطاء والشنشة وغير ذلك من العيوب في لغات الامم الاخرى ^(٣)

٩ - الانساب في الجاهلية

(الانساب) كان للانساب في عصور الجاهلية عند الامم القديمة شأن كبير وكان
 للناس عناية عظمى في حفظ انسابهم للتناصر على الاعداء او للتفاخر بالآباء • وقد بالغ
 اليونان في ذلك حتى حفظوا انساب آلهتهم وكيفية تسلسلها بعضها من بعض ثم نسبوا
 انفسهم اليها فلم يكن في جاهلية اليونان اسرة كبيرة من الاشراف ورجال السلطة الا وحبل
 نسبها يتصل ببعض تلك الآلهة • وقد نظم بعضهم الاشعار للتفاخر بذلك قبل المسيح ببضعة
 قرون • وكذلك كان الرومان في اقدم اجيالهم فالطبقة التي تعرف عندهم بالبطارقة

كانوا يدعون الانتساب الى آباء أعلى طبقة من البشر • ومن هذا القليل انتساب اليهود الى الآباء الاولين والانبياء وافتخارهم بذلك على سائر الامم • وهم يمتازون في هذا عن اليونان والرومان انهم يرجعون جميعاً الى اب واحد — وهذا ايضاً من قبيل ميلهم الفطري الى التوحيد مثل سائر الامم السامية

(نسب العرب) والعرب من حيث انسابهم فرع من العبران لان العدنانيين منهم يرجعون في أصل آبائهم الاولين الى اسماعيل بن ابراهيم والقحطانيين ينتسبون الى يقطان ابن عابر وقد زادت غاية العرب في الانساب رغبة في التناصر على الغرباء او بعضهم على بعض • وقد رتب انساب العرب في ست مراتب او طبقات اولها الشعب ثم القبيلة فالعمارة فالبطن فالخذ فالفصيلة • فالشعب النسب الأبعد مثل عدنان وقحطان ثم القبيلة وهي ما انقسمت فيها انساب الشعب مثل ربيعة ومضر ثم العمارة وهي ما انقسمت فيها انساب القبائل مثل قريش وكنانة ثم البطن وهو ما انقسمت فيه انساب العمارة مثل بني عبد مناف وبني مخزوم ثم الخخذ وهو ما انقسمت فيه انساب البطن مثل بني هاشم وبني أمية ثم الفصيلة مثل بني أبي طالب وبني العباس^(١)

وبالغ العرب في الرجوع الى الاجداد حتى رجعوا باسماء المدن الى اسماء بعض اجدادهم والغالب ان ينتهي النسب باحد آباء التوراة فاذا سئل أحدهم مثلاً عن الاندلس من بناها قال « بناها اندلس بن يافث بن نوح »^(٢) وكان النسابون يحفظون اسماء القبائل وما يتفرع منها حفظاً دقيقاً فاذا عرض لهم رجل فقال انا من بني تميم مثلاً فانسبني فإنه يبدأ من قبيلة تميم وما تفرع منها من العماثر والبطون والانشاد حتى ينتهي الى الفصيلة ومنها الى والد السائل او اليه هو نفسه

وكثر النسابون في الجاهلية ولم تخلُ قبيلة او عمارة او بطن من نسابة او غير نسابة ومن اشهرهم دغفل السدوسي من بني شيبان وعميرة ابو ضمضم وابن لسان الحمرة من بني تميم اللات وزيد بن الكيس الغمري والتخار بن أوس القضاءي وصعصعة بن صوحان وعبد الله بن عبد الحजर بن عبد المدان وغيرهم^(٣) وظل النسب محفوظاً في صدر الاسلام واشتهر كثير من النسابين فلما آلت الدولة الى الموالي والمصطنعين صار الناس ينتسبون الى مواليتهم ومصطنعهم

(١) الماوردي ١٩٤ (٢) ابن خلكان ١٤ ج ١

(٣) بلوغ العرب ١٩٦ ج ٣ والبيان ١١٨ ج ١

١٠ - التاريخ

لم يكن عند العرب الجاهلية تاريخ من قبيل ما تفهمه من هذه اللفظة اليوم ولكنهم كانوا يتناقلون اخباراً متفرقة بعضها حدث في بلادهم والبعض الآخر نقله اليهم الذين عاشروهم من الامم الاخرى . فمن امثال اخبارهم حروب القبائل المعروفة بايام العرب وقصة سد مأرب واستيلاء ابي كرب تبار اسعد على اليمن وبعض من خلفه وملك ذي نواس وقصة اصحاب الاحدود وفتح الحبشة لليمن وقصة اصحاب الفيل وقدمهم الكعبة وحرب ذي يزن الحميري الى آخر ما انتهى اليه امر الفرس في اليمن وقصة عمرو بن لحي واصنام العرب وحكاية جرمهم ودفن زمزم وتاريخ الكعبة الى ايام قصي بن كلاب وولاية الحج وامر امر بن الظرب ثم ما كان من غاب قصي على امر مكة وقصة حلف المطيبين وحلف الفضول وحفر بير زمزم وحرب الفجار وحديث بنيان الكعبة . غير اخبار عاد وثمود وغيرها من العرب البائدة وحكاية بلقيس وسليمان ونحوهما من اخبار التوراة وغير ذلك من الاخبار التي كان العرب يتناقلونها عند ظهور الاسلام

❦ الخلاصة ❦ وجملته القول ان ما سميناه علوم العرب قبل الاسلام يبلغ الى بضعة عشر علماً فلما جاء الاسلام اهتم بعضها كالهيئة والعيافة والقيافة وبقي بعضها عنداهله ونشأ ما يقوم مقامه في عصر الحضارة كالنجوم والانواء ومهاب الرياح والطلب والخليل وارثي الباقي واتسع عما كان في الجاهلية كالشعر والخطابة والبلاغة وكان الاسلام مساعداً على ارتقائها بالقران



علوم العرب بعد الاسلام

نريد بها العلوم التي اشتغل بها المسلمون من اول الاسلام الى ابان التمدن الاسلامي وهي كثيرة يمكن حصرها في ثلاثة مجاميع

(١) العلوم التي اقتضاها الاسلام وهي علوم القرآن والحديث والفقه واللغة والتاريخ ونسبها العلوم الاسلامية او الآداب الاسلامية

(٢) العلوم التي كانت في الجاهلية وارتقت في الاسلام وهي الشعر والخطابة ونسبها الآداب الجاهلية او الآداب العربية

(٣) العلوم التي نقلت الى العربية من اللغات الاخرى كالطب والهندسة والفلسفة والفلك وسائر العلوم الطبيعية والرياضية ونسبها العلوم الدخيلة او الاجنبية

وقبل البحث في هذه العلوم وعلاقتها بالتمدن الاسلامي نمهد الكلام بمقدمات لابد من تدبرها قبل الخوض في الموضوع :

مقدمات تمهيدية

١ - الاسلام والعلوم الاسلامية

كان العرب في ما ذكرناه من علومهم واخبارهم واطوارهم اذ جاءهم القرآن فيعتوا لما رأوه من بلاغة اسلوبه على غير المألوف عندهم . لانه ليس من قبيل ما كانوا يعرفونه من نثر الكهان المستعج ولا نظم الشعراء المقفى الموزون وقد خالف كليهما . وهو منشور مقفى على مخارج الاشعار والاستيعاج فلا هو شعر ولا نثر ولا سجع وفيه من البلاغة واساليب التعبير ما لم يكن له شبه في لسانهم فسبحروا باسلوبه وبما حواه من الشرائع والاحكام والاخبار . فلما دانوا بالاسلام اصبح مهمهم تلاوته وتفهم احكامه لانه قاعدة الدين والدنيا وبه تتأيد السلطة والخلافة . ثم اشكل عليهم بعض ما فيه واختلفوا في تفسيره فعمدوا الى الاقوال المأثورة عن النبي (الاحاديث) يستوضحون بها ذلك الاشكال فاصبح مهمهم جمع الاحاديث ممن سمعها او رواها عن سماعها بالاسناد المتسلسل فرأوا تبايناً في الروايات فاشتغلوا في التفريق بين صحيحها وفاسدها فرجعوا الى درس الاسانيد واستطلاع اخبار اصحاب الحديث

فجرّم ذلك الى درس طبقات المحدثين والاحوال التي تناولوا تلك الاحاديث فيها
ولما قامت دولتهم اخذوا في ضرب الاموال على البلاد التي فتحوها او غنمها . وضرائبها
تختلف شكلاً ومقداراً باختلاف طريق الفتح بين ان يكون عنوةً او صلحاً او اماناً او
قوةً فيجئوا في تحقيق اخبار الفتوح والمغازي وتدوينها . ولما فسدت الاحكام في ايام بني امية
اكثر العلماء من ذكر المواعظ وايراد اخبار السلف من الصحابة وخصوصاً الخلفاء الراشدين
فاجتمع من ذلك تاريخ النبي والصحابة والتابعين

والنظر في احكام القرآن والسنة لا بد فيه من فهم العبارة وتدبرها فثناً من ذلك
علم التفسير وباسناد نقله وروايته واختلاف القراء بقراءته تولد علم القراءات . وباسناد السنة
الى صاحبها والتفريق بين طبقات الحديث والمحدثين تولدت علوم الحديث . ثم لا بد من
استنباط هذه الاحكام من اصولها على وجه قانوني يفيد العلم بكيفية هذا الاستنباط وهو علم
اصول الفقه ثم النقه فالعقائد الايمانية ثم علم الكلام

ولما عمدوا الى تلاوة القرآن والحديث وتفسيرها اشكل على غير العرب اعرابها لان
ملكة اللغة غير راسخة فيهم فاضطروا الى تدوين اللغة وترتيب قواعدها وتعيين معاني
الفاظها -- ولذلك كان اكثر المشتغلين بعلوم اللغة من الاعاجم -- وتعيين معاني الالفاظ
وضبط التلفظ بها دعاهم الى البحث عن لغة قريش التي كتب بها القرآن وقد رأت ان
مرجع التحقيق في ذلك الى الاشعار والامثال فاشتغلوا في الاسفار الى بادية العرب وخالطوا
الاعراب ونقلوا اشعارهم واقوالهم وامثالهم ليدونوها ويرجعوا اليها في التحقيق . فراوا مشقة في
فهم معاني اشعارهم وامثالهم الا بالاطلاع على انسابهم واخبارهم وادابهم فلم يكن لهم بد من
درس ذلك كله وهو ما يعبرور عنه بعلم الادب . واختلفوا في فهم الاشعار ووجدوا في روايتها
اختلافًا وفي بلاغتها تفاوتًا فعمدوا الى البحث في طبقات الشعراء واما كتبهم واشعارهم
واخبار قبائلهم

وكان الراحلون في النقاط اللغة والشعر من افواه العرب في مضاربهم يقفون على سائر
علومهم كالنجوم والانواء والخليل والانساب وغيرها فلما عادوا لتدوين اللغة . دونوا ايضاً كثيراً
من تلك العلوم ولذلك كان اصحاب هذه العلوم غالباً من علماء اللغة وعثروا ايضاً على الفاظ
واشعار يندر ورودها فالفوا النوارد

وجملة القول ان ما اشتغل به المسلمون في صدر الاسلام من العلوم مرجعه الى القرآن فهو المحور
الذي تدور عليه العلوم الادبية واللسانية فضلاً عن الدينية ولذلك سميناها العلوم الاسلامية

٢ — العرب والقرآن والاسلام

كان الاسلام في اول امره نهضة عربية والمسلمون هم العرب وكان اللفظان مترادفين فاذا قالوا العرب ارادوا المسلمين وبالعكس . ولاجل هذه الغاية امر عمر بن الخطاب باخراج غير المسلمين من جزيرة العرب واصبح اهل الجزيرة كلهم مسلمين وهم عرب^(١) واساس الاسلام وقوامه القرآن في تأييده تأييد الاسلام او العرب . وتمكن هذا الاعتقاد في الصحابة لما فازوا في فتوحهم وتغلبوا على دولتي الروم والفرس فنشأ في اعتقادهم انه لا ينبغي ان يسود غير العرب ولا يتلى غير القرآن وشاع هذا الاعتقاد خصوصاً في ايام بني امية وقد بالغوا فيه حتى آل ذلك فيهم الى نقمة سائر الامم عليهم

اما في الصدر الاول فقد كان الاعتقاد العام « ان الاسلام يهدم ما كان قبله »^(٢) فرسخ في الازهان انه لا ينبغي ان ينظر في كتاب غير القرآن لانه جاء ناسخاً لكل كتاب قبله . وقد نهى الشرع الاسلامي يومئذ عن النظر في الكتب المنزلة غير القرآن لاتحاد الكلمة واجتماعها على الاخذ به . ومن الاحاديث الماثورة من هذا القبيل « لا تصدقوا اهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالذي انزل الينا وانزل اليكم والها والهمك واحد » ورأى النبي في يد عمر ورقة من التوراة غضب حتى تبين الغضب في وجهه ثم قال « ألم آتكم بها بيضاء نقية والله لو كان موسى حياً ما وسعه الا اتباعي »^(٣) ومن الاحاديث التي شاعت في ذلك العهد « كتاب الله فيه خبر ما قبلكم ونبأ ما بعدكم وحكم ما بينكم »^(٤)

فتوطدت الغرائم على الاكتفاء به عن كل كتاب سواء ومع ما كان قبله من كتب العلم في دولتي الروم والفرس كما حاولوا بعدئذ هدم ابوان كسرى واهرام مصر وغيرها من آثار الدول السابقة — فلا غرو اذا قيل ان العرب احرقوا مكتبة الاسكندرية وغيرها من خزائن العلم القديم

(١) الجزء الاول ٥١ (٢) النجوم الزاهرة ٣٧ ج ١

(٣) ابن خلدون ٣٦٤ ج ١ وكشف الظنون ٢٥ ج ١ وابعجد العلوم ١٠٩

(٤) العقد الفريد ١٥٨ ج ١

٣ -- احراق مكتبة الاسكندرية وغيرها

انشأ البطالسة في القرن الثالث قبل الميلاد مكتبة في الاسكندرية جمعوا اليها كتب العلم من اقطار العالم المتمدن في ذلك الحين وسياً في خبرها . وتوالى على هذه المكتبة احوال كثيرة في ابام الرومان الى الفتح الاسلامي وقد ضاعت بين احراق ونهب والمؤرخون من العرب وغيرهم يخزنون في كيفية ضياعها ففهم من ينسب احراقها الى عمرو ابن العاص بامر عمر بن الخطاب ويسندون على ذلك ببعض النصوص العربية واشهرها اقوال ابي الفرج الملقب وعبد اللطيف البغدادي والمقريزي وحاجي خليفة . ومنهم من يجمل العرب عن ذلك ويعطون في تلك الروايات ويضعونها . وقد كنا ممن جاري هذا الفريق في كتابنا « تاريخ مصر الحديث » منذ بضع عشرة سنة ثم عرض لنا بطالعانا المتواصلة في تاريخ الاسلام والتدوين الاسلامي ترجيح الراي الاول لاسباب نحن باسطوها في ما يلي اجلاء للتحقيق فنقول

اولاً : قد رأيت في ما تقدم رغبة العرب في صدر الاسلام في محو كل كتاب غير القرآن بالاسناد الى الاحاديث النبوية وتصريح مقدمي الصحابة

ثانياً : جاء في تاريخ مختصر الدول لابي الفرج الملقب عند كلامه عن فتح مصر على يد عمرو بن العاص ما نصه « وعاش (يحيى الغراما طبعي) الى ان فتح عمرو بن العاص مدينة الاسكندرية ودخل على عمرو وقد عرف موضعه من العلوم فاكرمه عمرو وسمع من الناطقة الفلسفية التي لم تكن للعرب بها آنسة . ما هاله ففتن به وكان عمرو عاقلاً حسن الاستماع صحيح الفكر فلازمه وكان لا يفارقه . ثم قال له يحيى يوماً ' انك قد احطت بمجواصل الاسكندرية وختمت على كل الاصناف الموجودة بها فما لك به انتفاع فلا نعارضك فيه وما لا انتفاع لك به فنحن اولى به ' فقال له عمرو ' ما الذي تحتاج اليه قال كتب الحكمة التي في الخزائن الملوكية ' فقال له عمرو ' هذا مالا يمكنني ان آمر فيه الا بعد استئذان امير المؤمنين عمر بن الخطاب ' . فكتب الى عمرو وعرفه قول يحيى فورد عليه كتاب عمريقول فيه ' واما الكتب التي ذكرتها فان كان فيها ما يوافق كتاب الله ففي كتاب الله عنه غنى وان كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة اليه فتقدم باعدامها ' فشرع عمرو بن العاص في تفريقها على حمامات الاسكندرية واحراقها في مواقد فاستنفدت

في مدة سنة اشهر فاسمع ماجرى واعجب»^(١)

وليس في نص هذه العبارة التباسٌ ولكن الذين يميلون العرب عن احراق هذه المكتبة يطعنون في هذه الرواية وينسبون قائلها الى التعصب الديني وفي جملتهم جماعة كبيرة من مؤرخي الافرنج وقد انوا الرائل والكتب في تجرييحها . خلاصة اقوالهم : ان ابا الفرج المذكور هو اول من نسب حريق مكتبة الاسكندرية الى عمرو بن العاص وانه انما فعل ذلك تعصباً للنصرانية وتحقيراً للإسلام . وانه من اهل القرن السابع للهجرة وكان ابوه يهودياً وتنصر وشب ابو الفرج على النصرانية وارثق في رتب الأكايروس الى الاسقفية ثم الف تاريخاً في السريانية -تخرجه من كتب يونانية وفارسية وعربية وسريانية واستخلص من هذا التاريخ كتاباً في العربية سماه مخضر الدول — قالوا «وهو اول كتاب ذكرت فيه هذه القصة وتناقها عنه الافرنج الى هذه الغاية» وان ما جاء في هذا الشأن من اقوال عبد اللطيف البغدادي والمقرئزي وحاجي خلفه من مؤرخي المسلمين لا تعتبر مصادر مستقلة لان المقرئزي نقل عن عبد اللطيف حرفياً وحاجي خلفه لم يذكر مدينة الاسكندرية وانما اشار الى ان العرب في صدر الاسلام لم يعنوا بشيء من العلوم الا بقلتهم وشريعتهم حتى قال «ويروى انهم احرقوا ما وجدوه من الكتب في فنوحات البلاد» وان عبد اللطيف البغدادي ذكر حريق المكتبة في عرض كلامه عن عمود السواري بغير تحقيق . ويزعم اصحاب هذا الرأي ان مكتبة الاسكندرية احرقها الرومان قبل الاسلام وانها لو احرقها العرب لذكرها مؤرخو المسلمين وخصوصاً كتاب الفتوح والمغازي . اهـ

لا نذكر ان بعض هذه المكتبة احترق قبل الاسلام ولكن ذلك لا يمنع احتراق باقيها في الاسلام . اما النصوص التي وردت في هذا الشأن فليس ابو الفرج اول من رواها كما توهم بعضهم . فان عبد اللطيف البغدادي طاف مصر وكتب عن مشاهداتها وانارها وذكر احراق العرب لهذه المكتبة قبل ان يولد أبو الفرج ببضع وعشرين سنة لان أبا الفرج ولد سنة ١٢٢٦ م (٦٢٢ هـ) وعبد اللطيف زار مصر في اواخر القرن السادس للهجرة وهناك نص عبارته «ورأيت ايضاً حول عمود السواري من هذه الاعمدة بقايا

(١) كتاب مخضر الدول صفحة ١٨٠ من طبعة بوكوك في اوكونيا سنة ١٦٦٣ م
واما النسخة المطبوعة في مطبعة الآباء اليسوعيين في بيروت فقد حذفت منها هذه الجملة
كها لسبب لا نعلمه

صالحة بعضها صحيح وبعضها مكسور ويظهر من حالها انها كانت مسقوفة والاعمدة تحمل السقف وعمود السواري عليه قبة هو حاملها . وأرى انه الرواق الذي كان يدرس فيه ارسطوطاليس وشيعته من بعده وانه دار العلم التي بناها الاسكندر حين بنى مدينته وفيها كانت خزانة الكتب التي أحرقها عمرو بن العاص باذن عمر رضي الله عنه ^(١) .
نعم ان عبارة البغدادي مختصرة وقد جاءت عرضاً لكنها تدل على وثوق قائلها بصحتها كانه أخذها عن مصدر موثوق به ومعمول عليه في ذلك العصر كالذي اخذ عنه أبو الفرج

اما أبو الفرج فقد أتم كتابه مختصر الدول في العربية في اواخر حياته (توفي سنة ٦٨٤ هـ) وهو ليس مختصر تاريخه السرياني الا من حيث اخبار الفتح لأنه يزيد على النسخة السريانية باخبار كثيرة عن الاسلام والمغول وتاريخ علوم الروم والعرب وآدابهم . واما السرياني فهو عبارة عن اخبار الفتح فقط فاعفال ذكر احراق المكتبة فيه لا يدل على انه دخل في النسخة العربية أو دسه فيه بعض المتأخرين كما توهم بعضهم وانما ذكر في النسخة العربية لانه يتعلق باداب الروم والعرب التي ادخلها المؤلف في هذه النسخة كما تقدم

وقد تبين لنا بالبحث والتنقيب ان أبا الفرج المذكور نقل تلك الرواية عن مؤرخ مسلم توفي قبله بنحو اربعين سنة وهو جمال الدين ابو الحسن علي بن يوسف بن ابراهيم القفطي وزير حلب المعروف بالقاضي الأكرم ولد في فقط من صعيد مصر سنة ٥٦٥ وتوفي في حلب سنة ٦٤٦ هـ وللقاضي المذكور كتاب في تراجم الحكماء عثرنا على نسخة منه خطية في دار الكتب الخديوية مكتوبة سنة ١١٩٧ هـ وقرأنا فيها في أثناء ترجمة يحيى النحوي كلاماً في معنى كلام ابي الفرج واكثر تفصيلاً منه وفيه شيء عن تاريخ هذه المكتبة منذ انشائها — واليك نص قوله :

« وعاش (يحيى النحوي) الى ان فتح عمرو بن العاص مصر والاسكندرية ودخل على عمرو وقد عرف موضعه من العلم واعتقاده وما جرى له مع التصاري فآكرمه عمرو ورأى له موضعاً وسمع كلامه في ابطال التثليث فاعجبه وسمع كلامه أيضاً في انقضاء الدهر ففطن به وشاهد من حججه المنطقية وسمع من الفاظه الفلسفية التي لم يكن للعرب بها

انسة ماهاله^١ . وكان عمرو عاقلاً حسن الاستماع صحيح الفكر فلازمه وكاد لا يفارقه . ثم قال له يحيى يوماً (انك قد أحطت بمجواصل الاسكندرية وختمت على كل الاجناس الموصوفة الموجودة بها فامالك به انتفاع فلا اعارضك فيه وأما ما لا نفع لكم به فتجنزأى به) فأمر بالافراج عنه . فقال له عمرو (وما الذي تحتاج اليه) قال (كتب الحكمة في الخزائن الملوكية وقد اوقعت الحوطة عليها ونحن محتاجون اليها ولا نفع لكم بها) فقال له (ومن جمع هذه الكتب وما قصتها) . فقال له يحيى (ان بطولوماوس فيلادلفوس من ملوك الاسكندرية لما ملك حبب اليه العلم والعلماء وخص عن كتب العلم وأمر بجمعها وأفرد لها خزائن جمعت وولى امرها رجلاً يعرف بابن مرة (زميرة) وتقدم اليه بالاجتهاد في جمعها وتحصيلها والمبالغة في انماسها وترغيب تجارها ففعل واجتمع من ذلك في مدة خمسون الف كتاب ومائة وعشرون كتاباً ولما علم الملك باجتماعها وتحقق عدتها قال لزمية اترى بقي في الارض من كتب العلم ما لم يكن عندنا . فقال له زميرة قد بقي في الدنيا شيء في السند والهند وفارس وجرجان والارمان وبابل والموصل وعند الروم فعجب الملك من ذلك وقال له دُم على التحصيل فلم يزل على ذلك الى ان مات وهذه الكتب لم تزل محروسة محفوظة يراعها كل من يلي الامر من الملوك واتباعهم الى وقتنا هذا) . فاستكثر عمرو ما ذكره يحيى وعجب منه وقال له (لا يمكنني ان آمر فيها بأمر الابد استئذان امير المؤمنين عمر بن الخطاب) وكتب الى عمر وعرفه بقول يحيى الذي ذكر واستأذنه ما الذي يصنع فيها فورد عليه كتاب عمر يقول فيه (واما الكتب التي ذكرتها فان كان فيها ما يوافق كتاب الله ففي كتاب الله عنه غني وان كان فيها ما يخالف كتاب الله تعالى فلا حاجة اليها فتقدم باعدامها) . فشرع عمرو بن العاص في تفريقها على حمات الاسكندرية واحراقها في مواقدتها وذكرت عدة الحمامات يومئذ وأنسيها نذكروا انها استنفدت في مدة ستة اشهر فاسمع ما جرى واعجب »^(١) انتهى كلام ابن القفطي

وبمقابلة هذه الفقرة بكلام أبي الفرج يتضح لك ان أبا الفرج نقل قول ابن القفطي مختصراً . ولو قرأت الكتابين لعلمت ان أبا الفرج نقل كثيراً من زياداته العلمية في كتابه العربي عن كتاب ابن القفطي ككلامه عن ثيادوق طيب الحجاج^(٢) فان العبارة منقولة عن تراجم الحكماء حرفياً

بقي علينا البحث في المصدر الذي نقل عنه ابن القفطي والغالب انه نفس المصدر الذي نقل عنه عبد اللطيف البغدادي لانهما كانا متعاصرين وعبد اللطيف سابقه لانه ولد سنة ٥٥٧ وتوفي سنة ٦٢٩ هـ ولكن لسؤ الحظ قد ضاعت تلك المصادر في جملة ما ضاع من مؤلفات العرب . على اننا اذا تدبرنا ما ذكره ابن التديم في كتاب الفهرست عن اخبار الفلاسفة الطبيعيين من حكاية انشاء مكتبة الاسكندرية يتضح لنا ان في جملة المصادر التي نقلت عنها تلك الرواية تاريخاً لرجل اسمه اسحق الراهب كان يبحث في اخبار اليونان والرومان وآدابهما . ومن جملة ما نقلوه عنه خبر انشاء مكتبة الاسكندرية على يد زميرة وهالك نصه « ان بطولوماوس فيلادلفوس من ملوك الاسكندرية لما ملك خصص عن كتب العلم وولى امره ارجل يعرف بزميرة فجمع من ذلك على ما حكى اربعة وخمسين الف كتاب ومائة وعشرين كتاباً وقال له ايها الملك قد بقي في الدنيا شيء كثير في السند والهند وفارس وجران والارمان وبابل والموصل وعند الروم » ^(١) وهي نفس عبارة ابن القفطي فالظاهر انه اخذ انشاء المكتبة عن اسحق المذكور واخذ حريتها عن سواء . ولولا ما نقله ابن التديم عن اسحق الراهب من امر الفلاسفة لما علمنا بوجوده وظنناه لم يقل شيئاً كما ظننا المسلمين لم يذكروا شيئاً عن حريق مكتبة الاسكندرية على يد عمرو

فيؤخذ مما تقدم ان حكاية احراق مكتبة الاسكندرية لم يخلقها ابو الفرج لتعصب ديني ولا دسها احد بعده بل هو نقلها عن ابن القفطي وهو قاض من قضاة المسلمين عالم بالثقافة والحديث وعلوم القرآن واللغة والنحو والاصول والمنطق والنجوم والهندسة والتاريخ والجرح والتعديل وكان صدراً محتملاً جمع من الكتب ما لا يوصف وكانوا يحملونها اليه من الافاق وكانت مكتبته تساوي خمسين الف دينار ولم يكن يحب من الدنيا سواها وله حكايات غريبة عن غرامه بالكتب ولم يخلف ولداً فأوصى بمكتبته لناصر الدولة صاحب حلب . وله مؤلفات عديدة في التاريخ والنحو واللغة وفي جملة ما كتب اخبار مصر من ابتدائها الى ايام صلاح الدين في ستة مجلدات ^(٢) وكتاب تراجم الحكماء الذي نحن في صده . وان ابن القفطي وعبد اللطيف البغدادي اخذا عن مصدر ضائع . واما خلوه كتب الفتح من ذكر هذه الحادثة فلا بد له من سبب والغالب انهم ذكروها ثم حذفوا بعد نضج التمدن الاسلامي واشتغال المسلمين بالعلم ومعرفتهم قدر الكتب فاستبعدوا

حدوث ذلك في عصر الخلفاء الراشدين فحذفوه او لعل لذلك سبباً آخر . وفي كل حال فقد ترجع عندنا صدق رواية أبي الفرج

ثالثاً : ورد في أماكن كثيرة من تواريخ المسلمين خبر احراق مكاتب فارس وغيرها على الاجمال وقد لخصها صاحب كشف الظنون في عرض كلامه عن علوم الاقدمين بقوله « ان المسلمين لما فتحوا بلاد فارس واصابوا من كتبهم كتب سعد بن أبي وقاص الى عمر بن الخطاب يستأذنه في شأنها وتقبلها للمسلمين فكتب اليه عمر (رضه) ان ' اطرحوها في الماء فان يكن ما فيها هدى فقد هدانا الله تعالى باهدى منه وان يكن ضللاً فقد كفانا الله تعالى ' فطرحوها في الماء او في النار فذهبت علوم الفرس فيها » ^(١)

وجاء في اثناء كلامه عن أهل الاسلام وعلومهم « انهم احرقوا ما وجدوا من الكتب في فتوحات البلاد » ^(٢) ولا بد من أصل نقل صاحب كشف الظنون عنه وقد اشار ابن خلدون الى ذلك بقوله « فاين علوم الفرس التي أمر عمر (رضه) بمحوها عند الفتح » ^(٣) رابعاً : ان احراق الكتب كان شائعاً في تلك العصور تشفياً من عدو او نكالة فيه فكان اهل كل شعبة او ملة تحرق كتب غيرها كما فعل عبد الله بن طاهر بكتب فارسية كانت لا تزال باقية الى ايامه (سنة ٢١٣ هـ) من مؤلفات الجوس وقد عرضت عليه فلما تبين حقيقتها أمر بالقائها في الماء وبعث الى الاطراف ان من وجد شيئاً من كتب الجوس فعليه ^(٤)

ولما فتح هولاء النري بغداد سنة ٦٥٦ هـ أمر بالقاء كتب العلم التي كانت في خزائنها بدجلة وكانت شيئاً لا يعبر عنه . مقابلة في زعمهم بما فعله المسلمون لاول الفتح بكتب الفرس وعلومهم ^(٥) وقال آخرون انه بنى بلك الكتب اسطبلات الخيول وطوال الممالك عوضاً عن اللبن ^(٦) والارجح انه أغرقها انتقاماً من أهل السنة

ولما فتح الافرنج طرابلس الشام في اثناء الحروب الصليبية احرقوا مكتبتها بأمر الكونت برترام سنت جيل وكان قد دخل غرفة فيها نسخ كثيرة من القرآن فأمر باحراق المكتبة كلها وفيها على زعمهم ثلاثة ملايين مجلد ^(٧) وفعل الاسبان نحو ذلك بمكاتب

(١) كشف الظنون ٤٤٦ ج ١ (٢) كشف الظنون ٢٥ ج ١

(٣) ابن خلدون ٣٢ ج ١ (٤) Browne's Lit. Hist. of Persia, 347

(٥) ابن خلدون ٥٣٧ ج ٣ و ٥٤٣ ج ٥ (٦) ابن الساعي ١٢٧

(٧) Gibbon's Roman Empire II, 505 وابن خلكان ١٢٨ ج ٢

الاندلس لما استخرجوها من ايدي المسلمين في اواخر القرن الخامس عشر
خامساً : ان اصحاب الاديان في تلك العصور كانوا يمدون هدم المعابد القديمة واحراق
كتب اصحابها من قبيل السعي في تأييد الاديان الجديدة . فامبراطرة الروم حالما تنصروا
أمروا بهدم هياكل الاوثان في مصر واحراقها بما فيها من الكتب وغيرها . وكان خلفاء
المسلمين اذا ارادوا اضهاد المعتزلة وأهل الفلسفة احرقوا كتبهم . والمعتزلة كثيراً ما
كانوا يتجنبون ذلك تحت خطر القتل فيستترون ويجمعون سرّاً والخلفاء يتعقبون
آثارهم ويحرقون كتبهم . ومن اشهر الحوادث من هذا القليل ما فعله السلطان محمود
الغزنوي لما فتح الري وغيرها سنة ٤٢٠ هـ فانه قتل الباطنية ونفى المعتزلة واحرق كتب
الفلسفة والاعتزال والنجامة^(١)

سادساً : في تاريخ الاسلام جماعة من ائمة المسلمين احرقوا كتبهم من تلقاء انفسهم
منهم احمد بن ابي الحواري فانه لما فرغ من التعلم جلس للناس فخطر بقلبه يوماً خاطر من
قبل الحق فحمل كتبه الى شط الفرات فجلس يبكي ساعة ثم قال « نعم الدليل كنت لي على
ربي فلما ظفرت بالمذلول فالاشتغال بالدليل محال » ففصل كتبه وذكروا عن سفيان الثوري
انه اوصى بدفن كتبه . وان ابا عمرو بن العلاء كانت كتبه ملء بيت الى السقف ثم
تنسك واحرقها^(٢)

فيرجح مما تقدم ان العرب احرقوا ما عثروا عليه من كتب العلم القديمة في الصدر
الاول تأييداً للاسلام فاما تأييد سلطانهم واشتغولوا بالعلوم عوضوا على العالم اضافة
احرقوه كما سترى

٤ - الرومان والاسلام والعلم

من جملة ما يرمى به العرب من المطاعن « انهم حتى في ابان تمدنهم لم يشتغلوا هم انفسهم
في العلم وانما كان المشتغلون به الفرس وغيرهم من الامم الخاضعة لسلطانهم بخلاف اليونان
والرومان وغيرهما من دول التمدن القديم فقد كانوا هم انفسهم يشتغلون بالعلم وقد وضعوا
علومًا تناقلها الناس عنهم واما العرب فاكثر علومهم منقولة عن سواهم »
فاصحاب هذا القول يقابلون بين دولة الرومان ودولة العرب والصواب ان يقابلوا بين

(١) ابن خلدون ٧٨ ج ٤ (٢) كشف الظنون ٤٠ ج ١ والبيان ١٢٣ ج ١

الرومان والاسلام . لان العرب اسسوا دولة الاسلام كما اسس اهل رومية دولة الرومان ودخل في دين الاسلام امم كثيرة اختلفوا بالعرب فتألف منهم امة الاسلام كما اختلفت شعوب الممالك التي فتحها اهل رومية وصارت امة واحدة تعرف بامة الرومان

فاذا قابلنا بين الاسلام والرومان رأينا المسلمين اكثر اشتغالا بالعلم والادب من اولئك لان كليهما نقل العلم عن اليونان والمشتغلون به من الرومان لم يكونوا من اهل رومية كما ان المشتغلين به من المسلمين لم يكونوا كلهم من اهل جزيرة العرب . والسبب في اجتماع شعوب المملكة الرومانية باسم الرومان وعدم اجتماع شعوب المملكة الاسلامية باسم العرب ان العرب فتحوا بلاداً اهلها عريقون في الحضارة فلم يمكن اندماجهم وضياع جنسياتهم وقد ساعد على ذلك تفرق المذاهب ومبالغة العرب في تفضيل انفسهم على سواهم من الامم الخاضعة لسلطانهم

اما اليونان فلا جدال في انهم وازعوا العلم والفلسفة لما في فطرتهم من الاقتدار على ذلك — وان كانوا قد بنوا عليهم وفلسفتهم على اسس اخذوا بعضها من المصريين القدماء والبعض الآخر من الكلدان وغيرهم — لكنهم يعدون واضعين فهم يفضلون الرومان والعرب من هذا القبيل . ولكنهم اضعف منها في انشاء الحكومات وسن الشرائع لان اليونان لم يطل امر دولتهم ولا نظموا حكومة ثابتة وانما كانوا دولاً صغيرة متفرقة يتنازعون ويتنافسون ويتنافسون

ثم ان الرومان اخذوا العلم والفلسفة عن اليونان وقلموا زادوا فيها ولكنهم نظموا الحكومة ووضعوا الشرائع والقوانين ونظموا دولة عظيمة مما لم يستطعها اليونان . فالرومان اهل فتح وسلطان واليونان اهل تصور وخيال . واما العرب فقد جمعوا الحسنتين لانهم اهل فتح وسلطان واهل تصور وخيال . ولذلك فانهم انشأوا دولة بعيدة الاطراف ووضعوا الشرائع والنظامات (الفقه) ولم يكتفوا بنقل العلم عن اليونان واستبقائه على حاله بل هم درسوه وزادوا فيه من نتائج قرائحهم وعقولهم وبما نقلوه من علوم الفرس والمند والكلدان وغيرهم فضلاً عما وضعوه هم انفسهم من العلوم الاسلامية واللسانية وما تميزوا فيه من قريحة الشعر وليس هنا محل الافاضة في ذلك



د - حملة العلم في الاسلام اكثرهم العجم

قد تقدم ان العلوم التي حدثت في التمدن الاسلامي صنفان العلوم الاسلامية والعلوم الدخيلة فنغتب العلوم الاسلامية في غير العرب من المسلمين سببه ان العرب قاموا بالاسلام وفتحوا الفتوح وهم اهل بادية اميؤن فانصرف همهم في بدء الدعوة الى نشر دينهم وانشاء دولتهم مما لا يحتاج الى علم . وانما كانت حاجتهم من العلم الى انقرآن يدعون الناس به الى الاسلام وكانوا يستظهرونه ويتناقلونه بالتلقين . ولم يرض على ظهور الدعوة بضع وعشرون سنة حتى فتحوا الشام والعراق ومصر وفارس وافريقية وغيرها والمسلمون (العرب) يومئذ هم الجند الفاتح وكانوا قليلين بالنظر الى ذلك الملك الواسع فضلاً عما عمن قتل منهم في الحروب والفتن . ومع ذلك فقد كانوا مطالبين بحفظ تلك المملكة وحماية اهلها وتدير شؤونها . فاصبح همهم الاشتغال بالرئاسة في الجند والحكومة . ونظرا لنظرتهم الخيالية الضعفت قراحتهم الى الاشتغال بالشعر والخطابة والامثال — وهي آدابهم في جاهليتهم — وتحريض ابنائهم على اتقانها مع المثابة على اسباب الرياضة البدنية بالفروسية والعناية بالخيول مما اعانهم على الفتح ونشر الدين واصبحوا يخافون التخصر لئلا يذهب بنشاطهم وجامعتهم وكان رجالهم العظيم عمر بن الخطاب نظرا الى مستقبل الاسلام من طرف خفي فنعهم من الزرع والاشتغال باسباب الحضارة . ولهذا السبب لما تفرق العرب في الامصار وتعرضوا لاططار البحار كتب اليهم عمران يمارسوا السباحة ايضا . وهالك نص كتابه « اما بعد فعلوا اولادكم السباحة والفروسية ورووهم ما سار من المثل وحسن من الشعر »^(١)

ولما فسدت اللغة واختلفت القراءات وازمعت الخلفاء على جمع القرآن وتدوينه كان اكثر المتهاوتين على حفظه من المسلمين غير العرب وهم الموالي واكثرهم من الفرس وكانوا يومئذ اهل تمدن وعلم وكان العرب يعرفون لم ذلك ومن الاحاديث النبوية « لوتعلق العلم باكناف السماء لئلا قوم من اهل فارس »^(٢) وكان الفرس من الجهة الاخرى يرون للعرب مزية عليهم بالسيادة والنبوة وهيبة الفتح فجعلوا يتقربون اليهم بالعلم على ما تتطلبه حال الاسلام — وهو في اوائل دولتهم عبارة عن قراءة القرآن وحفظه وتفسيره وجمع الحديث واسناده وحفظه . فكان لذلك اكثر الحفاظ والقراء والمحدثين والفقهاء والمتسرين من العجم واذا كان فيهم احد من العرب فالاغلب فيه ان يكون من القبائل الصغرى

التي لا شأن لها في الفتح كدلاسمعي فقد كان عربياً ولكنه كان من قبيلة باهلة الموصوفة بالخساسة وفيها يقول بعض الشعراء

لو قيل للككب يا باهلي عوى الككب من لؤم ذاك النسب

على ان الاكثرين كانوا من غير العرب فذهب بن منبه من اقدم رواة الحديث واصحاب التفسير وهو فارسي الاصل ونافع انقاريء ديلبي وقس على ذلك سائر العلماء . فمن اكبر النحهاء واقدمهم الحسن بن ابي الحسن ومحمد بن سيرين بالبصرة . وعطاء بن ابي رباح وجاهد وسعيد ابنا جبير وسليمان بن يسار في مكة . وزيد بن ا-لم ومحمد بن ابتكر ونافع بن ابي نجيح في المدينة . وربيعة الراي وابن ابي الزناد في بقاء . وطاووس وابنه ومنبه في اليمن . ومكحول في الشام وغيرهم في اما كن اخرى وكلم من الموالي اي المسلمين غير العرب^(١)

ولما دعا فساد اللغة الى ضبط قواعدها وجمع النفاظيا كان العجم احوج الى ذلك من العرب لاستغناء العربي بملكته الفطرية عن تعلم القواعد وحفظ الانفاظ فاشتغل الاعاجم بعلوم اللغة وكان اكثر علماء الادب واللغة منهم كعلاء الرواية وهو ديلبي والخليل وسيبويه والخنس والثارسي والزجاج وغيرهم من النرس او من في معانهم

اما العلوم الدخيلة وهي العلم والفلسفة فاشتغلون بها للعرب هم غير العرب وغير المسلمين لان العباسيين لما ارادوا نقل كتب اليونان والنرس والهند الى العربية استخدموا عارفي هذه الالسنه من الكلدان والسريان والفرس وغيرهم لنقلها واكثرهم من النصارى كما سيبيء

فالعرب اشتغلوا عن العلم في اول دولتهم بالرئاسة والسياسة للاسباب التي قدمناها وما زالوا هم اهل الدولة وحاميتها واولي سياستها الى اوائل الدولة العباسية فتولد فيهم بتوالي الاجيال الانفة من اتحال العلم لانه صار من جملة الصنائع -- وادل الرئاسة يستمكنون من الصنائع والمهن -- وكونوا اذا رأوا عربياً يشتغل في اللغة او التعليم عابوه وقالوا « انه يشتغل بصناعات الموالي » ومن اقوالهم « ليس ينبغي للقرشي ان يستغرق في شيء من العلم الا علم الاخبار واما غير ذلك فالنتف والشذر من القول » ومرّ رجل من قریش بنى من ولد عثاب ابن اسيد وهو يقرأ كتاب سيبويه فقال « اف لكم علم المتأدين ومة المحتاجين »^(٢)

ولا بأس من اشتغال الموالي بالعلوم الاسلامية وهم مسلمون . على اننا لانعذ العرب الذين تحضروا في الدولة العباسية عرباً خالصاً لاختلاطهم بالموالي والممالك بالمصاهرة والمعاشرة والمساكنة حتى الخلفاء فان اكثر اهلهم من غير العرب وسنعود الى هذا البحث في جزء آخر

(١) العقد الفريد ٧٤ ج ٢ (٢) البيان والتبيين ١٥١ ج ١

٦ - تدوين العلم في الاسلام

قلما فيما تقدم ان الخلفاء الراشدين كانوا يخافون الحضارة على العرب لئلا تذهب بنشاطهم وبدوتهم • ولذلك منعهم من تدوين الكتب لان علومهم في اوائل الاسلام كانت قاصرة على القرآن والتفسير ورواية الاحاديث ونظراً لقلّة الاختلاف والواقعات ولسهولة المراجعة والاستفتاء من ثقات الصحابة والتابعين لقرب عهدهم من صاحب الشريعة كانوا في غنى عن تدوين تلك العلوم • ويستدل بما روي عن ابي سعيد الخدري انه استأذن النبي في كتابة العلم فلم يأذن له وروي عن ابن عباس انه نهى عن الكتابة وقال « انما ضلّ من كان قبلكم بالكتابة » وجاء رجل الى ابن عباس فقال « اني كتبت كـتـة بأريد ان اعرضه عليك » فلما عرضه عليه اخذ منه ومحي بالماء وقيل له « لماذا فعلت ذلك » قال « لانهم اذا كتبوا اعتمدوا على الكتابة وتركوا الحفظ فيعرض للكتاب عارض فينوت علمهم »^(١) وان انكتاب يزداد فيه ويتقص ويغير والمحفوظ لا يمكن تغييره

وكان هذا الاعتقاد قاشياً في الصحابة والتابعين وتمسك به جماعة من كبارهم وكانوا اذا سئلوا تدوين علمهم ابوا واستنكفوا — ولعلمهم كانوا يفعلون ذلك ليلقي الناس في حاجة اليهم رأساً • سأل رجل سعيد بن جبير وهو من اعلام التابعين ان يكتب له تفسير القرآن فغضب وقال « لان يسقط شقي احب اليّ من ذلك »^(٢)

فقضى العرب عصر بني امية وهم يشتاقون الى البدوة لان دولتهم كانت عربية بدوية فانقضى القرن الاول وبعض القرن الثاني للهجرة والمسلمون يتناقلون العلم بالملقن ويمتدنون على الحفظ ولم يدونوا غير القرآن لاسباب سياي بينها • وكان ابو بكر قد توقف عن جمعه وتدوينه وقال « كيف افعل أمراً لم يفعله رسول الله »^(٣)

اما ما خلا ذلك من التفسير والحديث والاشعار وال الاخبار والامثال فقد كانوا يتناقلونها في صدورهم واكثرهم يقرأون واكثرهم لا يكتبون وقد يكون بعضهم حافظاً ومفسراً وهو لا يقرأ كما كان شأنهم في الجاهلية يشعرون ويخطبون ولا يقرأون فلما انتشر الاسلام واتسعت الامصار وتفرقت الصحابة في الاقطار وحدثت الفتن واختافت الآراء وكثرت الفتاوى والرجوع الى الكبراء اخطروا الى تدوين الحديث والفقه

(١) كشف الظنون ٢٥ ج ١ (٢) ابن خلكان ٢٠٥ ج ١

(٣) الفهرست ٢٤

وعلم القرآن واشتغلوا في النظر والاستدلال والاجتهاد والاستنباط وتمهيد القواعد والاصول وترتيب الابواب والفصول فراؤا ذلك مستحباً فعمدوا الى التدوين ورجعوا الى حديث رواه انس بن مالك وهو قوله « قيدوا العلم بالكتابة »^(١) وقوله « العلم صيد والكتابة قيد »^(٢)

على انهم ظلوا مع ذلك يستكفون من التدوين بايديهم فكانوا يستكتبون الكتاب او يلقون دروسهم بطريق الاملاء . وذلك ان يكلم المحدث او الفقيه والتلميذ يكتب على الرق او القرطاس او الكاغد فيبدأ المستمعي في اول الفأمة بقوله « مجلس املاء شيخنا فلان بجامع كذا في يوم كذا » ويذكر التاريخ ثم يورد المألى باسناده سواء كان حديثاً او خبراً واذا كان فيه غريبٌ يحتاج الى التفسير فيه . واورد اشعار العرب وغيرها باسنادها او الفوائد اللغوية باسناد او بنير اسناد على ما يختاره^(٣) وهذا معنى قولهم « مالي » المحدث فلان او انغوي اي ما املاه من الفنون

وظلوا حتى بعد اشتغالهم بالتأليف يحرضون الناس على الحفظ والتعويل على اللماع وان احوج العلوم الى ذلك علم الدين ثم الشعر لما فيه من الالفاظ الغريبة واللغات المختلفة والكلام الوحشي واسماء الشجر والنبات والمواضع والبلدان . لان الكتابة في القرون الاولى للاسلام كانت بلا نقط فلا تفرق في شعر المذليين اذا أنت قرأته بين « شابة » و « ساية » وهما موضعان . ولا تشق بمعرفتكم في تمييز امثلهما تما تشابه صورته بدون اعجام . وقرئ يوماً على الاصمعي في شعر ابن ذؤيب « بأسفل ذات الدير افرد ججشها » فقال اعرابي حضر مجلس القارئ « ضل ضلالاً ابها القارئ انما هي ذات الدبر (بالباء) وهي شبة عندنا » فاخذ الاصمعي بذلك فيما بعد . ومن يرى شعر المعدل في وصف الفرس :

من السحج جواءاً كان غلامه يصرف سبداً في العنان عمروداً
اذا كان بلا تنقيط ولا يقرأ « سيداً » بالياء لانصراف الذهن الى السيد وهو الذئب وقد اخطأ في ذلك أكثر الذين قرأوا هذا البيت^(٤)

فظل المسلمون زهاء قرن وليس عندهم كتاب مدون غير القرآن مع ان الكتابة كانت شائعة يومئذ . وقد نبغ جماعة من مفسري القرآن ورواة الحديث وعلماء النحو

(١) البيان والتبيين ١٦١ ج ١ (٢) كشف الظنون ٢٦ ج ١

(٣) المزهر ١٦٢ ج ٢ (٤) الشعر والشراء لابن قتيبة ٢٠

وخصوصاً في القرآن فيكتبون « الكتب » بدل « الكتاب » و « الظلدين » بدل « الظالمين »

فجاء الاسلام والكتابة معروفة في الحجاز ولكنها غير شائعة فلم يكن يعرف الكتابة الا بضعه عشر انساناً اكثرهم من كبار الصحابة وهم علي بن ابي طالب وعمر بن الخطاب وطاحه ابن عبيد الله وعثمان وابان ابن سعيد بن خالد بن حذيفة ويزيد بن ابي سفيان وحاطب ابن عمرو بن عبد شمس والعلاء بن الحضرمي وابو سبله بن عبد الاشهل وعبد الله بن سعد ابن ابي سرح وحويطب بن عبد العزي وابو سفيان بن حرب وولده معاوية وجنيم بن الصلت بن خزيمة . ثم تلم غيرهم من الصحابة ومنهم خرج كتاب الدواوين للخلفاء الراشدين وكتاب الرسائل وكتاب القرآن . فكتبوا القرآن بالكوفي ايام الراشدين وابان بني امية وفي ايامهم تفرع الخط المذكور الى اربعة اقلام اشتقها بعضها من بعض كآب اسمه قطاية كان اكتب اهل زمانه وكان يكتب لبني امية المصاحف . ثم اشتهر بعده الضحاك بن عجلان في اوائل الدولة العباسية فزاد على قطاية وزاد بعده اسحق بن حماد وغيره فبلغ عدد الاقلام العربية الى اوائل الدولة العباسية ١٢ قلماً وهي (١) قلم الجليل (٢) قلم السجلات (٣) قلم الديباج (٤) قلم اسطور مار الكبير (٥) قلم الثلاثين (٦) قلم الزنبور (٧) قلم المنتح (٨) قلم الحرم (٩) قلم المدامرات (١٠) قلم العبود (١١) قلم القصص (١٢) قلم الحرفاج . وفي ايام المأمون تنافس الكتاب في تجويد الخط فحدث القلم المربع وقلم النساخ وقلم الرياضي نسبة الى من اخترعه ذي الرئاستين الفضل بن سهل وقلم الرفاع وقلم غبار الحلية^(١)

فزادت الخطوط على عشرين شكلاً وكلها تعد من الكوفي واما الخط النسخي او النبطي فقد كان شائعاً بين الناس لغیر المخطوطات الرسمية حتى اذا نبغ ابن مقلة المتوفى سنة ٣٢٨ هـ فادخل في الخط المذكور تحسيناً جعله على نحو ما هو عليه الآن وادخله في كتابة الدواوين . والمشهور عند المؤرخين ان ابن مقلة نقل الخط من صورة القلم الكوفي الى الصورة التلم النسخي والغالب في اعتقادنا ان الخطين كانا شائعين معاً من اول الاسلام الكوفي للمصاحف ونحوها والنسخي (او النبطي) للرسائل ونحوها كما تقدم . وان ابن مقلة انما جعل الخط النسخي على قاعدة جميلة حتى يصلح لكتابة المصاحف . وقد شاهدنا في معرض الخطوط

العربية القديمة في دار الكتب الخديوية عقد نكاح مكتوباً في اواسط القرن الثالث للهجرة سنة ٢٦٤ هـ على رق مستطيل في اعلاه صورة العقد بالقلم الكوفي المنتظم وتحتها خطوط الشهود بالقلم النسخي بغاية الاختلال - فابن مقلة حسن هذا الخط تحسيناً وادخله في كتابه المصاحف

ثم تفرع الخط النسخي المذكور بتوالي الاعوام الى فروع كثيرة واصبحت الافلام الرئيسية في اللغة العربية اثنتين الكوفي والنسخي ولكل منهما فروع كثيرة اشتهر منها بعد القرن السابع للهجرة ستة افلام وهي: الثالث والنسخي والتعليقي والريحاني والمحقق والرقاع واشتهر من الخطاطين جماعة كبيرة الفوا فيه الكتب والرسائل بعضها في ادوات الخط كالافلام وطرق بريها واحوال الشق والقط والدواة والمداد والكاغد وغير ذلك^(١) وما زال الخط يتفرع الى اليوم ولن يزال الى ما شاء الله عملاً بسنة الارتفاع

الحركات

وكان القرآن في اول الاسلام محفوظاً في صدور القراء لاخوف من الاختلاف في قراءته لكثرة عنايتهم في تناقله وضبط الفاظه حتى دونوه وكثر اهل الاسلام . فمضى نصف القرن الاول للهجرة والناس يقرأون القرآن بلا حركات ولا اعجام . واول ما افقروا اليه الحركات واول من رسمها ابو الاسود الدؤلي واضع النحو العربي المتوفى سنة ٦٩ هـ فانه وضع نقطاً تمتاز بها الكلمات او تعرف بها الحركات ولذلك توهم بعضهم انه وضع نقط الاعجام . والحقيقة انه وضع نقطاً لتمييز الاسم من الفعل من الحرف وليس لتمييز الباء من التاء او الجيم من الحاء والارجح انه اقتبس ذلك من الكلدان او السريان جيرانه في العراق وكان عندهم نقط كبيرة توضع فوق الحرف او تحته لتعيين لفظه او تعيين الكلمة الواقعة هو فيها اسمٌ هي ام فعل ام حرف . مثل قولهم « كتب » فيمكن ان تكون اسماً جمع كتاب او فعلاً ماضياً معلوماً او مجهولاً وكان عندهم ايضاً نقط هي حركات وضعها يعقوب الرهاوي قبيل ذلك الزمن^(٢) وهي عبارة عن نقط كانت ترسم في حشو الحروف ثم تحولت الى نقط مزدوجة تنوب عن الحركات الثلاث وما زالت عندهم الى اليوم . فالظاهر ان ابا الاسود اقتبس هذه الحركات ويؤيد ذلك انه لما اراد النقيط اتوه بكاتب فقال له ابو الاسود « اذا رايتي قد نحت في بالحرف فانقط نقطة فوقه على اعلاه واذا ضمنت في فانقط نقطة بين يدي

الحرف وان كسرت فاجعل النقطة من تحت الحرف^(١) . فكان العرب بعد ذلك يستعملون هذه النقط والغالب ان يكتبوها بلون غير لون الخط . وقد شاهدنا في دار الكتب الخديوية معحقاً كوفيّاً منقطاً على هذه الكيفية وجدوده في جامع عمرو بن لواري القادري وهو من اقدم مصاحف العالم ومكتوب على رفرق كبيرة بدار اسود وفيه نقط حمراء اللون . فالنقطة فوق الحرف فتحة وتحتة كسرة وبين يدي الحرف ضمة كما وصفها ابو الاسود

الاعجام

كان الخط لما اقتبسه العرب من السريان والانباط خالياً من النقط — ولا تزال الخطوط السريانية بلا نقط الى اليوم — فالاعجام حادث في العربية وهو قديم فيها والظاهر ان المسلمين بعد ان اتخذوا الحركات المذكورة رأوا التعحيف قد تكاثرت والناس في القراءة لتكاثر الاعاجم من القراء والعربية ليست لغتهم فصعب عليهم التمييز بين الاحرف المشابهة في شكلها كالجيم والحاء والسين والشين والباء والتاء والتاء فانتهى لذلك الحجاج امير العراق في امام عبد الملك بن مروان — قال ابن خلكان « فنزع الحجاج الى كتابه وسأله ان يضعوا لهذه الاحرف المشبهة علامات تميزها بعضها من بعض فيقال ان نصيرين عادم قام بذلك فنوضع النقط افراداً وازواجاً وخالف بين اما كتبها فعبّر الناس بذلك زمناً لا يكتبون الاً منقوطةً فكان مع استعمال النقط ابغاً يقع التعحيف فاحدثوا الاعجام فكانوا يتبعون النقط بالاعجام^(٢) » وفي عبارة ابن خلكان هذه التباس لا يفهم المراد بها ولا ما الفرق بين التنقيط والاعجام وهما واحد ولا يعقل ان يكون المراد بالنقط الحركات لانهم انما عمدوا اليها لكثرة التعحيف اي اختلاف القراءة باختلاف النقط . فالظاهر ان النقط المذكورة هي من قبيل الاعجام لتمييز الحروف المشابهة ولكن نصراً هذا لم ينقط الاً بضعة حروف مما يكثر وروده ويخشى الالتباس فيه ثم رأوا القراءة لا تنبط الاً بالتنقيط كل الحروف كما هي الآن وهذا ما عبروا عنه بالاعجام

وقد شاهدنا في معرض الخطوط في دار الكتب الخديوية كتابة عربية على ضئيلة من البردي (البابيروس) مؤرخة سنة ٥٩١ هـ وفيها اعجام لكنه قاصر على الصور المشابهة للباء لتمييز بين الباء والياء والتاء وصوره حرف الشين لتمييزه من السين بثلاث نقط موضوعة على استواء واحد — وشاهدنا اجزاء من مصاحف اخرى مكتوبة على رقوق صغيرة وعليها نقط حمراء

للحركات ونقط. سوداء للاعجام . وقد تجد خطوطاً قديمة منقطه ومحركة وخطوطاً حديثة بلا تنقيط. ولا تحريك

فيؤخذ من ذلك ان العرب استخدموا الحركات والاعجام من اواسط القرن الاول ولكنهم ظلوا مع ذلك يكرهونها الا حيث يريدون التدقيق بنوع خاص كالمصاحف ونحوها . اما في ما خلا ذلك فكانوا يفضلون ترك النقط لاسيما اذا كان المكتوب اليه عالماً . وقد حكي انه عرض على عبدالله بن طاهر خط بعض الكتاب فقال « ما احسنه لولا كثرة شونيزه (اي نقطه) » ويقال « كثرة النقط في الكتاب سوء ظن في المكتوب اليه » وقد يقع بالنقط ضرر كما حكي عن جعفر المتوكل انه كتب الى بعض عماله « ان احص من قبلك من الذميين وعرفنا بيباغ عددهم » فوقع على الحاء نقطة فجمع العامل من كان في عدله منهم وخصاهم فماتوا غير رجلين^(١)

ولذلك ظل الكتاب في اثناء التمدن الاسلامي مغيرين بين الاعجام وعدمه والغالب عدم الاعجام وقد حدث بسبب ذلك التباس في كثير من الاحوال وخصوصاً في اسماء الاماكن الغربية او الالفاظ الغربية ونحوها^(٢) وكان الادباء يستحسنون الاعجام في كتب العلوم ويستحسنونه في المراسلات . ولذلك استحسنوا مشق الخط في المكاتبات لانهم لفرط ادلالهم في الصنعة وثقتهم في الكتابة يكتفون بالاشارة ويقتصرون على التلويح ويرون الحاجة الى استيفاء الابانة نصيراً^(٣)

ادوات الكتابة

اما ادوات الكتابة فقد وفينا الكلام عنها في الجزء الاول من هذا الكتاب . وظلوا يكتبون الى اواخر دولة الامويين على الجلود والرقوق دروجاً فكانت دفاتر الحكومة عبارة عن لفائف من الجلد . فلما افضى الامر الى العباسيين وقام ابو العباس السفاح بالامر واستنوز خالد بن برمك غير خالد الدفاتر من الادراج الى الكتب . فظلت اعمال الحكومة تدون في كتب من الجلد الى ان تعرف جعفر بن يحيى البرمكي بالوزارة في ابام الرشيد فاتخذ الكاغد (الورق) فتداوله الناس من بعده وظلوا مع ذلك احياناً يكتبون على الجلود والقراطيس والورق الصيني والتهاوي واخراساني^(٤) فضلاً عن الكاغد يصنعونه كراريس او دفاتر وكان بعضهم يفضل الرقاع للكتابة عليها كالفارابي مثلاً فقد كانت كتاباته اكثرها على الرقاع^(٥)

(١) كشف الظنون ٤٦٨ ج ٢ (١) راجع كتابنا تاريخ اللغة العربية ١٨

(٣) ادب الدنيا والدين ٥٢ (٤) الفهرست ٤٠ (٥) ابن خلكان ٥٧ ج ٢

العلوم الاسلامية

هي العلوم التي اقتضاها الاسلام واتخذها الاسلامي على ما تقدم ونقسم الى ثلاثة اقسام (١) العلوم الشرعية وهي العلوم الدينية الاسلامية (٢) العلوم اللسانية وهي التي اقتضاها الاسلام ضمناً فاحتاجوا اليها في ضبط قراءة القرآن او تفسيره او تفهمه وتفهم الحديث (٣) التاريخ والجغرافيا

١ - العلوم الشرعية الاسلامية

القرآن

جمعه وتدوينه

لا غرو اذا اهتم المسلمون بجمع القرآن وحفظه لان عليه يتوقف دينهم ودنياهم واول اسباب حفظه تدوينه . والقرآن لم يظهر مرة واحدة وانما ظهر تدريجاً في اثناء عشرين سنة على مقتضى الاحوال من اول ظهور الدعوة الى وفاة النبي بعضه في مكة وبعضه في المدينة فكان كلما تلا آية او سورة كتبها على صحف الكتابة في تلك الايام وهي الرقاع من الجلود والعريض من العظام كالاكتاف والاضلاع وعلى العصب وهي تحف جريد النخل والخاف وهي الحجارة العريضة البيضاء . فتوفي النبي سنة ١١ هـ والقرآن اما مدون على امثال هذه الصحف أو محفوظ في صدور الرجال وكانوا يسمون حفظه «القرأ»

وكان اكثر الناس عناية في تدوينه على عهد النبي علي بن ابي طالب وسعد بن عبيد بن النعمان وابو الدرداء ومعاذ بن جبل وثابت بن زيد وابي بن كعب وغيرهم . فلما قام ابو بكر بالامر واراد اهل جزيرة العرب عن الاسلام بعث جنداً لمحاربهم فقتل من الصحابة في تلك الحروب جماعة كبيرة . وخصوصاً في غزوة اليمامة فقتل فيها وحدها ١٢٠٠ من المسلمين فيهم ٧٠٠ من القراء . فلما بلغ ذلك الى اهل المدينة فزعوا شديداً وخصوصاً عمر بن الخطاب رجل الاسلام والمسلمين فاشار على ابي بكر بجمع القرآن لئلا يذهب منه شيء بموت اهله فتوقف ابو بكر وقال « كيف افعل امراً لم ينعله رسول الله ولم يعهد الينا فيه عهداً » فما زال عليه عمر حتى اقمعه بجمعه . فاحضر ابو بكر زيد بن ثابت لانه كان

من كتبة الوحي فجمع ما كان مدوناً عند الصحابة وربما وجد السورة الواحدة مكتوبة عند اثنين او ثلاثة او اكثر وقد لا يوجد من السورة الاخرى الا نسخة واحدة كسورة التوبة فانه لم يجد منها الا نسخة واحدة عند ابي - زينة الانصاري ^(١) فجمعه من تلك المحفوظات ومن صدور الرجال وسلمه الى ابي بكر فظلت الصحف عنده حتى توفي سنة ١٣ هـ فلما تولى عمر تسلمها وظلت عنده حتى تولى عثمان سنة ٢٣ هـ فانقلت الى عند ابنته حفصة من ازواج النبي

وفي ايام عثمان اتسعت الفتوح وتفرق المسلمون في مصر والشام والعراق وفارس وافريقيا وفيهم القراء وعند بعضهم نسخ من القرآن وقد رتبها كل منهم ترتيباً خاصاً فعمل اهل كل مصر على من قام بينهم من القراء . فاهل دمشق وحمص مثلاً اخذوا عن المقداد بن الاسود واهل الكوفة اخذوا عن ابن مسعود واهل البصرة عن ابي موسى الاشعري ^(٢) وكانوا يسمون مصحفه لباب القلوب — ومع شدة عناية القراء في حفظ القرآن وضبطه لم يخلوا من الاختلاف في قراءة بعض سوره

واتفق في اثناء ذلك ان حذيفة بن اليمان كان في جملة من حضر غزوة ارمينيا واذربيجان فرأى في اثناء سفره اختلافاً بين المسلمين في قراءة بعض الآيات وسمع بعضهم يقول لبعض « قراءة خير من قراءة تك » فلما رجع الى المدينة انبأ عثمان بذلك وانذره بسوء العقبى ان لم يتلاف الامر الى ان قال « ادرك هذه الامة قبل ان يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى » فبعث عثمان الى حفصة ان « ارسلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها اليك » فارسلتها . فدعا عثمان زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام وامرهم ان ينسخوا القرآن ويستعينوا على القراءة بما حفظه القراء وقال لهم « اذا اختلفتم انتم وزيد بن ثابت في شيء فاكتبوه بلسان قريش فانما انزل بلسانهم » ففعلوا ذلك ^(٣) سنة ٣٠ هـ وكتبوا اربعة مصاحف بعثها عثمان الى الامصار الاربعة مكة والبصرة والكوفة والشام ^(٤) واثنين ابقاهما في المدينة واحداً لاهلها وواحد لنفسه وهو الذي يسمونه « الامام » ثم امر بجمع كل ما كان قبل ذلك من المصاحف والصحف ^(٥) وأمر بحرقه فاصبح المعول في المصاحف على ما كتبه عثمان واشتغل المسلمون في الامصار باستنساخ تلك المصاحف فنسخوا منها شيئاً كثيراً في مدة قليلة — ذكر المسعودي في عرض كلامه

(١) الفهرست ٢٤ (٢) ابو الفدا ١٧٦ ج ١ (٣) الفهرست ٢٥

(٤) فتح الطيب ٢٨٧ ج ١ (٥) ابو الفدا ١٧٦ ج ١

عن واقعة صفين بين علي ومعاوية وما كان من ظهور علي وما اشار به عمرو بن العاص من رفع المصاحف « ورفع من عسكر معاوية نحو من خمسمائة مصحف »^(١) وليست هذه كل مصاحف المسلمين فاعتبر هذا العدد وبين كتابة مصحف عثمان وواقعة صفين سبع سنين ومع تشديد الصحابة في التعويل على مصحف عثمان دون سواه فقد ظلَّ عند بعض المسلمين نسخ من مصاحف أخرى أشهرها مصحف علي . ويعتقد الشيعة ان علياً اول من خط المصاحف عند وفاة النبي وتقول مصحفه في شيعته وبقي عند اهل جعفر . وقد ذكر ابن النديم في كتاب الفهرست انه رأى عند ابي يعلى حمزة الحسيني مصحفاً بخط علي بتوارثه بنو حسن^(٢) — ومنها مصحف عبدالله بن مسعود وابي بن كعب ولكل منها ترتيب خاص في سورة^(٣)

على ان الخلفاء والامراء كانوا يبدلون جيدهم في جمع الكلمة على مصحف عثمان والتشديد في اعدام ما سواه وفي جملة مساعيهم ان الامراء كانوا يكتبون نسخاً من ذلك المصحف يضعونها في المساجد ليتلوها الناس ويرجعوا اليها في تصحيح ما بين ايديهم من المصاحف الخصوصية . وربما كتب الامير عدة مصاحف وفرقها في الامصار ولكنهم كانوا يعدون قبول مصحف الامير في الجامع اقراراً بسيطرته عليهم . وكان الحجاج في مقدمة من كتب المصاحف من الامراء وفرقها في الامصار فبعث منها مصحفاً الى مصر والوالي عليها يومئذ عبد العزيز بن مروان فغضب وقال « ابعث الى جندي انا فيه بمصحف ؟ » وامر فكتبوا له مصحفاً آخر بالغ في ضبطه واعلن بعد الفراغ من كتابته ان من وجد فيه حرفاً خطأ فله رأس احمر وثلاثون ديناراً . فوجد فيه احد قراء الكوفة لفظة « نجمة » بدل « نعجة » فنال الجائزة^(٤)

قراءة القرآن

كان للقراءة شأن عظيم في اول الاسلام لقلة الذين يقرؤون يومئذ فسموا الذين كانوا يحفظون القرآن « قراء » تمييزاً لهم عن سائر المسلمين لانهم كانوا اميين . وقد تقدم ان السبب الذي حمل عثمان على جمع القرآن وكتابته ما بلغه من اختلاف الصحابة في قراءته . على انه لم يرض على ارسال مصاحفه الى الامصار زمن قصير حتى اصبح لاهل كل مصر قراءة خاصة يتبعون فيها قارئاً يثقون بصحة قراءته وتقول ذلك واشتهر . ثم استقر منها

(١) المسعودي ٢٠ ج ٢ (٢) الفهرست ٢٨ (٣) الفهرست ٢٦

(٤) المقرئ ٢٥٤ ج ٢

سبع قراءات معينة تواترنقلها باذانها واختصت بالانتساب الى من اشتهر بروايتها فصارت هذه القراءات السبع اصولاً للقراءة ويعدّها بعضهم عشراً

واصحاب هذه القراءات هم نافع بن ابي رؤيم ويزيد بن القعقاع في المدينة . وعبدالله بن كثير في مكة . وابوعمر بن العلاء ويعقوب الحفص في البصرة . وعبدالله بن عامر في الشام وعاصم بن ابي النجود وحمزة بن حبيب الزيات وعلي الكسائي وخلف البزاز في الكوفة . واشتهر غيرهم كثيرون في اقطار العالم الاسلامي وفيهم من يقرأ قراءات غريبة وخصوصاً بعد ان ظهرت الفرق الاسلامية وتشعبت الآراء في التفسير والفقه والخلفاء يشددون في مقاصد اولئك الشاذين خوف التفرقة كما كانت تفعل رؤساء النصرانية في القرون الاولى للميلاد . ولكن الاسلام كان اقرب الى اطلاق حرية الفكر والقول وخصوصاً في اوائله فلم يكن احدهم يستكف من ابداء ما يخطر له ولو كان مخالفاً لرأي الخليفة ولذلك كثرت الفرق الاسلامية يومئذ وتعددت مذاهب اصحابها في القراءة والتفسير والفقه وفي كل شيء حتى ذهب بعضهم الى ان سورة يوسف ليست من القرآن لانها قصة من القصص والقائلون بذلك العجاردة ^(١) وذهبت طائفة اخرى الى اثبات حكم من احكام الالهية في السيد المسيح وانه هو الذي بحاسب الخلق ^(٢) وظل بعضهم يقرأون القراءات الغريبة الى اواسط الدولة العباسية وفي جملتهم يعقوب العطار المتوفى سنة ٣٥٤ هـ فاستحضره الخليفة واستتابه بحضرة القراء والفقهاء وكتب محضر توبته واشهد عليه من حضر ^(٣)

واشهر من قرأ القراءات الشاذة ابن شنبوذ البغدادي المتوفى سنة ٣٢٨ هـ فانه تفرد بقراءات من الشواذ كان يقرأ بها في المحراب ذكرها ابن النديم وابن خلكان فعلم به ابن مقلة الوزير سنة ٣٢٣ هـ فقبض عليه واعقله اياماً فلم يكن ذلك ليبرجه عن قراءته فامر بجلده واستتابه فتاب وقال انه قد رجع عما يقرأه وانه لا يقرأ الا بصحف عثمان بن عفان بالقراءة المتعارفة التي يقرأ بها الناس وكتب محضراً بذلك ^(٤)

والقراءات العشر التي ذكرنا اصحابها كلها جائزة عند المسلمين . وعند الائمة ان الجمع على صواب فقد يخار الاقليم الواحد قراءة واحدة او قراءتين او اكثر وقد نقرأ كل القراءات في اقليم واحد ^(٥)

(١) الشهرستاني ٩٥ ج ١ (٢) الشهرستاني ٤٢ ج ١ (٣) طبقات الادباء ٣٦١

(٤) ابن خلكان ٤٩٠ ج ١ (٥) المقدسي ٣٩ ونفع الطيب ١٠٤ ج ١

وكانوا يرجعون في اثبات صحة القراءة الى الاسناد المتسلسل كقولهم قرأ يعقوب بن اسحق على سلام وقرأ سلام على عاصم وقرأ عاصم على ابي عبد الرحمن وقرأ ابو عبد الرحمن على علي بن ابي طالب وقرأ علي بن ابي طالب على النبي ^(١) تأثير القرآن

ان قراءة القرآن وحفظه من اول واجبات المسلمين وخصوصاً في اوائل الاسلام فانطبعت اوامره ونواحيه في افئدتهم وارسمت عبارته على من السنة ادبائهم واصبح هو المرجع في الشرع والدين واللغة والانشاء وفي كل شيء . فاقبسوا اساليبه في خطبهم وكتبهم وتمثلوا بآياته في مؤلفاتهم وظهت آدابه وتعاليمه في اخلافهم واطوارهم مع تبعاد الامم التي اعتنقت الاسلام في اصولها ولغاتها وبلادها . واستشهدوا باقواله ونصوصه في علومهم اللسانية فضلاً عن العلوم الشرعية . فقد كان في كتاب سيدييه وحده ٣٠٠ آية من القرآن واصبح اهل البلاغة لا تروق لهم الكتابة او الخطابة الا اذا رصعوها بشيء من آي القرآن كما سترى في باب الخطابة في الاسلام وفي باب البلاغة من اقتباس الآيات وادخالها في عبارات الخطب والرسائل والتوقيعات

على انهم كانوا لفرط اشتغالهم بحفظ القرآن وقراءته وتفهمه لو ذكر الرجل حرفاً او كلمة اتبه السامع للآية . كانوا ولذلك كثيراً ما كانوا يرمزون بالكلمة الواحدة الى آية يفهمها العارف ويعمل بها وقد تخفى على كثيرين

وما يحكي من هذا القليل ان السلطان محمود الغزنوي الشهير بعث الى الخليفة يطلب ان يذكر اسمه في الخطبة ببغداد وينقش اسمه في سكة الذهب والفضة . فامتنع الخليفة من ذلك . فبعث اليه كتاباً فيه تهديد ووعيد قال في جملته « لو اردت نقل حجارة بغداد على ظهور الفيلة الى غزنة لتعلت » فبعث اليه الخليفة كتاباً خنوعاً فلما فتحه لم يجد فيه بعد البسملة الا التامدة وفي وسطه لام وفي آخره ميم والصلاة والحمد لله . فخار السلطان واهل مجلسه من ذلك حتى دخل عليهم ابو بكر القهستاني ففكر في ذلك وقال « عندي شرحه » فقال « اذكر ولام ما تريد » فقال « بعث اليهم السلطان يهددهم بالفيلة فبعثوا له هذا الكتاب وفيه الف ولام وميم اشارة الى قوله تعالى الم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل الى آخر السورة » فارتاع السلطان لذلك ووقع في قلبه الخوف والندم وعاد الى احسن الاحوال من الرضى والادب ^(٢)

ويحكى أيضاً ان المأمون غضب على عبدالله بن طاهر وشاور اصحابه في الايقاع به وكان قد حضر المجلس صديق له فكتب اليه كتاباً فيه « بسم الله الرحمن الرحيم يا موسى » فلما فضه ووجد ذلك تعجب وما زال يطيل فيه النظر حتى علم انه يريد « يا موسى ان الملا يأتمرون بك ليقتلوك » ^(١)

وابلغ من ذلك حكاية سديد الملك وتشديد نون « ان » وقد ذكرناها في الجزء الاول من هذا الكتاب صفحة ١٩٧ وفي اعادتها هنا تكرار وقد عني المسلمون في كتابة القرآن وحفظه عناية ليس بعدها غاية فكتبوه على صفائح الذهب والفضة وعلى صفائح العاج وطرزوا آياته بالذهب والفضة على الحرير والدباج وزينوا بها محافلهم ومنازلهم ونقشوها على الجدران في المساجد والمكاتب والمجالس ورسموه بكل الخطوط واجملها على كل اصناف الرقوق والجلود والكتايف والادراج والكراريس والرقاع باصناف المداد والوانها وملاً وا بين الكلام بالذهب . وكان الخلفاء والامراء والسلاطين يتبركون بكتابة المصاحف بايديهم ويختزنونها في المساجد او نحوها . وفي دار الكتب الخديوية بالقاهرة امثلة كثيرة من المصاحف المخطوطة بمعظم الاشكال المذكورة من القلم الكوفي الخالي من الشكل والاعجام الى تمام الاعجام والشكل وما بينهما وقد ضبطوا عدد سور القرآن وآياته وكتابه وحروفه وعدوا ما فيه من الالفات والباءات الى الياءات ^(٢)

تفسير القرآن

كان العرب عند ظهور الدعوة كلما تليت عليهم سورة او آية فعموها وادركوا معانيها بمفرداتها وتراكيبها لانها بلسانهم وعلى اساليب الاعتهم ولان اكثرها قيلت في احوال كانت كالقرائن تسهل ففهمها واذا اشكل عليهم شيء منها سألوا النبي فكان بين لهم المجهل ويميز الناسخ من المنسوخ . تحفظ اصحابه عنه ذلك وتناقلوه فيما بينهم وعنهم اخذ من جاء بعدهم من التابعين وتابعي التابعين

ولما صار الاسلام دولة واحتاجوا الى الاحكام والقوانين كان القرآن مصدر استنباطها . وزادت العناية في تفسيره واصبح القراء والمنسرون مرجع المسلمين في استخراج تلك الاحكام . وهم الفقهاء لاول عهد الاسلام . وكانوا يتناقلون التفسير شفاهاً الى اواخر القرن الاول

فكان أول من دوّن التفسير في الصحف مجاهد المتوفى سنة ١٠٤ هـ ثم اشتغل فيه سواء وهم كثيرون حتى انتهى ذلك الى الوافدي سنة ٢٠٧ والطبري المتوفى سنة ٣١٠ هـ وغيرهما وقد رأيت ان الممّدة في التفسير على النقل بالتواتر والاسناد من النبي فالصحابه فالتابعين والعرب يومئذ اميون لا كتابة عندهم . فكانوا اذا تشوقوا الى معرفة شيء مما ثنوق اليه نفوسهم البشرية من اسباب الوجود وبدء الخليقة واسرارها سألوا عنه اهل الكتاب قبلهم من اليهود والنصارى المقيمين بين ظهرانيهم واكثرهم من حمير باليمن الذين اخذوا بدين اليهودية ^(١) وكانوا قد اسلموا اكنهم ظلوا على ما كان عندهم من التقاليد المتناقلة شفاهاً او كتابة مما لا تعلق له بالاحكام الشرعية — فكانوا اذا سئلوا عن شيء اجابوا بما عندهم من افايص التلمود والتوراة بغير تحقيق . فامتثلت كتب التفسير من هذه المنقولات ومن اشهر اولئك اليهود كعب بن مانع المعروف بكعب الاحبار اسلم في خلافه عمر بن الخطاب ^(٢) . وعبد الله بن سلام بن الحارث اسلم عند هجرة النبي الى المدينة ^(٣) ناهيك بمن كان هناك من اهل الاديان الاخرى كالصابئة والمجوس وغيرهم . وكان بعضهم من ذوي المقامات الرفيعة فكان المسلمون يسألونهم ايضاً وهم يجيبونهم مما عندهم . واشهرهم وهب بن منبه فانه فارسي الاصل جاء جده الى اليمن في جملة من بعثهم كسرى لنجدة اليمن على الحبشة فأقاموا هناك وتناسلوا وصاروا يعرفون بين العرب بالابناء اي ابناء الفرس ومنهم ايضاً طاوس بن كيسان التابعي الشهير

وكان آباء وهب المذكور على دين الفرس (المجوسية او الزردشتية) فلما اقاموا بين اليهود باليمن اخذوا عنهم آداب اليهود وتقاليدهم واخطلطوا بالحبشة هناك فعملوا شيئاً من النصرانية وكان وهب يعرف اليونانية ^(٤) فاطلع على آداب اليونان وغيرهم فنشأ وهو ذو اطلاع واسع في اخبار الامم واحوال الانبياء وقيام الدنيا وسير الملوك . ومن اقواله انه قرأ من كتب الله ٧٢ كتاباً فكان للعرب ثقة كبرى فيه ولم يسألوه عن شيء الا افاض في الجواب عليه مما يحفظه

فكانت كتب التفسير في القرون الاولى تحشوة بالاخبار وفيها الغث والسمين مما نقل اليها من الاديان الاخرى التي كانت شائعة قبلها في جزيرة العرب او حولها . كما اصاب

(١) ابن خلدون ٣٦٧ ج ١ (٢) اسد الغابة ٢٤٧ ج ٤

(٣) اسد الغابة ١٧٦ ج ٣ (٤) المسعودي ١٠٩ ج ٢

النصرانية عند اول ظهورها اذ دخلها كثير من عادات الامم الوثنية ومعقداتهم ونقاليدهم مع سهر الآباء الاولين على تحليلها من ذلك فلما نشأت العلوم اللسانية واشتغل المسلمون بها واطلعوا على كتب المنطق والفلسفة تعودت عقولهم على طلب الدليل والقياس فاعدوا النظر في تلك التفاسير ونظروا في مروياتها ومحصولها وسبروها بمسار العقل . واشهر من فعل ذلك منهم ابن عطية والقرطبي وجار الله الزمخشري صاحب الكشف وغيرهم وكتب التفسير كثيرة جداً ذكر منها صاحب كشف الظنون نيفاً وثلاثمائة تفسير وقال انه ذكر بعضها وكانت أكثر من ذلك كثيراً^(١)

الحديث

لما اشتغل المسلمون في تفهم معاني القرآن كان في جملة ما افتقروا اليه في تفهمها أقوال النبي وهو ما عبروا عنه بالأحاديث النبوية واقدم من سماعها الصحابة وحفظوها فكانوا اذا اشكل عليهم فهم آية واختلفوا في تفسيرها او حكم من أحكامها استعانوا بتلك الاحاديث على استيضاحها . فلما كانت الفتوح تفرق الصحابة في الارض وعند كل منهم بعض الاحاديث وقد يتفرد بعضهم بأحاديث لم يسمعها سواه فأصبح طالب الحديث اذا كان من أهل دمشق مثلاً لا يستوفيه الا اذا رحل في طلبه الى مكة والمدينة والبصرة والكوفة والري ومصر وغيرها وكذلك المقيم في أحد هذه البلاد فانه لا يستطيع استيفاء الحديث ما لم يطأ به من البلاد الأخرى وهذا ما يبرون عنه بالرحلة في طلب العلم . على ان الارتحال في طلب العلم لم يكن من مستحدثات الاسلام ولكنه كان شائعاً من قديم الزمان بالنظر الى قلة وسائل المواصلات واسباب النشر في تلك العصور . فكان المؤرخ او الجغرافي مثلاً يرحل في طلب التاريخ او الجغرافيا الى أقاصي البلاد كما فعل هيرودوتس واسترابون وغيرهما . ولذلك كان المسلمون يرحلون في طلب العلوم غير الحديث أيضاً . وكان النصارى في العصر الاسلامي يرحلون الى بلاد الروم لاتقان دياتهم^(٢)

وضع الاحاديث

نشأت الفتنة بعد مقتل الخليفة عثمان واختلف المسلمون في الخلافة وادعاها غير

(١) كشف الظنون ٣٠٢ ج ١ (٢) طبقات الاطباء ١٧٥ ج ٢

واحد فانصرفت غنابة كل حزب من احزابهم الى استنباط الادلة واستخراج الاحاديث المؤيدة لدعواهم فكان بعضهم اذا اعوزهم حديث يؤيدون به قولاً او يقيمون به حجة اختلفوا حديثاً من عند انفسهم . وتكاثر ذلك في أثناء تلك الفوضى فكان المهلب بن ابي صفرة مثلاً يضع الاحاديث ليشد بها امر المسلمين ويضعف امر الخوارج ^(١) وهو مع ذلك معدود من الاتقياء والنبلاء مع علمهم بما كان يضعه من الاحاديث لانهم كانوا يعدون ذلك خدعة في الحرب وامثال المهلب كثيرون كانوا يضعون الحديث لاغراض مختلفة وتسبق الناس خصوصاً الى وضع الاحاديث في أثناء البحث في شروط الخلافة نظراً لما رأوه من تأثير الحديث فيها من أول عهدها . اذ مات النبي وانقسم اصحابه في طلب الخلافة الى قسمين المهاجرين والانصار وكل منهما يعتقد الاحقية في الخلافة لحزبه واشتد عزم الانصار على الثبات في المطالبة وعظمت الفوضى حتى روى ابو بكر الحديث « الأئمة من قريش » ^(٢) فكان في ذلك فصل الخطاب . فقس على ذلك حاجة اصحاب الفرق والاحزاب وغيرهم الى الاحاديث ناهيك بمحاجتهم اليها في اثبات حقوق الفتح وغيرها كالوصاف المهدي المنتظر وشروط ظهوره ووضع الاحكام والقوانين وفي كل باب من ابواب الادارة والقضاء . ولما اراد المأمون تحليل المتعة لم يرجعه عن عزمه الا حديث روه له في تحريمها ^(٣)

فلاغرو بعد ذلك اذا رغب اهل المطامع في اختلاق الاحاديث وقد ذكروا من وضاع الحديث جماعة اشهرهم اربعة وهم ابن ابي يحيى في المدينة والواقدي في بغداد ومقاتل بن سليمان بنخراسان ومحمد بن سعيد بالشام ^(٤) وكثيراً ما كان اولئك الوضع يعترفون عند ميسر الحاجة بما اقترفوه كما فعل ابن ابي العوجاء وكان محدثاً في الكوفة فأمر اميرها محمد بن سليمان بقتله سنة ١٥٣ هـ فلما ايقن انه مقتول قال « والله لقد وضعت اربعة آلاف حديث حلت بها الحرام وحرمت الحلال والله لقد فطرتكم يوم صومكم وصومتكم يوم فطرتكم » ^(٥) ومنهم احمد الجوبيساري وابن عكاشه الكرماني وابن تميم القرطبي فقد ذكر سهل بن السري انهم وضعوا من عند انفسهم نحو عشرة آلاف حديث ^(٦) ولنحو هذا السبب نشأت الفروق بين احاديث السنة والشيعه

(١) ابن خلكان ١٤٦ ج ٢ (٢) النهرستاني ١٢ ج ١ (٣) ابن خلكان ٢١٨ ج ٢

(٤) ابن خلكان ١١٣ ج ٢ (٥) ابن الاثير ٣ ج ٦ (٦) تحذير المسلمين ٤

فلما هدأت الفتنة وعمد المسلمون الى التحقيق كانت تلك الموضوعات قد تكاثرت فاشتغلوا في التفريق بينها وبين الصحيح فالفوا كتباً كثيرة في الحديث وميزوا صحيحه من فاسده وجعلوه مراتب • ولهم في ذلك الفاظ اصطلاحوا فيها لهذه المراتب كقولهم الصحيح والحسن والضعيف والمرسل والمنقطع والمعضل والشاذ والغريب وغير ذلك من القاب المداوله بينهم • وينووا كيف يأخذ الرواة بعضهم عن بعض بقراءة او كتابة او مناوله او اجازة وتفاوت رتبها^(١)

اسناد الحديث

وترتب على اهمية الحديث في الدين والدنيا تعرضه للوضع والتحريف كما رأيت فاحتاج الى العناية في تحقيقه ولم يكن ذلك ميسوراً في العصور الاولى الا بالحفظ والرجوع بالمحفوظ الى المصدر الاصلي الذي اخذ عنه بالتسلسل وهو «الاسناد» كأن يقال «حدثنا فلان او اخبرنا فلان او املى عليّ فلان ما هو كذا وكذا» فلما بمدت الرواية جملوها متسلسلة فقالوا «حدثنا فلان عن فلان عن فلان انه سمع فلاناً يقول كذا وكذا» وترتب على تصحيح ذلك وضبطه النظر في طبقات الحديثين للتفريق بين النقات وغيرهم فجعلوهم طبقات ومنهم الصحابة فالتابعون فتابعو التابعين فالعلماء البالغون الى رتبة الاجتهاد فالمشتغلون في جمع الاحاديث وحفظها فالناقدون للاحاديث فالشارحون وغيرهم^(٢) والفوا كتباً كثيرة في طبقات الحديث والرواة

وكان اهل الامصار يختلفون في طرق اسنادهم فطريقة أهل الحجاز اعلى مما لسواهم وامتن في الصحة لاستبدادهم في شروط النقل من العدالة والضبط • وسند طريقة الحجاز بعد الصحابة الامام مالك عالم المدينة المتوفى سنة ١٧٩ هـ ثم اصحابه مثل الشافعي وابن حنبل وامثالهم • ومالك اول من دون الحديث في كتاب الموطأ رتبته على ابواب الفقه وقيل ان ابن جريج اول من ألف فيه • ثم عني الحفاظ في طرق الاحاديث واسانيدھا وجاء محمد بن اسماعيل البخاري امام الحديثين في عصره فخرج احاديث السنة على أبوابها وألف كتابه الصحيح ثم ألف مسلم بن الحجاج النيسابوري المسند الصحيح فسمي كتابهما الصحيحين وصار الناس اليهما ثم جاءت طبقة أخرى من الحديثين جمعوا بين هذين او بينهما وبين الموطأ فاجتمع من ذلك الكتب الستة المشهورة للمؤلفين

الآتية اسمائهم وهم البخاري المتوفى سنة ٢٥٦ هـ ومسلم المتوفى بيسابور سنة ٢٦١ هـ
وابو داود المتوفى بالبصرة سنة ٢٧٥ هـ والترمذي المتوفى بترمذ سنة ٢٧٩ هـ والنسائي توفى
سنة ٣٠٣ هـ والدارقطني المتوفى ببغداد سنة ٣٨٥ هـ^(١)

ولما صار الحديث علماً مدوناً انصرفت العناية الى الاسناد المتسلسل في تحقيق السماع
اي تعلم تلك الكتب او بعضها كان يقول احدهم سمعت الحديث (اي تعلمته) من فلان
وهو تعلمه من فلان الى البخاري او غيره . وهاك تسلسل اسناد ابن خالكان في كيفية
سماعه صحيح البخاري قال « سمعت صحيح البخاري بمدينة اربل في بعض شهور سنة
احدى وعشرين وستائة على الشيخ الصالح أبي جعفر محمد بن هبة الله بن المكرم بن عبد الله
الصوفي بحق سماعه في المدرسة النظامية ببغداد من الشيخ أبي الوقت المذكور في شهر
ربيع الاول سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة بحق سماعه من أبي الحسن عبد الرحمن بن محمد
ابن مظفر الداودي في ذي القعدة سنة خمس وستين واربعمائة بحق سماعه من أبي محمد
عبد الله بن احمد بن جوهي السرخسي في صفر سنة احدى وثمانين وثلثمائة بحق سماعه من
أبي عبد الله محمد بن أبي يوسف بن مطر الفريسي سنة ست عشرة وثلثمائة بحق سماعه من
مؤلفه الحافظ أبي عبد الله محمد بن اسمعيل البخاري مرتين احداها سنة ثمان واربعين
ومائتين والثانية سنة اثنتين وخمسين ومائتين رحمهم الله تعالى اجمعين »^(٢)

وتطرق المسلمون في طريقة الاسناد من الحديث الى غيره من العلوم التقليدية كالتاريخ
والادب كما هو مشهور وتبعوا طريقة الاسناد المتسلسل في كثير من العلوم الاسلامية مما
لم يسبق له مثيل في البلاد الاخرى او الامم الاخرى . فهم اذا ذكروا علماً في علم فيها
اسندوا تعلمه الى استاذه واستاذ استاذه الى واضح ذلك العلم كقول ابن خالكان في ترجمة
نفر الدين بن الخطيب انه اشتغل في علم الاصول على والده ضياء الدين ووالده على القاسم
سليمان بن ناصر الانصاري وهو على امام الحرمين أبي المعالي وهو على الاستاذ أبي اسحق
الاسفرايني وهو على الشيخ أبي الحسن الباهلي وهو على شيخ السنة أبي الحسن الاشعري
وهو على أبي علي الجبائي اولاً ثم رجع عن مذهبه ونصر مذهب أهل السنة والجماعة

عدد الاحاديث

لما تكاثرت الاحاديث للاسباب التي قدمناها اصبحت تعد بمئات الالوف . فقد ذكروا

(٢) ابن خالكان ٣٠٦ ج ١

(١) الديميري ٥٢ ج ١

ان احمد بن حنبل روى مليون حديث منها ١٥٠,٠٠٠ بالاسانيد والمتون^(١) وان يحيى ابن معين المري قال كتبت بيدي ٦٠٠,٠٠٠ حديث — قال راوي هذا الخبر واطن المحدثين كتبوا له بأيديهم ٦٠٠,٠٠٠ و ٦٠٠,٠٠٠ وخلف من الكتب مئة قطر^(٢) وان مسلماً صاحب المسند الصحيح استخرجه من ٣٠٠,٠٠٠ حديث مسموعة^(٣) وان الامام البخاري قال صنف كتابي الصحيح من ٦٠٠,٠٠٠ حديث^(٤) وقس على ذلك مما يدل على كثرة فاحشة. اما الذي صح منها فانه أقل كثيراً وبمضهم بالغ في الافلال وهم اصحاب الرأي وشيخهم ابو حنيفة فلم يصح عنده الا ١٧ حديثاً ومالك صح عنده ٣٠٠ حديث والبخاري اشتمل صحيحه على ٩,٢٠٠ حديث منها ٣,٠٠٠ مكررة واحمد بن حنبل في مسنده ٥٠,٠٠٠ حديث^(٥) وقس على ذلك



الفقه

مصدره

لما صار الاسلام دولة احتاج امرأؤه الى ما يقضون به بين رعاياهم في احوالهم الشخصية ومعاملاتهم المدنية فرجعوا الى القرآن والحديث . فاستخرجوا منهما شريعة نظموا بها حكومتهم وحكموا بها بين رعاياهم . وذلك طبعي في الدول الكبرى . فاليونان فلما عنوا بوضع الشرائع والاحكام الدولية او القضائية لانهم لم يكونوا اهل دولة كبرى الا زمتا قصيرا فانصرفت قراحتهم الى الفلسفة وفروعها . واما الرومان فقد اتسعت مملكتهم كما اتسعت مملكة العرب وامتد سلطانهم وقويت شوكتهم فلم يكن لهم بد من وضع الشرائع لكنهم لم يتم نضجها عندهم الا بعد تاسيس دولتهم ببضعة عشر قرناً على يد يوستنيان صاحب القانون المشهور سنة ٥٢٩ م وهي عبارة عن عادات واعتبارات واعتقادات تجمعت بتوالي الاحقاب من الشعب اللاتيني والصابيني وغيرها من دانوا لرومية بالتدريج حتى صارت شريعة كاملة على عهد يوستنيان المذكور واما المسلمون فانهم استخرجوا احكامهم من القرآن والحديث وقد علمت ما كان لهم من العناية في حفظها ودرسها من اول الاسلام ولذلك لم يمض على المسلمين قرنان والثالث حتى

(١) ابن الساعي ٦٦ (٢) ابن خلكان ٢١٥ ج ٢ (٣) ابن خلكان ٩١ ج ١

(٤) ابن خلكان ٤٥٦ ج ١ (٥) ابن خلدون ٣٦٩ و ٣٧١ ج ١

نُجبت شريعتهم وتكون فقههم وهو من افضل شرائع العالم . وقد اسرعوا في ذلك مثل سرعتهم في تأسيس دولتهم ونشر دينهم

قلنا ان القرآن اساس الفقه الاسلامي وكان المسلمون على عهد النبي يتلقون الاحكام منه وهو يبينها لهم شفاهاً فلم يكن ذلك يحتاج الى نظر او قياس . فلما توفي رجوع الصحابة الى القرآن والسنة فاصبح القراء اول فقهاء المسلمين او حاهلي شريعتهم وكانوا يرجعون اليهم في الفتيا والاحكام لقلّة الذين يقرّون في الصدر الاول . فلما عظمت امصار الاسلام وذهبت الامية من العرب وكل الفقه واصبح صناعة بدلوا باسم الفقهاء والعلماء النخباء

فاول الفقهاء المسلمين الصحابة الاولون واولهم الخلفاء الراشدون ثم عبد الرحمن بن عوف وايّ بن كعب وعبد الله بن مسعود ومعاذ بن جبل وعمار بن ياسر وحذيفة وزيد بن ثابت وسلمان وابو الدرداء وابو موسى الاشعري^(١) ثم انتقلت الفتوى والفقه الى التابعين واشتهر منهم سبعة في المدينة وهم سعيد بن المسيب وابو بكر بن عبد الرحمن وقاسم وعبد الله وعروة وسليمان وخارجه وقد جمعهم بعض العلماء في هذين البيتين

أَلَا كُلُّ مَنْ لَا بَقْدِي بِأُئْمَةٍ فَقَسَمْتُهُ ضُرَى عَنْ الْحَقِّ خَارِجَهُ
فَخَذَمَ عِبِيدَ اللَّهِ عُرْوَةَ قَاسِمَ سَعِيدِ سَلِيَمَانَ ابُو بَكْرٍ خَارِجَهُ^(٢)
وبعض المؤرخين يحسبهم عشرة مع تبديل بعض الاسماء^(٣) وعندهم انتقل الفقه والفتيا في العالم الاسلامي

وفي اوائل الاسلام كان الفقه والقراءة والتفسير والحديث علماً واحداً ثم اخذت هذه العلوم تستقل بعضها عن بعض عملاً بناموس الارتقاء فلما استقل الفقه سمو اصحابه الفقهاء كما تقدم وكان لهم تأثير كبير في الدولة لما يترتب على الفتيا من الامور الهامة كالاعزل والتنصيب والقتل والعفو

ففي ابام بني امية كان المرجع في الفقه والفتيا الى اهل المدينة فكان الخلفاء لا يقطعون امراً دونهم . وقد علمت مما فصلناه في الجزئين الماضيين من هذا الكتاب ما كان من تعصب بني امية للعرب واحتقارهم غير العرب من المسلمين وغيرهم واهل المدينة مع تحيزهم لاهل البيت وانكار الخلافة على بني امية كان الامويون يسعون في ارضائهم واکرامهم

(١) الدميري ٥١ ج ١ (٢) ابن خلكان ٩٢ ج ١ (٣) ابو الفداء ٢٠٩ ج ١

وخصوصاً اهل الورع من الخلفاء كعمر بن عبد العزيز فانه كان لا يقطع امراً مهماً الا بعد مشورتهم — فلما افضى الامر الى بني العباس واراد المنصور تصغير امر العرب واعظام امر الفرس لانهم انصارهم واهل دولتهم كان من جملة مساعيه في ذلك تحويل انظار المسلمين عن الحرمين فبنى بناءً سماه القبة الخضراء حجاً للناس وقطع الميرة عن المدينة^(١) وفقية المدينة يومئذ الامام مالك الشهير فاستفتاه اهلها في امر المنصور فانفتى لهم بخلع بيعته فخلعوها وبايعوا محمد بن عبد الله من آل علي . وعظم امر محمد هذا وحاربه المنصور ولم يتغلب عليه الا بعد الغناء الشديد . فرجع اهل المدينة الى بيعة المنصور قهراً وظل مالك مع ذلك ينكر حق البيعة لبني العباس فعلم امير المدينة يومئذ وهو جعفر بن سليمان عم المنصور بذلك فغضب ودعا بمالك وجرده من ثيابه وضربه بالسياط وخلع كتفه^(٢)

الرأي والقياس

وكانت علوم القرآن قد انتشرت في العراق وفارس ونبع من ابنائها من درس الفقه والفتيا ولكنهم ما زالوا عيالاً فيهما على اهل المدينة لانهم اوثق الناس بحفظ الحديث وقرأة القرآن . وكان الحديث قليلاً في العراق على الخصوص . وكان المسلمون غير العرب هناك اكثرهم الفرس وهم اهل تمدن وعلم فعمدوا الى استخدام القياس العقلي في استخراج احكام الفقه من القرآن والحديث فخالفوا بذلك اهل المدينة لانهم كانوا شديدي التحسك بالنقل — فكان من جملة مساعي المنصور في تصغير امر المدينة وفقائها وخصوصاً مالك بعد ان افنى بخلع بيعته انه نصر فقهاء العراق القائلين بالقياس وكان كبيرهم يومئذ ابو حنيفة النعمان في الكوفة فاستقدمه المنصور الى بغداد واكرمه وعزز مذهبه . وكان ابو حنيفة لا يحب العرب ولا العربية حتى انه لم يكن يحسن الاعراب ولا يبالي به^(٣) ولذلك كان الريع حاجب المنصور يقاومه لان الريع ينتسب الى العرب . وكان بكره الفرس وابنه الفضل هو الذي سعى في قتل البرامكة^(٤)

فلما نصر المنصور ابا حنيفة واصحابه وهم المعروفون باهل الرأي او القياس ازداد مالك تمسكاً براهه وتبعه فقهاء الحجاز وهم اهل الحديث . وانقسم الفقهاء الى قسمين اهل الحديث واهل الرأي وزعيم الاول مالك وانصاره من اهل الحجاز واصحاب الشافعي واصحاب سفيان

(١) الجزء الثاني من هذا الكتاب ٣٠ (٢) ابن خلكان ٤٣٩ ج ١

(٣) ابن خلكان ١٦٥ ج ٢ (٤) الجزء الثاني من هذا الكتاب ١٠٧

الثوري واصحاب احمد بن حنبل وغيرهم من اهل التقليد وعرفوا باصحاب الحديث لان عنايتهم مبذولة في تحصيل الاحاديث ونقل الاخبار وبناء الاحكام على النصوص ولا يرجعون الى القياس الجلي والحنفي ما وجدوا خبراً او اثرًا ويدلك على شدة تمسكهم بذلك قول الشافعي « اذا وجدتم لي مذهباً ووجدتم خبراً على خلاف مذهبي فاعلموا ان مذهبي ذلك الخبر »

وزعيم اصحاب الراي ابو حنيفة النعمان واصحابه فقهاء العراق ومنهم محمد بن الحسن وابو يوسف القاضي وزفر بن هذيل والحسن بن زياد وابن سماعة وابو مطيع البلخي وعافية القاضي وغيرهم وقد سُموا اهل الراي لان عنايتهم بتحصيل وجه القياس والمعنى المستنبط من الاحكام وبناء الحوادث عليها وهم يقدمون القياس الجلي على احاد الاخبار^(١)

وجاء بعد مالك من اصحاب مذهبه محمد بن ادريس المطليبي الشافعي فرحل الى العراق وخاطب اصحاب ابي حنيفة وأخذ عنهم ومزج طريقة أهل الحجاز بطريقة أهل العراق واختص بمذهب خالف فيه مائكا في كثير من مذهبه . ثم جاء بعده احمد بن حنبل وكان من عليه المحدثين وقرأ أصحابه على أصحاب الامام ابي حنيفة مع وفور بضاعتهم من الحديث فاحتصوا بمذهب آخر . ووقف التقايد في الاصرار عند هؤلاء الاربعة وتولد منهم مذاهب الاسلام الاربعة وهي الحنفي والمالكي والحنبلي والشافعي

وللفقه فروع وشروح يضيق المقام عنها هنا فترك الكلام فيها وفي غيرها من فروع العلم الى تاريخ آداب اللغة العربية

منزلة العلماء عند الخلفاء

يراد بالعلماء في عرض الكلام عن العلوم الاسلامية علماء الحديث والقرآن والفقه وقد علمت ما كان من منزلة هذه العلوم في الخلافة فلا عجب بعد ذلك اذا رأيت الخلفاء يكرمون الفقهاء واصحاب الحديث والزهاد والعلماء وقد رأيت ان بني أمية كانوا يستشيرون فقهاء المدينة في الامور الهامة . وكثيراً ما كان اهل التقوى من الخلفاء يسألون العلماء عن شروط العدل ليجروا عليه — كتب عمر بن عبدالعزيز الى الحسن البصري يسأله عن صفة الامام العادل فاجابه جواباً وافياً^(٢) فلما وصله الكتاب وقع منه بمواقع وعظه ومحل يقظه وقد يحمل ذلك على مبالغة هذا الخليفة بالتقوى والورع فاقولك بالنصور المشهور

بالشدة والحزم والدهاء اذ دخل عليه عمرو بن عبيد بعد مبايعة المهدي فقال له المنصور « يا أبا عثمان هذا ابن امير المؤمنين وولي عهد المسلمين » فقال عمرو « أراك قد وطدت له الامور وهي تصير اليه وانت عنه مسئول » فاستعبر المنصور وقال « عظمي يا عمرو » فوعظه^(١) ولما مات عمرو رثاه المنصور بآيات^(٢) — ناهيك بحكاية المنصور وهو يطوف بالكعبة ليلاً اذ سمع ذلك العابد يشكو ظهور البغي والفساد ولما سأله المنصور عن يعني صرح له انه يعني هو وحكومته ووعظه عظة شديدة لم يستنكف المنصور من سماعها^(٣) وقس على ذلك عظات الاوزاعي وابن السماع وسفيان الثوري وشيب بن شبة للمنصور والمهدي والرشيدي راجع كتاب الثوري الى الرشيد في الجزء الثاني من هذا الكتاب صفحة ١٤١ وكثيراً ما كان الوعظ يبكي الخلفاء لانهم كانوا يحلون العلماء ويكرمونهن حتى تسابقوا الى احترامهم بما لا يصدر الا من خادم الى مولاه فقد صب الرشيد الماء على يدي أبي معاوية الضرير وهو يغسل^(٤)

وكان الاكرام في أول الامر للفقهاء والمحدثين خاصة ثم اطلق على اصحاب سائر العلوم الاسلامية كالنحاة واللغويين فقد كان الرشيد يحلس الكسائي ومحمد بن الحسن على كرسيين ويأمرهما ان لا ينزعجا لتهنئته^(٥) ولما مات هذان في الري في يوم واحد قال الرشيد « دفنت الفقه والعربية في الري »^(٦) وقد تنازع الامين والمأمون ولدا الرشيد في حمل نعال استاذهما الفراء وتقديمها اليه حتى اصطاحا على ان يقدم كل منهما واحدة^(٧)

واكرام الخلفاء للعلماء اقتضى اكرام العامة لهم فلما توفي ابن حنبل مشى في جنازته ٨٠٠,٠٠٠ رجل و ٦٠,٠٠٠ امرأة^(٨) وناهيك بهذا الاكرام . ولما سار ابو اسحق الشيرازي من قبل الخليفة المقتدي الى السلطان ملك شاه تنافس أهل البلاد في لقاءه والتمسح بطرافه والتماس البركة من ملبوسه ومركوبه^(٩)



- | | |
|--------------------------|------------------------------------|
| (١) المسعودي ١٧٣ ج ٢ | (٢) ابن خلكان ٣٨٥ ج ١ |
| (٣) العقد الفريد ٢٨٧ ج ١ | (٤) الفخري ١٧٥ (٥) المزهري ٢١١ ج ٢ |
| (٦) ابن خلكان ٤٥٤ ج ١ | (٧) طبقات الادباء ١٣٠ |
| (٨) ابن خلكان ١٧ ج ١ | (٩) ابن خلدون ٤٧٤ ج ٣ |

٢ - العلوم اللسانية

النحو

النحو بمعناه الحقيقي طبيعي^١ على لسان كل متكلم يتلقنه من مرضعه . لان الانسان يتعلم النحو وهو يتعلم النطق اذ بدونه لا يحسن التعبير عن افكاره اما اذا اراد ان يتعلم لساناً غير لسانه فدرس قواعد النحو تسهل عليه تناوله . ولذلك فالامة قد نقضي قروناً متطاولة وهي نتكلم وتخطب وتنظم الشعر قبل ان تدون قواعد النحو وتجعله علماً . فاليونان لم يبدأوا بضبط قواعد لسانهم الا في القرن الخامس قبل الميلاد واول من بدأ بذلك منهم بروغوراس المتوفى سنة ٤١١ ق م . فتكلم في المذكر والمؤنث وبعض الاسماء ثم بروديكوس وقد عاصره وتكلم في المترادفات ثم جاء ارسطو وغيره واتقوا علم النحو اليوناني وله تاريخ يشبه تاريخ النحو العربي . وكذلك فعل الرومان في نحو اللغة اللاتينية فانهم لم يدونوا قواعده الا في القرن الاول قبل الميلاد في زمن بومبيوس وقد دونه عالم اسمه ديونيسيوس تراكس اقتداءً باليونان

فاليونان نبغ فيهم الشعراء والخطباء والادباء والفلاسفة قبل تدوين قواعد النحو في لسانهم . فنظم هوميروس اليازته واوديسيته وهو لم يتعلم قواعد النحو فلم يضره ذلك شيئاً لان اللغة كانت ملكة فيه والف اشيلوس الروايات التمثيلية وسحر اليونان ببيانته ونبغ الفلاسفة فرسيدس واناكسيندرو وطاليس وكتب هيرودوتس الرحالة تاريخه الشهير قبل وضع النحو . وكذلك الرومان فقد نبغ فيهم جماعة من الشعراء والخطباء والادباء قبل تدوين النحو

وضع النحو العربي وواضعه

وهكذا العرب فقد نظموا الشعر والقوا الخطب وتناشدوا وتراسلوا قبل تدوين النحو لان ملكة اللغة كانت طبيعية فيهم . على انهم اضطروا الى ضبط تلك القواعد وتدوينها بأسرع مما اضطرو اليه اليونان والرومان التماساً للدقة في ضبط معاني القرآن . فلم يمض على دولتهم نصف قرن حتى شعروا بالحاجة الى النحو . ويغلب على ظننا انهم نسجوا في تبويبه على منوال السريان لان السريان دونوا نحوهم والقوا فيه الكتب في اواسط القرن الخامس للميلاد واول من باشر ذلك منهم الاسقف يعقوب الرهاوي الملقب بمفسر الكتب المتوفى سنة

٤٦٠ م^(١) فالظاهر ان العرب لما خالطوا السريان في العراق اطلعوا على آدابهم وفي جملتها النحو فاعجبهم فلما اضطروا الى تدوين نجومهم نسجوا على منواله لان اللغتين شقيقتان . وبوئيد ذلك ان العرب بدأوا بوضع النحو وهم في العراق بين السريان والكلدان واقسام الكلام في العربية هي نفس اقسامه في السريانية

اما استعجال العرب في تدوين النحو فانه تابع لاستعجالهم في الفتح ونشر الدين لان الفتوح دعت الى الاختلاط بالاعاجم والاختلاط دعا الى فساد اللغة فاصبح الناس يهملون الاعراب . لان العرب كانوا عند ظهور الاسلام يعربون كلامهم على نحو ما في القرآن . الا من خالطهم من الموالي والمتعربين فان هؤلاء كانوا حتى في ابام النبي يخطئون الاعراب وقد ذكروا رجلاً لحن بحضرة النبي فقال « ارشدوا اخاكم فقد ضل » وقال ابو بكر « لان اقراً فاسقط احب الي » من ان اقراً فالحن^(٢) ولكن اللحن لم يكثر الا بعد الفتوح وانتشار العرب في الآفاق فتذمر العمال مما كانوا يسمعون من اللحن وخصوصاً في قراءة القرآن فاحسوا بحاجة شديدة الى ضبط قواعد اللغة

اما واضع علم النحو او مدونه فهو بالاجماع ابو الاسود الدؤلي المتوفى سنة ٦٩ هـ وكان من سادات التابعين صحب علي بن ابي طالب وشهد معه واقعة صفين ثم اقام في البصرة وكانه تعلم لغة السريان او اطعم على نحوها فرغب في النسج على منواله فعرض ذلك على والي العراقين يومئذ زياد بن ابيه فابى^(٣) لاسباب تقدم بيانها . حتى اذا جاءه رجل يشكو اليه امرأ فسمعه يقول « اصالح الله الامير توفي ابانا وخلف لنا بنون » فاستنكف زياد من سماع ذلك اللحن فبعث الى ابي الاسود ان يضع ما كان قد نهاه عنه

وقيل بل السبب في وضعه ان بنت خويلد الاسدي دخلت على معاوية وقالت « ان ابوي ماتا وتركاني مالا » (بالامالة) وبلغ ذلك علياً فرسم لابي الاسود باب « اب » و باب الاضافة و باب الامالة . ثم سمع ابو الاسود رجلاً يقرأ « ان الله بري من المشركين ورسوله » بخفض رسوله فخنق باب العطف والنعت . ثم ان بنته قالت له يوماً « يا ابي ما احسن السماء » على طريق الاستفهام فقال « نجومها » فقالت « انما تعجب من حسنها » فقال « قولي ما احسن السماء فتحي فاك » وقالت له يوماً « ما اشد الحر » على لفظ الاستفهام على نحو ما جرى في الجملة الماضية فنصف باب التعجب^(٤)

(١) شعراء السريان للقدراحي ١٨ (٢) المزهر ١٩٩ ج ٢

(٣) ابن خلكان ٢٤٠ ج ١ (٢) مفتاح السعادة (خط)

واختلف المؤرخون في هذه الروايات وذكروا غيرها ولكن الفحوى واحد — فهم مجمعون على ان ابا الاسود وضع النحو لنحو الاسباب التي قدمناها وهو يقول انه تلقى ذلك عن علي بن ابي طالب . فوضع علم النحو او الشروع فيه على الاقل ثابت لابي الاسود ويؤيد ذلك ما ذكره ابن النديم صاحب الفهرست مما شاهده بعينه في عرض كلامه عن خزانة كتب اطاعه عليها احد جماعي الكتب فكان في جملة ما فيها قنطرة كبير فيه نحو ٣٠٠ رطل جلود فجلان وصكاك وقرطاس مصري وورق صيني وورق تهايي وجلود ادم وورق خراساني وبينها اربعة اوراق قال « احسبها من ورق الصيف ترجمتها هذه فيها كلام في الفاعل والمفعول من ابي الاسود رحمة الله عليه بخط يحيى بن يعمر وتحت هذا الخط بخط عتيق هذا خط علان النحوي وتحت هذا خط النضر بن شميل ثم لما مات هذا الرجل فقدنا القمطر » ^(١) على ان ما وضعه ابو الاسود من القواعد لم يكن ليسد الحاجة المستعجلة لضبط القراءة فعمد الى ضبطها بعلامات يتميز بها المنصوب من المرفوع او الفعل من الاسم فوضع علامات كانت عند السريان بدئون بها على الرفع والنصب والجر او يميزون بها الفعل من الاسم كما تقدم في كلامنا عن تاريخ الخط العربي

فالعرب كانوا يعرفون الاعراب قبل علم النحو كما كانوا يحسنون النظم قبل علم العروض وكان ذلك ملكة طبيعية فيهم حتى اختلفوا بالاعاجم واسلم هؤلاء وليس فيهم ملكة اللغة ليفهموا القرآن فاضطروا الى ضبطها وكانوا اكثر المسلمين اشتغالا في ذلك . بدأ بعلم النحو ابو الاسود واثمه من جاء بعده من اهل البصرة والكوفة . واول من اخذ عنه عنبة ابن معدان المهري واخذ عن هذا ميمون الاقرن واخذ عنه عبدالله الحضرمي واخذ عنه عيسى ابن عمر واخذ عنه الخليل بن احمد امام علم العروض واللغة ومنه اخذ سيبويه امام علم النحو ^(٢) فتتوغل النحو في هؤلاء من الواحد الى الآخر وهو ينمو ويرتقي عملاً بناموس الارتقاء والقوا فيه الكتب لكنه نضج في ايام سيبويه (توفي سنة ١٨٠ هـ) فالف فيه كتابه الشهير واصبح كل ما الف في النحو عيلاً عليه وعلى كتاب العين الآتي ذكره . وكانوا اذا قالوا « الكتاب » ارادوا كتاب سيبويه وكان الناس يتهادونه كأنهم التحف

الادب واللغة

لما اخذ المسلمون في تفسير القرآن احتاجوا الى ضبط معاني الفاظه وتفهم اساليب عباراته فجرحهم ذلك الى البحث في اساليب العرب واقوالهم واشعارهم وامثالهم ولا يكون ذلك سالماً من الهجمة او الفساد الا اذا أخذ عن عرب البادية الذين كانت قريش في الجاهلية تختار من الفاظهم واساليبهم . فعني جماعة كبيرة من المسلمين في الرحلة الى بادية العرب والتقاط الاشعار والامثال والسؤال من افواه العرب عن معاني الالفاظ واساليب التعبير وسموا الاشتغال بذلك مع ما يتبعه من صرف ونحو وبلاغة بعلم الادب

والقبائل التي نقلوا عنها العربية قيس وتميم واسد وعن هذه القبائل الثلاثة اكثر ما اخذ من اللغة وعليها عوّل النافلون في الغريب وفي الاعراب والتصريف ثم قبيلة هذيل وبعض كنانة وبعض طي ولم يؤخذ من غيرهم من سائر القبائل ولا اخذوا شيئاً عن الحضرة ولا من البدو الذين كانوا يسكنون البراري المجاورة للامم الاخرى — فلم ياخذوا من نظم وجذام لجاورتها اهل مصر ولا من قناعات وغسان واياد لجاورتهم اهل الشام واكثرهم نصارى يقرأون العبرانية والسريانية . ولا من بكر لجاورتهم النبط والفرس ولا من عبد القيس والازد وعلان لانهم كانوا بالبحرين يخاطبون الهند والفرس ولا من اهل اليمن لمخاطبتهم الهند والحبشة ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة ولا من ثقيف واهل الطائف لمخاطبتهم تجار اليمن ولا من حاضرة الحجاز لان الذين نقلوا اللغة صادفهم حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب وقد خالطوا غيرهم من الامم وفسدت السنتهم — والذين نقلوا اللغة واساليبها عن القبائل المذكورة واثبتوها في الكتب وصيروها علماً هم اهل البصرة والكوفة فقط^(١) وكان اكثر المشتغلين في جمع اللغة وآدابها العجم لحاجتهم الى ذلك اكثر من العرب علماء الادب بالبصرة والكوفة

ومن اقدم المشتغلين في جمع اللغة والادب واوسعهم حفظاً ورواية ابو عمرو بن العلاء التميمي المتوفى بالكوفة سنة ١٥٤ هـ وهو من مواليد مكة وكانت كتبه عن العرب الفصحاء تملأ بيته الى قريب السقف^(٢) وقال مع ذلك « ما انتهى اليكم مما قالت العرب الا اقله ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير »

ونبغ في العراق جماعة كبيرة من طلاب الادب واللغة في القرن الثاني للهجرة اشهرهم اربعة في عصر واحد وهم ابو زيد وابو عبيدة والاصمعي والخليل وكان العلم كله عندهم والثلاثة الاول اخذوا عن ابي عمرو المذكور اللغة والنحو والشعر والقراءة^(١)

فابو زيد كان من الانصار توفي سنة ٢١٤ هـ وهو من رواة الحديث ثقة في اللغة واخذ عنه سيبويه . وابو عبيدة كان اعلم الجميع بابام العرب واخبارهم واجمعهم لعلومهم ومن اقواله « ما النقي فرسان في جاهلية او اسلام الا عرفتهما وعرفت فارسيهما » توفي سنة ٢٠٩ هـ والاصمعي غلبت عليه اللغة وحفظ الشعر ونقده توفي سنة ٢١٣ هـ

واما الخليل بن احمد المتوفى سنة ١٧٠ فانه اسبقهم جميعاً وقد لقبوه بسيد علم الادب لانه اول من دون اللغة على حروف المعجم في كتابه المشهور بكتاب العين سماه بذلك لانه رتبته على الحروف باعتبار تخرجها من الخلق فاللسان فالاسنان فالشتين وبدأ بحرف العين وهاك ترتيبه ع ح ه خ غ ق ك ج ش ص ض س ر ط د ذ ث ز ل ن ف م و ا ي فكان الخليل هذا بذلك حذو المنود في ترتيب حروف لغتهم السنسكريتية فانهم يبدأون بالحرف الخلق حتى ينتهون الى الاحرف الشفوية^(٢)

وكان من عادة العرب ان يسموا الكتاب باول لفظ من الفاظ كتاب الجيم للهروي وهو كتاب رتبته على حروف المعجم بدأ به بحرف الجيم^(٣) وكتاب الجيم لابي عمرو الشيباني^(٤) ومن هذا القبيل كتاب الغين في الحروف وكتاب الميم ونحوهما . ويستفاد من ملاحظة ترتيب الحروف في كتاب العين ان الجيم كانوا يتلفظون بها كالكاف الفارسية وان كثيراً من الاحرف تختلف عما نطق به الآن

وكان الحفاظ والرواة يدققون في ما يأخذونه عن العرب من شعر او مثل او قول او غير ذلك وما يسمعون من معانيها لان عليها يتوقف تفسير القرآن ولذلك فانهم تحذوا في نقل اللغة طريقة الاسناد المتسلسل كما كانوا يفعلون في رواية الحديث وعني الناس بحفظها مثل عنايتهم بحفظه لاعتبارهم ان ناقل اللغة يجب ان يكون عدلاً كما يشترط في ناقل الحديث لانها واسطة نفسه وتأويله . على انهم لم يستطيعوا ذلك تماماً وزها القرن الثاني وبعض الثالث في البصرة والكوفة ونبغ فيها النحاة والرواة والحفاظ

(١) الزهر ٢٠٢ ج ٢ (٢) William's Sanskrit Grammar 15

(٣) طبقات الادباء ٢٦٠ (٤) ابن خلكان ٦٥ ج ١

والادباء والشعراء . والبصرة متقدمة في ذلك واهل الكوفة يأخذون عن اهل البصرة وهو لا يستمكنون ان يأخذوا عن اهل الكوفة لاعتقادهم انهم غير محققين . ولم يعلم ان احداً من البصريين اخذ عن اهل الكوفة الا ابو زيد الانصاري ^(١) على ان الشعر كان في الكوفة اكثر واجمع منه في البصرة ولكن كثيراً منه مصنوع . واشهر علماء الكوفة الكسائي ^(٢) المتوفى سنة ١٨٢ هـ يليه في النحو تلميذه الفراء المتوفى سنة ٢٠٧ هـ وعلي الاحمر اللخمي وغيره كما اشتهر في البصرة سيبويه ومن ذكرناهم من النحاة واهل الادب علماء الادب في بغداد

وما زال هذان المصدران مصدر العلوم الاسلامية حتى بنيت بغداد وانتقل العلم اليها . وغلب ورود اهل الكوفة الى بغداد لقربهم منها . وكان العباسيون يكرمونهم لانهم نصروهم لما قاموا لطلب الخلافة . فقدّمهم الخلفاء على اهل البصرة واستقدموهم اليهم ووسعوا لهم ورغب الناس في الروايات الشاذة وتفاخروا بالنوادير وتباهوا بالترخيصات وتركوا الاصول واعتمدوا على الفروع . واشتهر منهم في عصر الفراء عبدالله بن سعيد الاموي وابو الحسن الاخفش الكوفي وابو عكرمة الضبي وابو عمرو الشيباني وغيرهم

والامر بعد نضج علم الادب في العصر العباسي الى اربعة هم اركانه وعمدته دونوا علمهم في كتب شهيرة هي (١) كتاب ادب الكاتب لابن قتيبة (٢) كتاب الكامل للمبرد (٣) البيان والتبيين للجاحظ (٤) كتاب النوادر للقالبي . وهذه الكتب هي مصادر علم الادب عند العرب الى الآن واكثر ما الف بعدها نقل عنها ^(٥)

ولما قدّم العباسيون اهل الكوفة ارتفعوا في عين انفسهم وارادوا مسابقة اهل البصرة ومفاخرتهم فقامت المجادلات بين البلدين في مسائل كثيرة في النحو والادب واللغة اشهرها مسألة الزنبور والنحلة التي انتشبت نارها بين سيبويه من البصرة والكسائي من الكوفة . وكان الكسائي يعلم الامين بن الرشيد فكأن الامين ينصره كأن على انتصار احد النحويين يتوقف انتصار اهل بلده جميعاً . ولا باس من ايراد خلاصة المسألة ليظهر مقدار اهتمام الخلفاء في المسائل العلمية — وذلك ان الكسائي كان مقيماً في بغداد يعلم الامين واتفق ان سيبويه قدم اليها من البصرة فجمع الامين بينهما في مجلس فتناظرا في امور كثيرة من جملتها مسألة الزنبور فذكر الكسائي من امثال العرب مثلاً رواه على هذه الصورة « كنت اظن الزنبور اشدّ لسعاً من النحلة فاذا هو اياها » فقال سيبويه ليس المثل كذلك بل « فاذا

هو هي « وتشاجرا طويلاً واتنقا على مراجعة عربي خالص لا يشوب كلامه شيء من كلام اهل الحضرة . وكان الامين شديد العناية بالكسائي لكونه معلمه فاستدعى عربياً وسأله فقال كما قال سيبويه فقال له « نريد ان نقول كما قال الكسائي » فقال « لساني لا يطاوعني على ذلك فانه ما يسبق الا الى الصواب » ففروا معه ان شخصاً يقول « قال سيبويه كذا وقال الكسائي كذا فالصواب مع من منهما » فيقول العربي « مع الكسائي » فقال « هذا يمكن » ثم عقد لها المجلس واجتمع ائمة هذا الشأن وحضر العربي وقيل له ذلك فقال « الصواب مع الكسائي وهو كلام العرب » فعلم سيبويه انهم يتجاملوا عليه وتعجبوا للكسائي فخرج من بغداد وقد حمل في نفسه لما جرى عليه وقصد بلاد فارس

وبدل ذلك على عناية اهل الدولة بالمسائل الادبية وان كانت في الواقع لا تخلو من غرض سياسي . على انهم كانوا يهتمون بالاداب من ايام بني امية فقد ذكرنا ان عبد الملك بن مروان كان يعقد المجالس للذاكرة فقال مرة لبعض اهل مسامرتة « ايكم بأثني بحروف المعجم في بدنه » اراد ان يعدد اعضاء بدنه فيذكر عضواً اوله حرف الالف ثم عضواً اوله حرف الباء وهكذا الى الياء فقام سويد بن غفلة فعدها فقام احد الحاضرين فعدها في جسد الانسان مرتين ^(١) فاجاز الاثنين

وكانت علوم اللغة في أول أمرها مشتركة مختلطة ثم تميزت وتشعبت فصارت علوماً عديدة كل منها مستقل عن الآخر كالنحو والسرف والناغة والمعاني والبيان والاشتقاق والعروض والقوافي وأخبار العرب وامثالهم والجدل وغيرها وقد يطلقون عليها علم الادب ولكل منها تاريخ وشروح هي من شأن تاريخ آداب اللغة

بلاغة الانشاء

البلاغة في الانشاء مما اقتضاه القرآن لانه مثال البلاغة والفصاحة عندهم يتحدونه في خطبهم ورسائلهم وانشائهم واذا لم يتحدوه عمداً فشيوع حفظه فيهم اكسبهم ملكة البلاغة مع ما كانوا فيه من اسباب الحماسة والاففة في ابان دولتهم . فدخلت لغة العرب بعد الاسلام في طور جديد من البلاغة والفصاحة ظهر في عباراتها على اختلاف طرق تأديتها خطابة او كتابة . اما بلاغة الخطابة فسيأتي الكلام عليها . واما الكتابة فينظر فيها من

عدة وجوه ترجع الى كتابة الرسائل وكتابة الكتب
انشاء الرسائل

فالرسائل كانت عبارتها عندهم مثل عبارة الخطابة من حيث التفنن في اساليب الخيال بالتهديد او الوعيد او النصيح او الاستنهاض او الاستعطاف او نحو ذلك من المعاني الشعرية . وكانوا في أوائل الاسلام يتوخون الاختصار فيها على قدر الامكان عملاً بالحدِيث القائل « اوتيتُ جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصاراً » فكانوا يجمعون المعنى الكبير في اللفظ القليل حتى تكاد ترى المعنى مجرداً من اللفظ . وكان لتلك الرسائل تأثير مثل تأثير الخطب البليغة كأنهم استعاضوا بعد زمن الفتح ببلغاء الكتاب عن بلغاء الخطباء . ومن أمثلة الرسائل المختصرة البليغة ان عمر بن الخطاب كتب الى عمرو بن العاص أمير مصر وكان الحجاز في ضنك عام الرمادة « من عبدالله عمر أمير المؤمنين الى عمرو بن العاص سلام عليك أما بعد فلعمري يا عمرو ما تبالي اذا شبت انت ومن معك ان اهلك انا ومن معي فياغوثاه ثم ياغوثاه » فكتب اليه عمرو « لعبدالله عمر أمير المؤمنين من عبدالله عمرو بن العاص اما بعد فياليك ثم ياليك قد بعث اليك بعير اولها عندك وآخرها عندي والسلام عليك ورحمة الله »

ومن أمثلة تأثير المسكّبة البليغة ان عبد الملك بن مروان بنى باباً في بيت المقدس باسمه وامر الحجاج بنى باباً باسمه هو فاتفق ان صاعقة وقعت فاحترق بها باب عبد الملك فقط فغظم ذلك عليه وتشاء منه فكتب الحجاج اليه « بلغني ان ناراً زلت من السماء فاحترقت باب أمير المؤمنين ولم تحرق باب الحجاج وما مثلنا في ذلك الا كمثل ابني آدم اذ قربا قرباناً فنقبل من أحدهما ولم ينقبل من الآخر » فسري عن عبد الملك بذلك

وكان الحلفاء يخارون كتابهم من البلقاء ويتوخون جهدهم في الاختصار مع البلاغة ومن أمثلة ذلك أن المأمون استكتب كاتبه عمرو بن مسعدة كتاباً الى بعض العمال بالوصية عليه والاعتناء بامره فكتب « كتابي اليك كتاب واثق بمن كتب اليه معنى بمن كتب له ولن يضيع بين الثقة والعناية » وكثيراً ما كانوا يجهون على الكتاب بعبارة مختصرة وخصوصاً اذا أرادوا التهديد او نحوه كما أجاب الرشيد نقفور ملك الروم وكان قد كتب اليه ينذره بقطع ما كان يحمله الروم الى بغداد من الاموال ويطلب اليه ارجاع ما كان قد قبضه منها الى ان قال « واقتد نفسك بما تقع به المصادرة والا فالسيف يتنا وينك » فلما قرأ الرشيد الكتاب استفزّه الغضب فدعا بدواة وكتب على ظهر الكتاب

بعد البسملة « قرأت كتابك يا ابن الكافرة والجواب ما تراه لا ما تسمعه » وأجاب مثل ذلك الجواب يوسف بن تاشفين للاذفونش ملك الافرنج لما هدهد بكتاب فكتب يوسف على ظهر الكتاب « الذي يكون ستراه »

التوقعات

ويعتد من هذا القليل أيضاً التوقعات وهي ما كان يوقعه الخلفاء على ما يرفع اليهم من القصص بما يشبه (التأشير) في دواوين هذه الايام وكانوا يفتنون في التوقيع فتناً بديعاً. ويغلب ان يجعلوا اجوبتهم آيات من القرآن او جملاً من الحديث او اشعاراً مشهورة ومن أمثلة ذلك ان سعد بن ابي وقاص كتب الى عمر بن الخطاب يستأذنه في بنين بنيه فوق عمر في أسفل الكتاب « ابن ما يكنك من الهواجر واذى المطر » ووقع عثمان ابن عفان في قصة قوم تظلموا من مروان بن الحكم وذكروا انه امر بوجء اعناقهم « فان عصوك فقل ابي بري مما تعملون » وكتب سلمان الفارسي الى علي بن ابي طالب يسأله كيف يحاسب الناس يوم القيامة فوقع على جوابه « يحاسبون كما يرزقون » وكتب عبدالله بن عامر الى معاوية في أمر يعاتبه فيه فوقع في أسفل الكتاب « بيت امية في الجاهلية أشرف من بيت حبيب في الاسلام فانت تراه » وكتب اليربوعي ابن عسل البربوعي يسأله ان يعينه في بناء داره بالبصرة باثني عشر ألف جذع فوقع في أسفل الكتاب « أدارك في البصرة أم البصرة في دارك » وكتب الحجاج الى عبد الملك بن مروان يخبره بسوء طاعة أهل العراق وما يقاسي منهم ويستأذنه بقتل أشrafهم فوقع له « ان من يمن السائس أن يتألف به المختلفون ومن شؤمه ان يختلف به المتألفون » ووقع عبد الملك في كتاب ابن الاشعث

فما بال من اسعى لاجبر عظمه حفاظاً وينوي من سفاهته كسري ووقع عمر بن عبد العزيز الى عامل شكاه الناس « كثر شاكوك وقل شاكوك فاما اعتدلت واما اعتزلت والسلام »^(١) وكتب اليه بعض عماله يستأذنه في بناء مدينة فوقع على الكتاب « ابنها بالعدل ونق طرقها من الظلم »

وقس على ذلك سائر توقعات بني امية وبني العباس وهي كثيرة وكلها بليغة كتوقيع المهدي لعامله على خراسان لامر جاء عنه « انا ساهروانت نائم » وتوقيع الرشيد الى عامله

على مصر» احذر ان تخرب خزانتي وخزانة اخي يوسف فيأتيك من لاقبل لك به ومن الله اكثر منه» وتوقيع المأمون الى ابن هشام في أمر تعظيم فيه « من علامة الشريف ان يظلم من فوقه ويظلمه من تحته فاي الرجلين انت ؟ »

وكان الامراء والوزراء ايضاً يوقعون مثل توقعات الخلفاء في ما يرفع اليهم من القصص . فتعظم احدثهم الى زياد بن ابيه من بعض عماله بكتاب فوق له « انا معك » ووقع الحجاج في كتاب اتاه من صاحب الكوفة يخبره بسوء طاعة اهلها وما يقاسي من مداراتهم « ما ظنك بقوم قتلوا من كانوا يعبدونه » ووقع جعفر بن يحيى في قضية محبوس « ولكل اجل كتاب » ووقع لآخر « الجنابة حبسته » والتوبة تطلقه » وقد اقتبس العرب التوقيع على هذه الصورة من الفرس لانهم سبقوهم الى ذلك .

وما زال الاختصار عمدة البلاغة في رسائلهم ومكاتباتهم حتى تحضروا واختلطوا بالفرس بالمصاهرة والمعاشرة فاقبسوا منهم التفضيم والمبالغة والتوسع . وقد بداوا بذلك من اوائل القرن الثاني للهجرة . واول من اطال الرسائل واستعمل التحديدات في فصول الكتب وفتق اكام البلاغة عبد الحميد الكاتب المشهور المتوفى سنة ١٣٢ هـ وهو من اهل الشام^(١) غير عربي . وسار الكتاب بعده على خطته وقلده وتوسعوا في طريقته فنبغ جماعة من مشاهير البلغاء فيهم الوزراء والامراء واكثرهم من غير العرب ومنهم يحيى بن خالد البرمكي فارسي والفضل بن الربيع من الموالي والفضل بن سهل فارسي والصاحب بن عباد من الطالقان وابن العميد المتوفى سنة ٣٦٠ هـ خراساني وعماد الدين الكاتب المتوفى سنة ٥٩٧ هـ اصهباني وهو اكثرهم توسعاً واطناً

انشاء الكتب

ونريد بها الكتب المؤلفة في المواضيع الادبية او العلمية او التاريخية او نحوها وهي تختلف بلاغة وفصاحة باختلاف مواضيعها . وكتب الادب احوج الى البلاغة لما تقتضيه المواضيع الادبية من التخيلات الشعرية والكنائيات ونحوها . والغالب في كتاب الادب ان يطالعوا آداب العرب ويحايطوهم ويحفظوا اساليبهم في اشعارهم وخطبهم واقوالهم فتحصل فيهم ملكة البلاغة العالية ولذلك كان الفقهاء واهل العلوم الطبيعية قاصرين في البلاغة لاستغناء هذه العلوم عن الخيال فيتعودون التعبير بعبارات وضعية بعيدة عن اساليب الادباء . ولو حاولوا الكتابة في الادب او نظم الشعر لجاء كلامهم ضعيفاً ركيكاً

فلغة الكتاب قبل انتشار الفقه ونقل العلوم الطبيعية الى العربية كانت اقرب الى البلاغة مما صارت اليه بعد ذلك لانها كانت مصوغة على مثال القرآن وهو عنوان البلاغة لكنه اقرب الى التعبير الشعري منه الى الكلام المرسل . فالذين تحدوه في صدر الاسلام اجادوا في الخطب والمراسلات لافتقارها الى ذلك الاسلوب بما فيه من اسباب التأثير في النفوس . فلما اقدم المسلمون على تأليف الكتب وكان معظم المؤلفين من الفرس اصطبغت بلاغة العربية بشيء من اسلوب الفرس فنشأ عنها الكلام المرسل المتناسق . واحسن امثله عبارة ابن المقفع في كتاب كلیلة ودمنة فانها لا تزال عنوان البلاغة والسهولة الى هذا اليوم

✽ ابن المقفع ✽ كان ابن المقفع عريقاً في الفارسية عالماً بآدابها متمكناً من اساليبها لانها لغته ولغة آباءه . وكان يعرف اللغتين الفهلوية واليونانية وقد نشأ في البصرة في النصف الاول من القرن الثاني للهجرة وهي حافلة بالادباء والشعراء فبرع في اللغة العربية وآدابها وكان سليم الذوق ذا قريحة انشائية . فلما اقدم على نقل كتاب كلیلة ودمنة من الفارسية الى العربية جاءت عبارته شاملة للبلاغة والسهولة وقد تحداهما من جاء بعده لانه اقدم من حفظ انشاؤه في المواضيع الادبية باللغة العربية (توفي سنة ١٤٣ هـ)

على ان سائر كتاب الادب نحو ذلك العصر فلما انشأوا شيئاً من عند انفسهم لان اكثر ما كانوا يكتبونه قطع كانوا يروونها عن اهل البادية او عن بلغاء الخطباء بنصها وربما وصلوا بينها بفقرات لا تتجاوز قولهم حدثنا فلان او اخبرنا فلان او خطب فلان فقال كذا وكذا وكتب فلان الى فلان كذا وكذا مما لا يعد من قبيل الانشاء المرسل — حتى ما كتبه اركان علم الادب في اواسط القرن الثالث للهجرة كالجاحظ والمبرد وابن قتيبة وغيرهم فان كتبهم عبارة عن قطع من اقوال العرب او مروياتهم منقولة بالاسناد الى اصحابها وشأنهم في ذلك شان كتاب المغازي والفتوح والسير وال اخبار والاشعار كحماد والاصمعي وابي عبيدة ومحمد بن اسحق فانهم كانوا يقولون ويسندون اقوالهم الى الرواة واكثرهم من اهل البادية . ويقال نحو ذلك في ما جمع بين هذه الفنون ككتاب العقد الفريد لابن عبد ربه وكتاب الاغانى لابي الفرج الاصبهاني وغيرها فانها عبارة عن اخبار مسندة الى اصحابها ويندر فيها الكلام المرسل من عند المؤلف

فكتاب كلیلة ودمنة اقدم ما وصل الينا من الانشاء المرسل من لغة رجل واحد . وهو عالم من علماء الفرس وقد نقل الكتاب عن لغة الفرس ونظراً الى ما يمتاز به الكتاب المذكور من السهولة والرشاقة عن سائر ما كتب في عصره او ما بعده من كتب الادب يغلب على

ظننا انه اكتسب ذلك من تأثير اساليب اللغات الاخرى التي كانت يعرفها الكتاب او لاقتدار خاص في الكتاب نفسه على مثل ذلك الاسلوب . وقد قلَّ من جاء بمثله بعده ولم يأت احدهم باحسن منه مع ما بلغ اليه العلم من الرقي في العصر العباسي وما نبع فيه من عليّة الكتاب المشاهير مما يدلّك على ان الانشاء فريضة خاصة مثل فريضة الشعر لا تقيد بالزمان او المكان الا قليلاً

وما زالت الكتب تؤلف بالاسناد والرواية حتى كثرت المؤلفات العربية في كل فن او علم وعمد الكتاب الى التلخيص والاختصار في القرن السادس او السابع فاخذوا يخذفون الاسانيد او يختصرونها الا لأسباب خصوصية كما ستري في باب التاريخ السجع

ولما نضج التمدن الاسلامي وكثر فيه الادباء والشعراء واصبح الشعراء على السنة الناس على اختلاف طبقاتهم وكثرتهم به وتناشدهم اياه ألف الناس التلذذ برنة القافية فاستحسنوا ادخالها اولاً في المراسلات وهو التسجيع وقد كان في اول امره مقبولاً لقلته وحسن وقعه حتى ادخلوه في الكتب وكتبوا به المقامات في اواخر القرن الرابع واول من فعل ذلك بديع الزمان الهمداني المتوفى سنة ٣٩٨ هـ ولعله اقتبس نسقها من احمد بن فارس الرازي المتوفى سنة ٣٩٠ هـ^(١) وعلى منواله نسج الحريري ولكنه تباعد عن السهولة والطلاوة . وشاعت هذه المقامات واستحسنها الناس فزادتهم رغبة في الاسجاع فتكاثر التسجيع في القرون الاسلامية الوسطى حتى مجته الاسماع وعاد الى نحو ما كان عليه في ايام الكهان والتسجيع في الكتب أنبى على السمع مما في الرسائل وخصوصاً في مالا يحتاج الى تنسيق او اطناب اورنة او خيال ككتب التاريخ والعلم . فن يطالع كتاب فلانند العقيان للفتح بن خاقان المتوفى سنة ٥٣٥ هـ او الفتح القسي في الفتح القدسي لعماد الدين الاصبهاني المتقدم ذكره او تاريخ آل سلجوق لعماد الدين أياً يضاً يرثقل الاسجاع على الاسماع في التاريخ وان حسنت احياناً في الرسائل والخطب

على ان معظم مشاهير الكتاب في كل العصور لم يكتبوا الا مراسلاً وقد اجادوا كتابن خلدون وابن الاثير والمسعودي وغيرهم . وقد كتب غير واحد منهم في تقييح السجع حتى في المراسلات ونسبوا ذلك الى ضعف ملكة الانشاء^(٢)

٣ - التاريخ والجغرافية

التاريخ

بقي الانسان احقاباً لم يدون فيها التاريخ لانه لم يكن يعرف الكتابة ولان احواله لم تكن تستدعي التدوين لسداجتها مع انصراف همه في تلك العصور الى ضروريات الحياة على انه ما لبث ان اصاب بطوارق الحداث فحفظ اكثرها تأثيراً في احوال معاشه كالطوفان والقيح والحرب ونحوها وتنقلت تلك الاخبار في اعقابه ادهاراً وهي تتعاضم وتتكيف على ما تطلبه طبيعة الانسان من التلذذ باستماع الغريب والمنافسة في التأثير على السامع بما يلقيه من الاخبار المثقة المستغربة . فوصلت اخبار الاوائل الى زمن التاريخ وهي اشبه بالخرافات منها بالحقائق . واتخذ بعضها وجهة دينية والبعض الآخر حماسية واصطبغ بعضها صبغة شعرية او خيالية ويختلف ذلك باختلاف الامم والعصور . فنشأ من ذلك كله ما يعرف بالخرافات القديمة كالميثولوجيا اليونانية في الالياذة واخبار الهنود في المهابهاراة واخبار الفرس القدماء في الشاهنامه واخبار القبائل البائدة التي كان العرب يتناقلونها . فان ما ينسبونه الى عاد وثمود وطسم وجديس من الحوادث المستغربة لا تخلو من أصل تاريخي تعاضم وتضاعف بمرور الايام وكذلك حديث سيل العرم وبلقيس وغيرها

وبلي ذلك طبقة من الاخبار اقرب الى التاريخ من تلك كالمهاجرات القديمة والحروب القديمة ومنها ايام العرب وحروبهم قبل الاسلام وعام الفيل ونحوها مما اشرنا اليه في باب علوم العرب قبل الاسلام . فجاء الاسلام وليس عند العرب من قبيل التاريخ غير انسابهم وشذرات من تلك الاخبار والخرافات ولا علم لهم بأحوال الامم الاخرى إلا ما له علاقة بهم . غير ما كانوا يسمعون من حوادث التوراة والتلود من اخبار اليهود او قيس النصارى ولا يخرج ذلك كله عن اخبار منقطعة يقصر الخبر منها على حادثة او واقعة لا علاقة لها بالحوادث الاخرى

فالعرب قبل الاسلام كانوا يعدون من أضعف الامم المتدنة في التاريخ . فلما ظهر الاسلام اشتغلوا بالفتوح والحروب حتى اذا استتب لهم الامر وفرغوا من الفتح تدرجوا في وضع التاريخ مثل تدرجهم في سائر العلوم الاسلامية . وقد عددنا التاريخ من هذه العلوم ليس لانه خاصاً بالاسلام بل لان الاسلام دعا الى وضعه كما ستري

قد تقدم في كلامنا عن « حملة العلم في الاسلام اكثرهم المعجم » ان العرب كانوا ينزهون عن الاشتغال بالعلم الا الاخبار فانهم كانوا يشتغلون بها ويعنون بحفظها وسماعها وتناقلها وخصوصاً اخبار الفرسان والشجعان والفصحاء والخطباء والشعراء لما في ذلك من بواعث القدوة واستنهاض الهمم وترويض النفوس

وكان اكثر اخلقاء دهاءً وسياسة اكثرهم رغبة في استماع الاخبار — فمعاوية بن أبي سفيان داهية بني امية كان يجلس لاصحاب الاخبار في كل ليلة بعد العشاء الى ثلث الليل فيقصون عليه اخبار العرب وابائهم والعجم وملوكها وسياستها في رعيتهما وسائر ملوك الامم وحروبها ومكائدها . ثم ينام ثلث الليل ويقوم فيأتيه غلمان مرتبون وعندهم كتب قد وكوا بحفظها وقراءتها فيقرأون عليه ما في تلك الكتب من سير الملوك واخبار الحروب ومكائدها وانواع السياسات ^(١) والغالب في اعتقادنا ان تلك الكتب في اليونانية او اللاتينية وفيها اخبار ابطال اليونان والرومان كالاسكندر وبوليوس قيصر وهنريال وان الغلمان كانوا يفسرونها له بالعربية لان العرب لم يدونوا الكتب الا بعد زمن معاوية

وسماع اخبار العظماء يستنهض الهمم الى الاقتداء بهم ولذلك كان اكثر القواد العظام الراغبين في العلي من العرب وغير العرب يستلون اخبار من سبقهم من مشاهير القواد واذا وقع أحدهم في مشكلة سياسية تدبر ما حدث من امثاله قبله تمهيداً لا بداء حكمه فيها — يقال ان المنصور لما هم بقتل ابي مسلم الخراساني تردد بين ان يمضي قتله او يشاور فيه لما كان لا يبي مسلم من السعي الحميد في قيام الدولة العباسية . فزايده بلباله حتى ارق فلما اصبح استدعى استحق بن مسلم العقيلي وقال له « حدثني حديث الملك الذي اخبرني عنه في حران » فقص عليه الحديث وخلاصته ان سابور ملك الفرس اقتد زريه الى خراسان يدعو اهلها الى طاعته ففضى وسعى في تحجيب الناس به ودعاهم الى طاعة نفسه . فلما استفحل أمره صمم سابور على قتله عند رجوعه اليه بأعيان خراسان فلما رجعوا بغتهم فلم ينتهبوا الا وراس الوزير بين أيديهم فاضطروا الى طاعة سابور — فلما سمع المنصور تلك الحكاية بما فيها من المشابهة بحكاية ابي مسلم اطرق ملياً ثم رفع راسه وهو يقول :

لذي الحلم قبل اليوم ما تفرع العصا وما علم الانسان الا ليعلم

وأقر على قتل ابي مسلم وقتله ^(٢) وكان بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل اذا دخل شهر رمضان احضرت له كتب التواريخ والسير وجلسوا يقرأون عليه احوال العالم فأصبح

علم التاريخ من علوم الملوك وأصحاب السيادة وكان من الامثال الشائعة في أوائل الاسلام قولهم « علم الملوك النسب والخبر وعلم اصحاب الحروب درس كتب الايام والسير وعلم التجار الكتاب والحساب »^(١)

فلما ضعف شأن الخلافة العباسية واستبد الوزراء في أمور الدولة اصبح همهم منع الخلفاء من مطالعة التاريخ او السير خوفاً من ان يتفطنوا الى أشياء لا يجب للوزراء ان يتفطنوا لها — قيل ان المكتفي طلب من وزيره كتباً يلهمها ويقطع ببطاعتها زمانه فنقدم الوزير الى التواب بتحصيل ذلك وعرضه عليه قبل حمله الى الخليفة فجأؤه ببعض الكتب وفيها شيء مما جرى في الايام السالفة من وقائع الملوك واخبار الوزراء ومعرفة التحيل في استخراج الاموال . فلما رآه الوزير غضب وقال لتوابه « والله انكم اشد الناس عداوة لي انا قلت كم حصلوا له كتباً يلهمها ويشغل بها عني وعن غيري فقد حصلتم له ما يعرفه مصارع الوزراء ويوجد له الطريق الى استخراج الاموال ويعرفه خراب البلاد من عارتها ردها وحصلوا له كتباً فيها حكايات تلهيه واشعار تطربه »^(٢) فضعلوا

مصادر التاريخ الاسلامي

للتاريخ الاسلامي مصادر كثيرة تدرج فيها على مقنضى الاحوال واليك تمثيل ذلك :
لما اشتغل المسلمون بجمع القرآن وتفسيره وجمع الاحاديث احتاجوا الى تحقيق الاماكن والاحوال التي كتبت بها الآيات او قيأت بها الاحاديث فعمدوا الى جمع السيرة النبوية لانها شاملة لكل ذلك فتناقلوها مدة ثم دونوها . وأول من دونها على المشهور محمد بن اسحق المتوفى سنة ١٥١ الفها للمنصور . على اننا رأينا في كشف الظنون ان محمد بن مسلم الزهري المتوفى سنة ١٢٤ هـ ألف كتاباً في المغازي^(٣) وقد توفي قبل ابن اسحق ببضع وعشرين سنة . ولكن يؤخذ من ترجمتهما في وفيات الاعيان انهما كانا متعاصرين . ويقال أيضاً أن أول من صنف المغازي والسير عروة بن الزبير المتوفى سنة ٩٣ هـ ووهب بن منبه المتوفى سنة ١١٤^(٤) وفي كل حال فان هذه السير ضاعت واقدام ما وصل الينا منها سيرة عبد الملك بن هشام المتوفى سنة ٢١٣ هـ في كتابه المعروف بسيرة ابن هشام وهي منقولة عن ابن اسحق المذكور وقد طبعت غير مرة

(١) العقد الفريد . ١٥٠ ج ١ (٢) الفخري ٥

(٣) كشف الظنون ٣٩ و ٣٠١ ج ٢ (٤) كشف الظنون ٤٧٠ ج ٢

ولما اشتغل المسلمون في ضرب الحراج على البلاد اختلفوا في بعضها هل فتح عنوة او صلحاً او أماناً او قوةً وفي شروط الصلح او الامان • فاضطروا الى تدوين اخبار الفتح باعتبار البلاد فالقوا كتباً في فتح كل بلد على حدة • كفتح الشام للواقدي المتوفى سنة ٢٠٧ هـ وكتابه مشهور لكنه مملوء بالمبالغات بما يشبه الحكايات • وفتح مصر والمغرب لابن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧ هـ وفتح بيت المقدس ونحوها • ثم جمعوا فتوح البلاد معاً في كتاب واحد كفتح البلدان او فتح الامصار للبلاذري المتوفى سنة ٢٧٩ هـ وهو اوثق كتب الفتح واشملها واقدم ما بين أيدينا منها الا الواقدي الطبقات والمغازي

وقد رأيت في ما تقدم من كلامنا عن القرآن والحديث والنحو والادب ان العلماء اضطروا لتحقيق مسائل هذه العلوم الى البحث في اسانيدھا والتفريق بين ضعيفها ومتينها فخرّهم ذلك الى النظر في رواة تلك الاسانيد وتراجمهم وسائر احوالهم حتى أصبح من شروط الاجتهاد في الفقه معرفة الاخبار بمتونها واسانيدھا والاحاطة باحوال النقلة والرواة عدولها وثقاتها ومطعونها ومردودها والاحاطة بالوقائع الخاصة بها^(١) فقسموا رواة كل فن الى طبقات فتألف من ذلك تراجم العلماء والادباء والفقهاء والنحاة وغيرهم مما يعبرون عنه بالطبقات • ومنها طبقات الشعراء وطبقات الادباء وطبقات النحاة وطبقات الفقهاء وطبقات الفرسان والمحدثين واللغويين والمفسرين والحفاظ والمتكلمين والنسايين والاطباء حتى الندماء والمغنين وغيرهم والقوا في كل باب غير كتاب • ولذلك كان المسلمون أكثر اعم الارض كتباً في التراجم لافراد الرجال واقدم كتب الطبقات التي وصلت اليها كتاب طبقات الصحابة لمحمد بن سعيد المعروف

بكتاب الواقدي المتوفى سنة ٢٣٠ هـ وهو كبير ربما دخل في بضعة عشر مجلداً ويحتوي على تراجم الصحابة والتابعين والخلفاء الى أيام المؤلف^(٢) وكان هذا الكتاب مشتتاً في مكاتب العالم ومنه الجزء الثاني في دار الكتب الخديوية بمصر وقد علمنا ونحن نخط هذه الحروف ان جمعية المانية شرعت في طبعه واصدرت الجزء الأول منه • ثم طبقات الشعراء لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ وقد طبع في ليدن في هذا العام بعناية الاستاذ دي كويه المستشرق الهولندي الشهير • ثم الف الناس طبقات كثيرة في أزمنة مختلفة ومنها استخرجوا كتب التراجم الكبرى كوفيات الاعيان والوافي في الوفيات وفوات الوفيات

(١) الشهرستاني ١٥٤ ج ١ (٢) ابن خلكان ٥٠٧ ج ١

وغيرها مما سيأتي ذكره. غير التراجم الداخلة في تواريخ البلاد كتاريخ دمشق لابن عساكر في ثمانين مجلدًا وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي في نحو ذلك وفيهما تراجم كثيرة وكان طلاب الادب الراحلون في جمع اللغة والشعر من افواه اهل البادية ياتمقطنون اخبار العرب ووقائعهم وحوادثهم ويدونون ذلك في كتب الادب كما تقدم. ناهيك بالاخبار المستخرجة من تلك الاشعار — قال ابن يونس « لولا شعر الفرزدق لذهب نصف اخبار الناس »^(١)

ولما استبدت بنو امية في الخلافة واعوججوا في أحكامهم عن سبل الخلفاء الراشدين كثر تحدث الناس باخبار الراشدين وتذكر اعمالهم المؤسسة على العدل والرفق — وذلك طبيعي في هذه الاحوال. ثم الف بعضهم كتبًا في تاريخ الخلفاء الراشدين ثم في الخلفاء على الاجال واقدمهم الدينوري المتوفى سنة ٢٨١ هـ ويقال نحو ذلك في تأليف تراجم الوزراء وتواريخ عمال الشرطة وتواريخ الاذكياء والبخلاء والعشاق وغيرهم

التواريخ العامة

فانقضى القرن الثاني للهجرة ونصف الثالث وكتب التاريخ عند المسلمين الطبقات والمغازي والسير والفتوح على ما تقدم. اما التواريخ العامة مثل تواريخ الامم او البلاد قديمًا او حديثًا فلم يشتغلوا بها الا بعد ذلك واقدم من كتب في التاريخ العام ابن واضح المعروف باليعقوبي وكتابه مطبوع في جزئين جزء في التاريخ القديم كاليهود والهنود واليونان والروم والفرس وغيرهم والثاني في تاريخ الاسلام من ظهوره الى أيام الممتد العباسي الذي تولى الخلافة سنة ٢٥٦ هـ. ويليه ابن جرير الطبري المفسر الشهير المتوفى سنة ٣١٠ هـ وتاريخه كبير مرتب على السنين ينتهي الى حوادث سنة ٣٠٢ هـ وقد الف الفرغاني عليه ذيلًا ينتهي الى سنة ٣١٢ هـ وكلاهما مطبوع. ثم المسعودي المتوفى سنة ٣٤٦ هـ صاحب مروج الذهب وفيه وصف البلاد والبحار والحيوانات وغيرها فضلاً عن التاريخ وهو محبوب حسب الدول او الامم ومطبوع. وللمسعودي كتاب سماه « اخبار الزمان » قد ضاع ولم يقف له احدٌ على أثره ولكن يظهر مما ذكر عنه في مروج الذهب انه مطول جدًّا. يليه حمزة الاصفهاني صاحب تاريخ سني ملوك الارض فرغ من تأليفه سنة ٣٥٠ هـ وظل الناس على هذه التواريخ وقليل غيرها الى القرن السابع للهجرة اذ انقضت الدول

الاسلامية العربية - العباسية في العراق والفاطمية في مصر والاموية في الاندلس .
وقامت دول الاثراك والاكرد والبربر فانقل الناس الى عصر جديد فعمدوا الى تدوين تاريخ
العصر المتقضي فاستعانوا بالكتب التي تقدم ذكرها فاختصروا مطولها وبوبوا مشوشها وجمعوا
بين مواضعها واضافوا ما لم يدركه أصحابها . والفوا عدة توارىخ مطولة اشهرها واوعاها
واضبطها كتاب الكامل لابن الاثير المتوفى سنة ٦٣٠ هـ فقد ضمنه تاريخ الطبري كله
بعد حذف الاسانيد واختصار النصوص المطولة وزاد عليه ماحدث بعده وما حدث في
زمن الطبري في الاندلس وغيرها . ورتب ابن الاثير كتابه على السنين مثل كتاب الطبري
فجاء ١٢ مجلداً كبيراً وهو مطبوع . وجاء بعده ابو الفداء صاحب حمة المتوفى سنة ٧٣٢ هـ
فاخذ الكامل فلخصه وأدخل فيه كثيراً من أخبار الادباء والعلماء وتوسع في اخبار العرب
الجاهلية وابقاه على حوادث السنين فجاء في ثلاثة مجلدات وهو مطبوع ومنشور . وجاء
بعده عمر بن الوردي المتوفى سنة ٧٤٩ هـ فاخصر تاريخ ابي الفداء

ثم نبغ العلامة ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ والعرب قد ذهبت دولهم تمام الزهاب
واتضحت عبرة التاريخ . وكان ابن خلدون عالماً دقيق النظر صحيح القياس فألف تاريخه
المشهور ورتبه على الدول بدل السنين وافاض خصوصاً في اخبار الغرب والاندلس مما لم
يسبقه اليه احد . ويمتاز هذا التاريخ عما سبقه بمقدمة فلسفية لم ينسج احد على مثالها قبلها
حتى علماء اليونان والرومان وغيرهم من الامم القديمة . وفي شهرتها ما يغني عن وصفها
ونهج بعض المؤرخين في تأليفهم منهجاً آخر فجعلوا مؤلفاتهم باسماء المدن فضمنوا
كتبهم وصف تلك المدن وتراجم الذين عاشوا فيها . واطول المؤلفات من هذا الصنف
تاريخ بغداد للخطيب البغدادى المتوفى سنة ٤٦٣ هـ وتاريخ دمشق لابن عساكر المتوفى سنة
٥٧١ هـ في ثمانين مجلداً وقد تقدم ذكرها وكلاهما لم يطبعوا والثاني اكثر وجوداً من الاول .
ومن هذا القبيل خطط مصر للكندي ثم للقضاعي ثم للقريري وهذه الاخيرة مشهورة ومثلها
اخبار مصر القاهرة لابي المحاسن والسيوطي

التراجم والمجمعات

واما التراجم فكانت في القرون الاولى تدون في الطبقات باعبار المهن او العلم الذي
يجمع كل طبقة كما تقدم . فلما نضج العلم واخذ العلماء في الترتيب والتبويب نبغ جماعة من
المؤرخين استخراجاً من الطبقات وغيرها كتب التراجم ورتبوها على حروف المعجم واشهر
تلك الكتب « وفيات الاعيان » لابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ هـ ثم « فوات الوفيات » لصالح

الدين الكشي المتوفى سنة ٧٦٤ هـ استدرك فيه مافات ابن خلكان ذكره وكلاهما مطبوعان ومشهوران . وكتاب « الوافي في الوفيات » لصالح الدين الصفدي المتوفى سنة ٧٦٤ هـ وهو كبير لكنه لم يوجد مجموعاً في مكتبة واحدة ولا جمعه بعد فهو لم يطبع ومنه اجزاء متفرقة في مكاتب اوربا . ومثله كتاب « مرآة الزمان » لسبط ابن الجوزي المتوفى سنة ٦٥٤ هـ في ٤ مجلدات وهو مشتمل . وفي تراجم اهل الاندلس كتب كثيرة منها كتاب « الصلة » لابن بشكوال المتوفى سنة ٥٧٨ هـ وكتاب « المعجم » لابن الابار وغيرها

ومن هذه المعجمات التاريخية ما هو خاص بفئة من الناس او طبقة من طبقاتهم ككتاب « أسد الغابة » في اخبار الصحابة لابن الاثير صاحب الكامل وهو في خمسة اجزاء كبيرة وخاص بالصحابة وهو مطبوع ومشهور . و « تراجم الحكماء » لابن القفطي غير مطبوع على ان كثيراً من التراجم والاخبار التاريخية منشور في كتب الادب ككتاب الاغانى والعقد الفريد والكشكول والمستطرف والبيان والتبيين . وقد تجد فصولاً تاريخية مهمة في كتب العلم الطبيعي ككتاب حياة الحيوان للدميري فان فيه فصولاً تاريخية قلما نعتز عليها في كتب التاريخ

ويمتاز التاريخ عند العرب على سواه عند سائر الامم التي تحضرت قبلهم بكثرة ما كتبوه من التراجم واكثره بشكل القواميس وهم السابقون في ذلك وعنهم اخذ اهل العالم تأليف المعجمات التاريخية . فعندهم من قواميس التراجم بضعة صالحة هي كنوز في التاريخ والجغرافية والادب والعلم . فوفيات الاعيان معجم يزيد عدد الترجمات فيه على ٨٢٠ ترجمة مرتبة على احرف الهجاء غير ما جاء عرضاً في اثناء الكلام على الآخرين . ومن مزايده انه يضبط الاعلام من اسماء الرجال والاماكن ويذكر سني الوفاة والولادة ويضمن التراجم كثيراً من الفوائد الادبية والعلمية مما يندر في سواه . ويقال نحو ذلك في قواميس التراجم الاخرى كفوات الوفيات وفيه اكثر من ٤٥٠ ترجمة لم يذكرها ابن خلكان . وكتاب الوافي في الوفيات واسد الغابة في اخبار الصحابة وكتاب تراجم الحكماء . غير كتب التراجم المرتبة على غير الهجاء ككتب الطبقات للشعراء والفقهاء والاطباء ومن احاسنها كتاب طبقات الاطباء لابن ابي أصيبعة المتوفى سنة ٦٦٨ هـ فانه جامع تاريخ الطب والاطباء والعلم والعلماء والفلسفة والفلاسفة عند اليونان والفرس والمهتدون والكلدان فضلاً عن العرب والمسلمين وهو مرتب بحسب العصور والبلاد . ناهيك بما يتخلل ذكر مؤلفاتهم ووصفها من العادات والاداب الاجتماعية وغيرها . وهو مطبوع ومشهور

عدد كتب التاريخ

فالمسلمون ألفوا في التاريخ كتباً لا تحصى وما من أمة قبل العصر الحديث بلغت في هذا العلم ما بلغ اليه المسلمون . فان كتب التاريخ الواردة اسمائها في كشف الظنون فقط تزيد على ١,٣٠٠ كتاب غير الشروح والاختصارات وغير ما ضاع من تلك الكتب واهمل ذكره وهو كثير جداً — يدلك على ذلك ما تراه في مقدمات بعض كتب التاريخ او الجغرافية اذ يذكر المؤلف كتباً عديدة نقل عنها او اعتمد عليها في تأليف كتابه فاذا بحث عنها رأيت اكثرها ضاع ولم يرد ذكره في كتب الفهارس ككشف الظنون او غيره . فالمسعودي ذكر في مقدمة كتابه مروج الذهب عشرات من الكتب التي كانت شائعة في ايامه وقد نقل عنها ولم يذكر منها صاحب كشف الظنون الا القليل . فلو بقيت الكتب التي ألفها العرب في التاريخ كلها لزادت على بضعة آلاف وفيها كتب كبيرة يدخل الواحد منها في اربعين مجلدًا او خمسين او ثمانين ومنها في عشرة او خمسة او اقل او اكثر

ومن كتب التاريخ العام ما هو مرتب احسن ترتيب باعتبار السنين كالطبري وابن الاثير وابي الفداء او باعتبار الامم او الدول كالمسعودي والفخري وابن خلدون او بحسب المدن او الملوك مما لا يحصى . واكثرها حسن العبارة بليغها مع اسهاب ربما زاد في بعض الاحوال حتى يخرج عن موضوع الكتاب . ويغلب الصدق في روايات كتاب المسلمين لما تعودوه من الاسناد في تناقل الاخبار الا ما دخل تواريجهم في العصر الاول لاغراض بعض ذوي المطامع او الاهواء والعرب لا يزالون على سدا جتهم

عيوب المؤرخين المسلمين

وانما يعاب المؤرخون المسلمون لاقتصرهم في التواريخ أو التراجم على ايراد الحوادث على عواهنها كما بلغت اليهم وقد يسندونها الى راو او عدة رواة بلا انتقاد ولا تمحيص ولا قياس اكفاء بالاسناد . وقد فاتهم ان بعض الاخبار المسندة موضوع في الصدر الاول او ما بعده لاغراض سياسية كما وضع كثير من الاحاديث لاسباب تقدم بيانها وما ينقد عليهم ايضاً انهم يصرفون عنايتهم في التواريخ الى تدوين اخبار الحرب والفتح والعزل والولاية والولادة والوفاة . وقلموا بذكر تاريخ الاداب او العلوم او احوال الدولة من الحضارة واسبابها وتعليل الحوادث وما نجم عنها وقياس بعضها على بعض الا ما يجبي عرضاً . فيندر ان ترى مؤرخ منهم رأياً في حادثة او انتقاداً على خليفة او امير او ملاحظة على نكتة حتى في الاحوال التي يعلم انه لا يسيء به الخليفة بل قد يكون في انتقاده

ما يسرُّ ذلك الخليفة كما كانت حال مؤرخي الدولة العباسية في شؤون الدولة الاموية فان شدة العباسيين على الامويين مشهورة ومع ذلك فان المؤرخين الذين كتبوا في عهد الدولة العباسية قلماً ذكروا شيئاً من مساوئ بني امية الا ما قد يجي عرضاً — ولعل السبب في ذلك السكوت ان حوادث التاريخ الاسلامي اكثرها متصل باسباب دينية او شرعية بين فرقة واخرى او مذهب وآخر . فاذا انتشبت حرب بين خليفتين او اميرين مسلمين لا يخلو ان يكون احدهما ظالماً والاخر مظلوماً فالمؤرخ المسلم يتحاشى الطعن في احدهما احتراماً لمقام الدين فينقل الخبر على علاته ويترك الحكم فيه للقارىء — وهذا هو السبب في ما نقاسيه من العناء في استخراج حقائق التمدن الاسلامي من كتب التاريخ

وقد يكون من اسباب سكوتهم عن مساوئ بعض الامراء التزلف اليهم او الاستجداء بدحهم وكثيراً ما كان خلفاء والامراء او السلاطين يقترحون على المؤرخين تأليف الكتب ويحيزونهم على تأليفها فكان المؤرخون يراعون بها جانب المقترح ولو خالفوا الحقيقة وهم يعلمون . ومن الطف الشواهد على ذلك ما قاله ابو اسحق الصابي الكاتب الشهير وقد كلفه عضد الدولة بن بويه ان يؤلف له كتاباً في اخبار الدولة الديلية فالف له تاريخاً سماه « التاجي » فاتفق وهو يؤلفه ان دخل عليه صديق له فسأله عما يعمل فقال « اباطيل انمقها واكاذيب النقا »^(١)

وقد يكون السبب عداوة بين المؤلف والمترجم فيبخسه حقه عمداً كما فعل الفتح ابن خاقان في ترجمة ابن باجة الفيلسوف الاندلسي الشهير^(٢)

ويندر ان ترى من بعض المؤرخين تصريحاً بمساوئ احد الخلفاء او الامراء او غيرهم من اولي الامر . واكثر ما عثرنا عليه من امثال ذلك في كتاب الآداب السلطانية للفخري وتاريخ ابن خلدون . اما الفخري فقد صرح بذلك انتصاراً لآل علي كقوله على اثر حكاية وقعت للرشييد مع ابي نواس فاورد الفخري قول ابي نواس في الرشيد

قد كنت خفتك ثم امنني من ان اخافك خوفك الله

ثم قال « ولم يكن الرشيد يخاف الله وفعاله باعيان آل علي (عم) اولاد بنت نبيه بغير جرم الخ » وهذا تصريح لم نر له شبيهاً في كتب مؤرخي المسلمين الا ما قد يقوله الشيعة في اعمال اهل السنة او بالعكس . واما ابن خلدون فقد انتقد اعمال بعض الدول او الخلفاء مدفوعاً بالقياس الصحيح والحكم الفلسفي

ومما يؤخذ به مؤرخو المسلمين أيضاً بالنظر الى اداب هذه الايام انهم اذا عرض لهم في بعض الاخبار الفاظ بذئية او واقعة ينجل سماعها الاديب فاتهم بذكرونها بالفاظها كما يذكرون سائر الحوادث ويدخل في ذلك كثير من الاشعار السقيمة وهم يسمون ذلك إحماضاً . وقد يتبادر الى الذهن انه من مقتضيات تلك الاعصر أو انه لم يكن منكراً عندهم والحقيقة ان اهل الادب الصحيح من أولئك المؤرخين كانوا يتحاشون الوقوع في ذلك وفي جملتهم ابن خلكان فانه من ابعدهم عن الفحش في القول ومن الادلة على أدبه انه لما ترجم حسين بن محمد المنعوت بالبارع وهو من الشعراء المشهورين ساقه الحديث الى قصيدة نظمها أحدهم للبارع المذكور وقصيدة أجابه البارع بها فذكر ابن خلكان البيت الأول من القصيدة ثم قال « ولولا ما اودعها من السخف والفحش لذكرتها »

الجغرافية او تقويم البلدان

لفظ الجغرافية وحده كافٍ للدلالة على ان هذا الفن ليس من موضوعات العرب ولكننا ذكرناه هنا لارتباطه بالتاريخ ولان العرب كتبوا في وصف الطرق والبلاد والمدن قبل نقل الجغرافية الى العربية لاسباب خاصة بالاسلام لم يقدم البشر على وضع علم او فن الا لاسباب حملتهم على ذلك لانهم يساقون في شؤونهم واعمالهم بالحاجة ولذلك قالوا الحاجة ام الاختراع . واضطراهم الى الجغرافية لم يأت دفعة واحدة بل جاء بالتدريج فما واتسع عملاً بناموس الارتقاء . واهم الاسباب التي دعت الى نشوء هذا العلم احتياج الناس قديماً الى معرفة الطرق والبلاد والابعاد بينها اما للتجارة او للفتح فجمعوا معلومات التجار والفاتحين بتوالي الازمان وجعلوا يتداولونها ويتدارسونها للعمل بها حتى اتيج لها من رتب أبوابها وضبط اجزاءها وجعلها علماً واول من وضع أساس هذا العلم الفينيقيون لانهم أقدم تجار العالم وأكثرهم اسفاراً فقد رادوا شواطئ البحر الابيض واستعمروا بعضها منذ بضعة وثلاثين قرناً . وكانت مدينة صور مركز العالم التجاري في تلك الايام تجتمع حاصلات الامم ومصنوعاتهم فيها وتنفرد منها حتى الهند فقد كانوا يحملون منها العاج والطيب والقردة وغيرها . واسماء هذه السلع الباقية في الفينيقية والعبرانية تدل على اصلها الهندي . فاطلع الفينيقيون في اثناء اسفارهم على أحوال كثير من البلاد وعرفوا المسافات بينها واخبار اهلها

ولما حمل الاسكندر بجيوشه على العالم واخترق اسيا الى بلاد الهند برّاً وبحراً اطلع رجاله على احوال اواسط اسيا واعاليها فاشتغلوا في جمع الاخبار والافصاف لغرابتها . وفعل البطالسة نحو ذلك بشواطئ البحر الاحمر الى الحبشة . ثم الرومان وغيرهم فكانت تلك المعلومات تتجمع بتوالي الاجيال والناس يتناقلونها متقطعة متفرقة ثم توجهت الاذهان الى جمعها وترتيبها . وأول من فعل ذلك اراتستين اليوناني المتوفى سنة ١٩٦ ق م على عهد البطالسة فالف كتاباً دون فيه كل ما عرفه الفينيقيون او رواه قواد الاسكندر وغيرهم . وجاء بعده غيره وغيره كالحالة استرابون والجغرافي بلينيوس الى زمن بطليموس القلوذي في اواسط القرن الثاني للميلاد فالف كتاباً وافياً في الجغرافية عين فيه الاماكن بالحسابات الفلكية ورسم الخريط على الحسابات الرياضية وضبط الاقسام الجغرافية وحقق اماكنها على ما بالغ اليه العلم في عصره وذكر فيه عدد المدن في أيامه ٤٣٥٠ وسماها مدينة مدينة وعدد الجبال ٢٠٠ جبل ذكر ما في بطونها من المعادن وذكر ما على الارض من الخلائق وغير ذلك . فجاء الاسلام وكتاب بطليموس هو المعول عليه في تقويم البلدان . فاما أخذ العرب في ترجمة العلم في العصر العباسي كان هذا الكتاب في حلة ما نقلوه الى لسانهم وسموه جغرافية وترجموا كتابه الآخر في الفلك وسموه المجسطى وعلى هذين الكتابين بنوا أكثر ما كتبوه في علم الجغرافية

الجغرافية عند المسلمين

ولكن المسلمين بدأوا بوضع الجغرافية قبل اطلاعهم على كتاب بطليموس لثلاثة أسباب غير السبيين اللذين دعوا اليونان او غيرهم الى وضعها . لان العرب من أكثر الامم فتحاً وغزواً وقد تفرقوا بعد الاسلام في أربعة اقطار المسكونة . وهم خصوصاً أهل الحجاز كانوا تجاراً من زمن الجاهلية ثم اتسعت تجارتهم في الاسلام باتساع مملكتهم — اما الاسباب الثلاثة التي يمتاز بها العرب على سواهم : فالوها الحج لان المسلمين على اختلاف بلادهم واقليمهم يحجون الى مكة والحج فريضة على المسلم ولو كان في الهند او الصين او غيرها والقدم الى مكة يستلزم معرفة الطرق والمنازل . وثانيها الرحلة في طلب العلم فقد رأيت في ما تقدم ان المسلمين كانوا يرحلون في طلب العلم الى سائر الامصار الاسلامية والرحلة تستلزم معرفة الاماكن والمناطق . ولذلك كان أول ما ألفه العرب في الجغرافية من عند انفسهم ذكر الاماكن العربية والمنازل البدوية . وأول من ألف في ذلك رواة الادب والشعر كالاصمعي والسكوني ثم ألفوا في بلاد العرب كلها كما فعل الهمداني في

جزيرة العرب وابو الاشعث الكندي في جبال تهامة^(١) وغيره • والسبب الثالث ان العرب فتحوا العالم واختلّفوا في طرق الفتح باختلاف البلاد بين ان تكون قد فتحت صلحاً او عنوة او اماناً او قوة • ولكل من ذلك حكم في قسمة التي • واخذ الجزية وتناول الحراج واجتباء المقاطعات والمصالحات واثالة التسويات والاقطاعات لا يسع الفقهاء جهلها فضلاً عن الامراء • فأصبح علم ذلك عندهم من قبيل الدين ولا يتوصل اليه الا بالتاريخ والجغرافية

ولما ترجمت الجغرافية الى العربية واطلع العرب عليها أخذوا في تأليف الكتب على مثالا وتوسعوا في ذلك وزادوا عليه ما عرفوه من قبل • ولم يكتبوا بالنقل والسماع ولكنهم ركبوا البحار وجابوا الاقطار شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً وكتبوا ما شاهدوه او تحقّقوه وصحّحوا كثيراً من مغالط بطليموس • والظاهر ان علم الجغرافية عند العرب لم ينضج الا في القرن الرابع للهجرة قهافت الناس على التأليف فيه • مثل تهافتهم على تأليف التاريخ العام في ذلك القرن

وأول من دون الجغرافية منهم على نحو ما عند اليونان الشيخ ابو زيد البلخي ألف في أول القرن الرابع كتاباً في الجغرافية سماه « صور الاقاليم » ذكر فيه أمثلة منها بعد ان قسمها الى عشرين جزءاً ثم شرح كل مثال ولكنه اختصره وترك كثيراً من امهات المدن • وكان من معاصريه رجل من علماء الفرس اسمه ابوالحق الفارسي الاصطخري المعروف بالكرخي وكان محباً للاسفار فسافر وحقق بنفسه كثيراً من البلاد والبحار والمدن وعوّل في ما بقي على كتاب البلخي وألف كتاباً سماه « مسالك الممالك » وهو مطبوع ومنشور وأما كتاب البلخي فقد ضاع

وجرى الاصطخري في كتابه على تقسيم البلخي فجعل بلاد المسلمين عشرين قسماً بدأ بديار العرب وانتهى الى ما وراء النهر (تركستان) ووصف كل قسم على حدة وذكر البلاد وحرفها وتجارها وغير ذلك • ونسج نحو ذلك الزمن ابن حوقل فألف كتاب المسالك والممالك وقد سار بنفسه أيضاً لمشاهدة البلاد — قال في مقدمة كتابه « فبدأت سفري هذا من مدينة السلام يوم الخميس لسبع خلون من شهر رمضان سنة ٣٣١ هـ » فلما أتم رحلته كتب الكتاب المذكور ووضحه بالخارطات الكثيرة • لكل اقليم من اقاليم الاسلام خارطة او غير خارطة ورسم المدن والأنهر والجبال والبحار والجزر وغيرها

وتقسيمه كتقسيم الاصطخري والعبارة تكاد تكون واحدة في كثير من الاماكن
ثم ألف ابن الفقيه الهمداني والمقدسي والمسعودي وغيرهم • وقد رحل المسعودي
رحلات عديدة بلغ بها الى اقاصي الهند وذكر ما شاهده وخبره في كتبه الجغرافية
والتاريخية • وجميع هؤلاء من أهل القرن الرابع للهجرة وكتبهم مطبوعة الآن إلا
الحارطات فقد ضاعت ولم يبق غير ذكرها او الإشارة اليها

وظل الناس على هذه الكتب وقليل غيرها حتى نهض المسلمون لتأليف التاريخ
وترتيبه وجمعه على ما ينه في مكانه فنهض جماعة التوا في الجغرافية كما الفوا في التاريخ •
فوضعوا المجمعات الجغرافية على احرف العجاء واشهر من فعل ذلك ياقوت الحموي المتوفى
سنة ٦٢٦ هـ فقد ألف كتاباً ضخماً سماه معجم البلدان اتى فيه على وصف البلدان والجبال
والاودية والقيعان والقرى والمحال والاطوان والبحار والانهار والاصنام والابداد والاوثان
وضمن ذلك كثيراً من تراجم الناس في اثناء ذكره للبلاد التي ولدوا فيها او نسبوا اليها •
فهو قاموس جغرافي تاريخي ادبي • ولاي النداء صاحب حماه ايضاً كتاب في تقويم البلدان
ولغيره غيرها فضلاً عن الرحلات الكثيرة التي خدم العرب بها الجغرافية فنكتفي بالإشارة
اليها ونترك التفصيل لتاريخ آداب اللغة العربية

الآداب العربية الجاهلية

الخطابة بعد الاسلام

الخطابة والشعر من الفنون الجاهلية التي زادها الاسلام رونقاً وبلاغة وارتقاء ولكن
الخطابة سبقت الشعر في الارتقاء لحاجة المسلمين اليها في الفتوح والغزوات والعرب يومئذ
لا يزالون على بدوهم متأثر نفوسهم من التصورات الشعرية سواء سبكت في قالب الخطابة
او الشعر • والخطابة اقرب تناولاً ولم يرد في القرآن ما ينفر الناس منها كما ورد في الشعر
والشعر — فكما كان الشاعر في الجاهلية يقدم على الخطيب بفرط حاجتهم الى الشعر الذي
يقيد مآثرهم ويفخم شانهم ويهول على عدوهم ويهيب فرسانهم اصبح الخطيب في
الاسلام مقدماً على الشاعر لفرط حاجتهم الى الخطابة^(١) في استنهاض الهمم وجمع الاحزاب
وارهاب الاعداء

والفرق بين الخطابة في الجاهلية وفي الاسلام ان الاسلام زادها بلاغة وحكمة بما كان يتوخاه الخطباء ومن تحدى اسلوب القرآن واقتباس الآيات القرآنية وقد كان للقرآن نحو هذا التأثير في الشعراء أيضاً ولكن الخطابة اوسع مجالاً للاقتباس . فاخذ الخطباء يرصعون خطبهم بالآيات تمثلاً او اشارة او تهديداً حتى لقد يجعلون الخطبة يرمتها بمجموع آيات كما فعل مصعب بن الزبير لما قدم العراق واراد ان يحرض اهله على الطاعة لاختيه عبدالله فصعد المنبر وقال « بسم الله الرحمن الرحيم طسم تلك آيات الكتاب المبين نتلو عليك من نبي موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ان فرعون علا في الارض وجعل اهله اشيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح ابناءهم ويستحيي نساءهم انه كان من المفسدين (و اشار بيده نحو الشام) ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم ائمةً ونجعلهم الوارثين (و اشار بيده نحو الحجاز) ونمكن لهم في الارض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون (و اشار بيده نحو العراق) ^(١)

وزادت الخطابة بعد الاسلام قوة ووقعاً في النفوس بنهضة العرب للحروب وانتصارهم في اكثر مواقعها فازدادوا انفة وسمت نفوسهم فسمها ذوقهم في البلاغة وشذت قرائنهم بما شاهدوه من البلاد الجديدة والام الجديدة والالسنة الجديدة فبلغت الخطابة عندهم مبلغاً قلماً سبقهم فيه احد من الامم التي تقدمتهم بلاغةً وابقاعاً وتأثيراً حتى اليونان والرومان — لانكر ما كان من تبرز هاتين الامتين في الخطابة وما نبغ بين رجالهما من الخطباء الذين لا يشق لهم غبار كديموستينيس واشينس وهيريدس من خطباء اليونان وشيشرون ويوليوس قيصر وسالوستس ولوكيرتس من خطباء الرومان ولكن العرب لم ياتوا باقل مما اتى به اولئك بلاغةً ووقعاً . وربما كانت الخطابة في الاسلام اكثر عدداً وخطبهم اوفر وابلغ مع اعتبار الفرق بين الامتين لغةً وخلقاً وادباً

فقد ذكروا لديموستينيس اخطب خطباء اليونان ٦١ خطبة نصفها منسوب اليه خطأ وهذه خطب الامام علي تعد بالماث . واما في كثرة الخطباء فالعرب كانوا في صدر الاسلام من اكثر الامم خطباء لان خلفاءهم وامراءهم وقوادهم كان معظمهم من الخطباء حتى النساك والزهاد ^(٢) ولا غرابة في ذلك لان العرب اهل خيال وذوو نفوس حساسة وللبلاغة تأثير شديد في عواطفهم تقعدهم وثقيهم . وقد كان ذلك من جملة ما ساعد على نشر الاسلام بينهم — وكثيراً ما توقف فتح البلد او الحصن على خطاب يتلوه القائد على رجاله فتثور

ففيهم النخوة وتسري في عروقهم الحماسة فيستهلكون في الدفاع او الهجوم . وفي اخبار الفتوح ادلة كثيرة لا يساعد المقام على ايرادها . ونعرف قواداً انما ساعدوا على النصر قوة عارضتهم وتأثير خطبهم في نفوس رجالهم

الحجاج بن يوسف كان خطيباً بليغاً زادت الخطابة عظمة وسطوة — كان العراق متمرداً على عبد الملك فلما اعجزه امره ولَّى الحجاج عليه فدخل الحجاج الكوفة وصعد المنبر متلماً متنكباً قوسه واضعاً ايهاه على فمه فاحتقره الناس وكادوا يرمونه بالحصى كما كانوا يفعلون في الولاة قبله . فوقف وازاح لثامه عن وجهه ولفظ خطبته التي قال في مطلعها :

انا ابن جلا وطلاع الثنايا متى اضع العامة تعرفوني

الى ان قال

« اما والله لا احمل الشر بثقله واحذوه بفعله واجزيه بمثله . اما والله اني لأرى رؤوساً قد اينعت وحن قطافها وكأني ارى الدماء بين المائم والحقى هذا وان الشر فاشتدي زيم قد لفها الليل بسواق حطم

« ألا وان امير المؤمنين عبد الملك بن مروان كب كنياته فجمع عيدانها فوجدني اصلها عوداً فوجهني اليكم . فانكم اهل بغي وخلاف وشقاق ونفاق طالما سعيتم في الضلالة وسننتم سنن البغي . اما والله لالحوكم لحو العضا ولاعذبكم غضب السلمة ولاقرعنكم قرع المروة ولاضربنكم ضرب عزائب الابل . والله ما احلف الا فريت ولا اعد الا وفيت . . . الخ » (١)

فما فرغ من خطبته حتى هابوه واذعنوا له وكان شديد اعليهم وامره مشهور . ومع ذلك فقد كان اذا رقي المنبر وذكر احسانه الى اهل العراق وصفحه عنهم واساءتهم اليه يخيل للسامع انه صادق وان اهل العراق ظالموه (٢) ولذلك كان الامراء والخلفاء يخافون الخطباء كما يخافون الشعراء لما في اقوالهم من التأثير في تلك النفوس الحساسة

واذا رجعت الى حوادث الفتح او جمع الاحزاب او اخماد الثورات رأيت عجباً . واول ثورة كادت تهب في الاسلام لما بلغ اهل المدينة موت النبي فهاجوا حتى خاف الصحابة سوء العاقبة فقام ابو بكر خطيباً فقال « ايها الناس ان يكن محمد قد مات فان الله حي لم يموت . ومحمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل افان مات او قتل انقلبتم على اعقابكم . . . وقد علمت اني اكثركم قبيحاً في بر وجارية في بحر فاقروا اميركم وانا ضامن ان لم يتم الامر ان

أردوها عليكم»^(١) فهذه الكلمات القليلة كانت كافية لاختداد تلك الثورة وقس على ذلك خطبته في السقيفة وخطب من تولى بعده من الخلفاء الراشدين وخطبهم بلا خلاف علي بن أبي طالب وفي كتاب «منهج البلاغة» المنشور بين ظهرائنا أكبر شاهد على ذلك وإن لم تصح نسبة كل تلك الخطب إليه فأكثرها من أقواله وفيها امثلة من كل ضروب الخطب ومنها الدينية والادبية والعلمية والحاسية والفخرية

وكان أكثر الخلفاء يخطبون ولكنهم يتفاوتون في البلاغة وقوة العارضة على أن تلك القوة أخذت تضعف فيهم بعد الفراغ من الفتوح والانغماس في أسباب الترف والسكون إلى الرخاء والبذخ وتحولت من الحماسة إلى المواعظ ثم إلى الشكابة . وتداعى فن الخطابة بتداعي دولة العرب في الشرق فلما قامت دولتهم في الأندلس بعثوه وقربوا الخطباء كما قربوا الشعراء لكنهم فلما كانوا يستخدمونهم لانهض العهم أو إخماد الفتن لذهاب الحاجة إلى ذلك بذهاب البداوة والفراغ من التمتع . على أنهم كانوا إذا احتفلوا بتنصيب خليفة أو بالنصر على عدو أو باستقبال قادم كبير تقدمت الخطباء للترحيب به وأعظام شأنه أو شأن مقعده ووصف ما تهيأ له من توطيد الخلافة^(٢)

وأما الأمراء والقواد فكانوا يخطبون في الجند قبل الإغارة على العدو فيحرضونهم على الثبات . وكثيراً ما كانت الخطبة سبباً للنصر كخطبة خالد بن الوليد في وقعة اليرموك وخطبة المغيرة في وقعة القادسية وخطبة خالد بن المنذر في غزوة فارس وخطبة طارق بن زياد في فتح الأندلس ونحو ذلك مما لا تسعه المجلدات

ناهيك بشيوع الخطابة في القبائل على اختلاف اصقاعها كما كانت في الجاهلية . وكانت ترد الوفود إلى المدينة أو دمشق أو بغداد أو غيرها من عواصم المسلمين لتهنئة الخليفة أو استئثاره أو استجداده أو استجدائه . وكان شباب الكتاب إذا قدم الوفد حضروا لاستماع بلاغة خطبائهم لشيوع حب الخطابة فيهم^(٣) ولا قبّاس أساليب البلاغة منهم . وبعد من قبيل الخطابة عند العرب البلاغة في المكاتبات فقد كان الخلفاء وخصوصاً في صدر الإسلام إذا كتبوا أميراً في أمر تحدوا البلاغة كأنهم واقفون على منبر الخطابة والغالب في قوي العارضة في الخطابة أن يكون بليغاً في الكتابة . وقد مرّ الكلام على ذلك

(١) البيان ١٢٢ ج ١ والشهرستاني ١١ ج ١ (٢) نفع الطيب ١٧٥ ج ١

(٣) العقد الفريد ٢٦٧ ج ٢

الشعر بعد الاسلام

الشعر وبنو أمية

لما ظهر الاسلام ودهش العرب بأساليب القرآن وبالنبوة والوحي واشتغلوا بالغزو والفتح ونشر الاسلام انصرفت قرايحهم الشعرية الى الخطابة لحاجتهم اليها في استنهاض الهمم وتحريك الخواطر للجهد واستحثاث القلوب على العبادة • فانقضى عصر الراشدين والعرب في شاغل عن الشعر حتى اذا طمع بنو أمية في الخلافة مع كثرة المطالبين بها من أهل بيت النبي واحتاجوا الى من يؤيدهم استنفروا الناس لنصرتهم وابتاعوا الاحزاب بالاموال واستخدموهم بالدهاء فكان الشعر في جملة ما تساعدوا به على ذلك لما قدمناه من تأثيره في النفوس • وكان خلفاؤهم يبالغون في اكرام الشعراء اما ليرغبوا الناس في خلافتهم او ليقطعوا السننهم فيسكتوا عن هجوهم ولذلك عبروا عن اجازة الشاعر بقطع لسانه

فكان الخلفاء من بني أمية يرغبون الناس في الشعر ويميزونهم باعظم الجوائز على نسبة الجودة في أشعارهم ومكانهم في أوقالهم وكانوا يطالبون أولادهم بحفظ الاشعار والآثار • على أن تحريض الناس على تعليم أولادهم الشعر بدأ في أيام عمر كما تقدم • اما بنو أمية فقد بذلوا المال والسعي في هذا السبيل • قال معاوية مؤسس دولتهم « اجملوا الشعر اكبرهمكم وأكثر آدابكم »^(١) وكان يبالغ في اكرام الشعراء ولوهجوه واقتدى به خلفاؤه وامراؤه حتى الحجاج فانه كان يهتم بذلك ويسأل أدياء زمانه عن أشعر الشعراء ويبعث في تفاضلهم واذا امتنع عاينه ذلك مشافهة كاتب به أهل العلم كما كاتب قتيبة بن مسلم^(٢) • وكانوا اذا أمسك الشعراء عن أبواهم استوفدوهم واستزاروهم وغمروهم بالاموال والاكرام • ومن أكثرهم رغبة في الشعر عبد الملك بن مروان فكان الناس في أيامه حينما اجتمعوا يتناشدون الاشعار ويتدارسون اخبار الشعراء^(٣)

وقد يتبادر الى الاذهان انهم كانوا يفعلون ذلك رغبة في الادب وتنشيطاً لاهل لان الشعر سجية في العرب ودولة الامويين عربية بحتة • فلا يبعد ان يكون لذلك بدء في الامر ولكن الاغلب أنهم كانوا يفعلونه للاستعانة بأسنة الشعراء على مقاومة أهل البيت

(١) ابن خلكان ١٠٧ ج ٢ (٢) المزهر ٤٢٠ ج ١

(٣) لطائف المعارف ٧٠

لعلمهم ان الجمهور يعتقدون الحق في الخلافة لهؤلاء . وكثيراً ما كان الشعراء المغمورون بنعم بني أمية لا يتماثلون عن التصريح بذلك في بعض الاحوال فالفرزدق مثلاً امتدح بني أمية ونال جوائزهم وكان متشعباً في الباطن لبني هاشم والامويون يعلمون ذلك ويسترضونه . ومن جملة اخباره ان مروان بن الحكم وكان عاملاً لمعاوية على المدينة بلغه عن الفرزدق قولاً أوجب حدة فطلبه ففرّ الفرزدق الى البصرة . فقال الناس لمروان : أخطأت فيما فعلت فانك عرضت عرضك لشارع مضره فوجه وراءه رسولاً ومعه مائة دينار وراحلة خيراً من هجائه . ومع ذلك اتفق ان الخليفة هشام بن عبد الملك ذهب الى الحج وبينما هو في الطواف شاهد علي بن الحسين وانكره فسأل عنه وكان الفرزدق حاضراً فنظم قصيدته المشهورة في مدح أهل البيت ومطلعها :

هذا الذي تعرف البطحاء وطائته
والبيت يعرفه والحل والحرم

ومما يدل على ان بني أمية كانوا يقربون الشعراء لغرض عائد الى تأييد سلطانهم ان عمر بن عبد العزيز أقامهم واعدلهم لما أراد ان يتولى بالخلفاء الراشدين في التقوى والزهد منع الشعراء من بابه واعلن أنه لا يقبل الشعر ولا يقابل الشعراء فلم يطل حكمه وعاد خلفاؤه الى المباراة في اكرام الشعراء والاغداق عليهم بالاموال

الشعر وبني العباس

فلما انقضت دولة بني أمية وقامت دولة العباسيين عدل المنصور عن اكرام الشعراء وكانوا قد تعودوا الوفود على الخلفاء او نيل جوائزهم فاصبحوا اذا أتوا المنصور منعهم من الدخول عليه اياماً حتى تنفذ نفقاتهم ويملن الانتظار وحاجبه يرفع أمرهم اليه وهو يؤخرهم . ثم اذا أذن لهم بعد ذلك اشترط عليهم ان لا يمدحوه كما كانوا يمدحون بني أمية ^(٢) وكان بخيلاً عليهم فتغيرت قلوب الشعراء عليه فساعد ذلك على تباعد قلوب العرب عنه وميلهم الى العلويين فاستفحل امر محمد بن عبد الله بالمدينة وقامى المنصور امرراً العذاب في اخاء ثورته . فاصبح الخلفاء بعد المنصور يتجنبون اغضاب الشعراء ويبالغون في اكرامهم . وكان الشعراء يتقربون اليهم بهجو العلويين وخصوصاً الرشيد فقد كان مروان بن أبي حفصة يتقرب اليه بهجائهم ^(٣) وبعد ان كان الشعراء يسمون في أيام بني

(١) العقد الفريد ١١٥ ج ١ (٢) العقد الفريد ٩٢ ج ١

(٣) ابن خلكان ١٨٩ ج ٢

أمية السؤال ساهم وزيره جعفر الزوار • وبالغ المأمون في أكرامهم حتى كان يفضي عنهم اذا هجوه • ذكروا ان دعبلأ الشاعر الخزاعي هجا ابراهيم بن المهدي فرفع ابراهيم امره الى المأمون فقال له المأمون « لك أسوة بي فقد هجاني واحتلمته وقال في » :

ايسومني المأمون خطة جاهل او ما رأى بالامس رأس محمد
اني من القوم الذين سيوفهم قتلت اخاك وشرفك بمقعد
سادوا بذكرك بعد طول خوله واستنقذك من الحضيض الاوهد
فقال ابراهيم « زادك الله حلماً يا أمير المؤمنين »^(١)

وتزاحم الشعراء بباب المهدي والرشد والمأمون ونسب بشار بن برد العقيلي وابونواس وابو العتاهية وغيرهم

الشعر ودول العرب

والشعر كما قدمنا من العلوم العربية فلما تغلب الغنمير الاعجمي في دولة بني العباس وصارت الامور الى أيدي الاتراك ضعف أمر الشعراء • حتى اذا قامت دولة بني حمدان وهم عرب عاد الشعر الى رونقه وتزاحم الشعراء بباب سيف الدولة حتى قيل أنه لم يجتمع بباب خليفة من شيوخ الشعر ونجوم الدهر ما اجتمع ببابه • وكان هو أدبياً شاعراً فاشتهر في عصره أبو فراس والمتنبى والسري الرفاء والنايمي والبيضاء والواواء وغيرهم فلما انقضت تلك الدولة العربية عاد الشعر في الشرق الى الجمول وكان قد أئنع في دولة بني أمية بالاندلس وراجت سوقه واتسع نطاقه وكثرت فنونه على ما يجبي

اما دول المسلمين غير العرب فقد كان فيهم من يحب الشعر ويكرم الشعراء ولكن الغالب فيهم ان يفعل الملك منهم ذلك على سبيل القدوة او المباهاة وهو لا يفهم ما يقرأه من مدائح — وما يضحك من هذا القبيل ان الشعراء وفدوا على يوسف بن تاشفين وهو من البرابرة اللمتونية بالمغرب ونظموا القصائد في مدحه بواسطة المعتد بن عباد • فلما انشدوه قصائدهم قال له المعتد « ايعلم امير المسلمين ما قالوه » قال « لا اعلم ولكنهم يطلبون الخير » ولما انصرف المعتد الى ملكه كتب الى ابن تاشفين رسالة قال في جملتها :

بتم وبناً فما ابتلت جواحننا شوقاً اليكم ولا جئت ما قينا
حالت لفقدكم ايامنا فعدت سوداً وكانت بكم ييضاً ليالينا

فلما قرىء عليه هذان البيتان قال للقارىء « يطلب منا جوازي سوداً وبيضاً » قال

« لا يا مولانا ما اراد الآ أن ليله كان بقرب امير المسلمين نهراً لان ليالي السرور ييض فعاد نهاره ببعده ليلاً لان ليالي الحزن سود » فقال « والله جيد اكتب له في جوابه ان دموعنا تجري عليه وروؤسنا توجعنا من بعده »^(١)

جمع الشعر ورواته

لما اخذ المسلمون في تفسير القرآن واحناجوا الى تحقيق معاني الالفاظ كان الشعر في جملة ما رجعوا اليه في تحقيقها فاضطروا الى جمعه بالاخذ عن رواته . شرعوا في ذلك من القرن الاول للهجرة . واكثر الناس اشتغالا في جمع الشعر اهل العراق مما يلي بلاد العرب اي في البصرة والكوفة وكان اهل الكوفة اجمع للشعر من اهل البصرة^(٢) . واول من جمع اشعار العرب وساق احاديثها حماد الراوية الديلمي الكوفي المتوفى سنة ١٥٥ هـ^(٣) وخلف بن حيان الاحمر الفرغاني مولى ابي بردة^(٤) وابو عمرو بن العلاء وابو عبيدة والاصمعي وغيرهم واكثرهم من رواة الادب واللغة وقد مر الكلام على ذلك في بابه

وبلغ ما جمع من شعر الجاهلية عشرات الالوف من القوائد ما لم يسمع له مثيل في امة من الامم كما تقدم . على ان بعض الرواة كانوا ينظمون الشعر وينسبونه الى العرب لاسباب دعتهم الى ذلك لكنهم لم يفعلوا في هذا النحو ما يتجاوز الايات القليلة . قال خلف الاحمر « اتيت الكوفة لاكتب عنهم الشعر فبخلوا عليّ به فكنت اعطيهم المنحول واخذ الصحيح حتى مرضت فقلت لهم ويلكم انا نائب الى الله هذا الشعر لي فلم يقبلوا مني فبقي منسوباً الى العرب لهذا السبب »^(٥)

وقال ابو عمرو بن العلاء « ما زدت في شعر العرب الا بيتاً واحداً وهو :

وانكرتني وما كان الذي نكرت من الحوادث الا الشيب والصلعا

ادخلته في جملة ايات الاعشى » . وفعل حماد ايضاً نحو ذلك^(٦) على ان العرب ما لبثوا ان اخذوا في تمخيص الروايات بالاسانيد بعد ان تعودوا ذلك في رواية الحديث

ومن عادة العرب في رواية الشعر انهم كانوا من ايام الجاهلية اذا نبغ الشاعر صحبه رجل يروي اشعاره ويتلوها او يروي له اشعار غيره للشاهد او نحوه . ويغلب في الرواية ان يكون مرشحاً للشاعرية كأنه تلميذ يتدرب على يد استاذه يأخذ عنه . وكانت عمدتهم في الجاهلية على الحفظ لانهم لم يكونوا يكتبون فكان كثير عزة راوية جميل بثينة وجميل راوية

(١) نفع الطيب ٧٨١ ج ٢ (٢) المزهر ٢٠٦ ج ٢ (٣) ابن خلكان ٦٤ ج ١

(٤) طبقات الادباء ٦٩ (٥) ابن خلكان ٢٠٨ ج ١ (٦) ابن خلكان ٢٨٧ ج ١

هذبة بن خشرم وهذبة كان راوية الخطيئة والخطيئة راوية زهير وابنه^(١) وكان الراوية في الجاهلية واوائل الاسلام يروي للشاعر الواحد ويصحبهُ و يشد له ويعجب به اعجاب التلميذ باستاذِه و يناضل عنه و يفضلُه على سواه . فلما احتاج العرب الى جمع الشعر كثر رواته او جماعهُ وكلُّ منهم يحمده و يرويُه لغرض — فالتخويون كانوا يعتنون بحفظ الاشعار التي يستشهد بها في الاعراب والشعراء كانوا يروون كل شعر فيه لفظ غريب او معنى صعب يحتاج الى الاستخراج والاخباريون كانوا يحمعون من الشعر ما يجدون فيه الشاهد والمثل . وكان فيهم من يروي اشعار المجانين والصوص الاعراب والارجاز الاعرابية القصار واشعار اليهود — على ان هؤلاء لم يكونوا يعدون من الرواة . وتفرّد جماعة بجمع كل انواع الشعر وهم الرواة الذين ذكرناهم ومنهم حماد وخلف وغيرها . وكانت لهم في الحفظ نوادر غريبة لتعويد ذاكرتهم على ذلك مذ اخذ الناس في ذلك العصر بتعويد حواظهم على حفظ القرآن والحديث لتجنب الكتابة الاسباب التي قدمناها . فكان فيهم من يحفظ بضعة وعشرين الف قصيدة يرويها باسانيدها ومعاني الفاظها كما تقدم . وكان للشعراء عناية خصوصية في حفظ اشعار العرب لاكتساب ملكة العرب فيها . لانهم كانوا يعتقدون ان من يحفظ شعر شاعر فحل يشعر مثله . او للجواب على ما قد يعرض عليهم من الاسئلة اذ كان للخلفاء والامراء في الدولة الاموية وصدر الدولة العباسية عناية كبيرة في استطلاع اشعار العرب

طبقات الشعراء

العرب مطبوعون على الشعر ولكنه يختلف فيهم معنى واسلوباً باختلاف العصور والاقاليم . فالبدوي الذي كان ينظم القصيدة وهو يسوق بعيره في عرض البداء لا يرى حوله الا رمالاً او اطلاقاً إذا لدغته الشمس او جثّه الظلام اوى الى بيت من الشعر او الور انيسه فيه البعير والفرس وطعامه اللبن والتمر وضجيج السيف والرمح يتوسد على حذر من عدوّ يبعثه او حشرة تلسعه واذا واعد حبيبه فمروعهما الرقعات او العقيق فيلتقيان على اكمة او في واد . يعبد آلهة من الحجارة او الاخشاب او يصنعها من التمر واذا جاع اكلها — فالبدوي الذي هذه حاله لا يكون خياله الشعري مثل خيال رجل نشأ بين القصور السماء والحداثى الغناء ولبس الحرير وتوسد الديباج وتعود ابهة الدولة وجلال الملك وعاشر الخلفاء والوزراء وعانى اسباب التأنق وانغمس في الترف والبذخ — فان

الشعر تختلف طبقته باختلاف هذه الاحوال . ولذلك كان الشعر الجاهلي اقرب الى الخشونة والمتانة مع خلوه من زخرف الكلام واساليب الكناية والمجاز

فلما جاء القرآن وشاع حفظه وحفظ الاحاديث وعني الناس بجمع الآداب والامثال واستظهار احاسنها واحسن الشعر نهضت طباع الناس وارتقت اذواقهم في البلاغة ورتخت ملكاتهم واتسعت تصوراتهم في الشعر والخطابة . فكان كلامهم في نظمهم ونثرهم اسمى رتبة واصفى رونقا واقتبسوا من الفرس اساليب الاطناب . ولذلك كان الشعراء الاسلاميون اعلى طبقة في البلاغة واذواقها من شعراء الجاهلية — فشرح حسان بن ثابت وعمر بن ابي ربيعة والخطيئة وجريز والفرزدق ونصيب وذو الرمة والاحوص ارفع طبقة في البلاغة والتفنن في اساليب التعبير من شعر النابغة وعنترة وابن كلثوم وزهير وعلقمة وطرفة ^(١) كما كان الخطباء الاسلاميون احسن ديباجة وابلغ عبارة من خطباء الجاهلية

فالجاهليون طبقة أولى تليهم طبقة الاسلاميين الى اواخر دولة بني امية وهم المخضرمون ثم طبقة ثالثة في الدولة العباسية هي طبقة المولدين تليها طبقة المحدثين . ولا يسعنا تعيين حد فاصل بين كل طبقة وما يليها لان كثيرين من الشعراء ادركوا اواخر احدى هذه الطبقات واولئ التي تليها . فن شعراء الجاهلية من ادرك الاسلام ومن المخضرمين من ادرك زمن المولدين وقس على ذلك

وانما تقسم الشعراء الى هذه الطبقات تقسيماً اجمالياً . فالطبقة الاولى شعراء الجاهلية والمراد بهم من كان شعره جاهلياً او نظم اكثره قبل الاسلام . ومزية الشعر الجاهلي البساطة والخشونة فاذا وصفوا عاطفة مثلوها بطبيعتها او وصفوا اسداً او بيتاً او ظبياً لم يكن في عبارتهم تكلف ولا تعمل او مبالغة . واشهر اهل هذه الطبقة اصحاب المعلقة

والطبقة الثانية وهي المخضرمون تشبه الاولى من حيث بقاء أهلها على البداوة في عهد الامويين ولكنها اسمى منها في البلاغة للاسباب التي قدمناها وعليها مسحة من الحضارة ومن أشهر الشعراء المخضرمين حسان بن ثابت وكعب بن زهير وجريز والخطيئة والفرزدق والطبقة الثالثة المولدون وشعراؤها من معاصري الرشيد والمأمون في عصر الزهو العباسي عصر الترف والذخ والتأنق والرخاء فرقت طباعهم وارتقت اذواقهم بالمعاشرة والمخالطة فظهر ذلك في اشعارهم فعمدوا الى وصف الخمر ومجالس الانس وحداثق القصور ونحو ذلك . فشعر المولدين يمتاز عن الطبقتين السابقتين بالركة والحلاعة واشهر

المولدين بشار العقيلي وابو العتاهية وابو نواس وأبو تمام والبحري
 واما الطبقة الرابعة فزبد بها الشعراء الذين نبغوا بعد انتشار الفلسفة اليونانية
 وعلوم اليونان وشيوع علم الكلام . وفي شعر أهل هذه الطبقة صبغة فلسفية حكيمية
 جدلية كشعر المتنبي والمعري والشريف الرضي والصفى الحلي
 الشعراء في الاسلام واشعارهم

تكاثر الشعراء في العصر الاسلامي فوق تكاثرهم في العصر الجاهلي لرواج سوق
 الشعر في القرون الاولى . على ان احصاءهم بالضبط غير متيسر لضياح أكثر اخبارهم
 لكننا نستدل من بعض النصوص ان عددهم كان عظيماً جداً . فقد ذكر ابن خلكان
 « ان هرون بن علي المنجم البغدادي صنف كتاب البارح في أخبار الشعراء المولدين
 وجمع فيه ١٦١ شاعراً وافتتحه بذكر بشار العقيلي وختمه بمحمد بن عبد الملك بن
 صالح » والفترة بينهما قصيرة . وذكر المؤلف انه اقتصر على خيرة الشعراء ونخبهم
 فقس على ذلك الشعراء المحضرين والمحدثين من أهل الطبقة الرابعة ناهيك بشعراء
 الاندلس فانهم يعدون بالآلاف

اما مقدار ما نظمه اولئك الشعراء من القصائد والدواوين فما لا يحصيه عدٌ وقد فقد
 معظمه في الفتن وغيرها في العصور الاسلامية الوسطى فنكتفي منها بما ذكره صاحب
 كشف الظنون فانه ذكر نحو ستماية ديوان لستماية شاعر من المشاهير اورد اسماءهم والقابهم
 وسني وفاتهم وهم من أهل العراق والشام وفارس وخراسان ومصر والاندلس وغيرها .
 ويختلف حجم هذه الدواوين ومقدار صفحاتها من ألفي صفحة الى مئة وما تحتها وتقدير
 الورقة في اصطلاحهم صفحتان كل صفحة عشرون سطراً . فدويان بشار العقيلي مثلاً ألف
 ورقة في ألفي صفحة اي ٤٠,٠٠٠ سطراً وبيت ٠ وابن هرمة ٥٠٠ ورقة في ٢٠,٠٠٠ بيت
 وشعر ابى نواس في نحو ألف ورقة ومسلم بن الوليد ٢٠٠ ورقة وقس على ذلك^(١)

واذا اعتبرت الدواوين التي ضاعت وفات صاحب كشف الظنون ذكرها والشعراء
 الذين لم تجمع اشعارهم ولم يكن لهم دواوين . زاد استغرابك كثرة الشعر العربي وتعداد
 شعرائه مما لا تجد له مثيلاً في لغة من لغات العالم القديم والحديث

عروض الشعر

المشهور ان الخليل بن احمد المتوفى سنة ١٧٠ هـ اول من وضع عروض الشعر العربي اي

استنبطه واخرجه الى الوجود وحصر اقسامه في خمس دوائر يستخرج منها خمسة عشر مجرّاً ثم زاد فيه الاخنش مجرّاً واحداً سماه الخلب^(١). ولكن الغالب ان بحور الشعر كانت معروفة من قبل ولولا ذلك لم يستطع العرب ضبط منظوماتهم على ما نراه في اشعارهم . ويؤيد ذلك قول الوليد بن المغيرة منكراً قول من قال ان القرآن شعر « لقد عرضته على اقراء الشعر وهجزه ورجزه وكذا وكذا فلم اره يشبه شيئاً من ذلك »^(٢) فكيف يقول هذا وهو لا يعرف بحور الشعر . فالظاهر ان الخليل اول من جعل العروض علماً ورتبه هذا الترتيب وزاد فيه انواعاً من الشعر ليست من اوزان العرب^(٣) وربما زادوا فيه بعد ذلك شيئاً من بحور اليونان او اساليهم لان بعض الذين كانت لهم عناية باللغة اليونانية في ذلك العصر كانوا يقابلون بين شعرها وشعر العرب . ولابن الميثم في اوائل القرن الخامس للهجرة رسالة في صناعة الشعر ممتزجة من اليوناني والعربي^(٤) لم تقف عليها . على ان ابن شرشير الشاعر المعروف بالنشائي الاكبر المتوفى سنة ٢٩٣ هـ كان قد نظر في قواعد العروض وادخل عليها شيئاً ومثّلها بغير امثلة الخليل^(٥)

ولا مشاحة في ان عروض الشعر ارتقت وتفرعت بتوالي القرون شأن كل ما هو من قبيل الاحياء فنولد في النظم ضروب من القصائد كالاصمعيات والشعر البدوي والخوراني وغيرها اما الاندلس فقد كان للشعر فيها تاريخ خاص لرواجه عندهم بعد اشتغال الامم الاخرى عنه فانهم هذبوا مناحيه وفنونه حتى بلغ التتميق فيه الغاية واستحدثوا الموشح ونظموا به الموشحات الاندلسية المشهورة استنبطه مقدم بن معافر الفريري الاندلسي في اواخر القرن الثالث للهجرة^(٦) ولما شاع التوشيح عندهم واخذ به الجمهور لسلاسته وتتميق كلامه نسجت العامة من اهل الامصار على منواله ونظموا في طريقته بلغتهم الحضرية من غير ان يلتزموا فيها اعراباً واستحدثوا فناً سموه « الزجل » شهره ابو بكر بن قرمان القرطبي ويعرف بامام الزجالين ثم استحدث اهل الامصار في المغرب فناً آخر من الشعر في اعاريض مزدوجة نظموا بلغتهم الحضرية وسموه « عروض البلد » استنبطه ابن عمير الاندلسي . وشاع هذا الفن بناس فنوعوه اضافاً سموه المزدوج والكارى والمعبة والغزل وغيرها كما شاع الان انواع الزجل المصري في مصر والقريظ اللبناني والمعنى في الشام

(١) ابن خلكان ١٧٢ ج ١ (٢) المزهري ١٧٢ ج ٢ (٣) المزهري ٢٠٢ ج ٢

(٤) طبقات الاطباء ٩٤ ج ٢ (٥) ابن خلكان ٢٦٣ ج ١

(٦) ابن خلدون ٥١٨ ج ١ وابن الاثير ٢٨ ج ٨

وكان لعامة بغداد فنٌّ من الشعر يسمونه « المواليا » تحميه فنون كثيرة ذكروا منها « القوما » و « كان وكان »^(١) ومنه مفرد ومنه في بيتين وغير ذلك . ثم انتقل الى الامصار وتفننوا فيه وهو شائع الآن في سوريا والعراق ومصر
الشعر والدولة

بيننا في كلامنا عن الشعر في الجاهلية ما كان له من التأثير في نفوس العرب لشدة حساستها وسرعة تاثرها . فلما صار العرب دولة وارنقت عقولهم زاد شعورهم رقة فازدادوا حساسة وتضاعف تاثير الشعر فيهم . واتسعت دائرة ذلك التأثير باتساع دولة المسلمين واستبدادهم في احكامهم وخصوصاً في الدول العربية لاشتغال الخلفاء انفسهم في الشعر واهتمامهم بالشعراء واشعارهم . فقد رأيت ما كان من احفاء بني امية بالشعراء واستقدامهم اليهم وظلَّ ذلك في صدر الدولة العباسية وفي كل دولة عربية . فاذا وفد الشاعر على الخليفة او الامير استأذن في الدخول عليه فاذا دخل انشد قصيدته جهاراً والخليفة وارباب مجلسه يسمعون^(٢) و يترغمون فيأمر الخليفة او الامير بالجائزة وقد تتجاوز مئة الف درهم الى الف الف^(٣) وقد يرتب له الرواتب الشهرية ويخلع عليه الخلع ويقلده الوظائف^(٤) . ومن اكثر الخلفاء سخاءً على الشعراء المهدي والرشيد العباسيان والناصر والمنصور الاندلسيان . ومن استخى الامراء خالد القسري امير العراقيين في زمن الامويين وسيف الدولة بن حمدان

على ان الخلفاء والامراء عموماً كانوا يبدلون الاموال للشعراء الا نادراً . وكانوا يعينون يوماً كل اسبوع او كل شهر او سنة يستقبلون فيه الشعراء لا يدخلون فيه سواهم^(٥) كأنهم يريدون التفرغ للنظر في الشعر وآدابه . وكان الشعراء يتناظرون ويتنافسون في ذلك المجلس ولا يخفى ما يترتب على تلك المناظرة من شحذ الازهان وانهاض العزائم . وكان الاندلسيون اكثر عناية في ذلك من سواهم — كان للعضد عباد المتوفى سنة ٥٤٦ هـ دار خاصة بالشعراء يجلسون فيها على الرحب والسعة فاذا آن يوم الشعراء وهو يوم الاثنين من كل اسبوع يدخلون عليه ولا يدخل عليه سواهم . وكان للشعراء مراتب عندهم ولهم رئيس يوليه السلطان^(٦) وسجل خاص يقيدون فيه اسماءهم كأنهم يعدونهم من جملة موظفي الحكومة^(٧) وكان امراء

(١) ابن خلدون ٥٣٠ ج ١ (٢) ابن خلكان ٧٢ ج ١

(٣) ابن خلكان ١٩٨ ج ١ (٤) نفح الطيب ٧٢٩ ج ٢

(٥) الاغانى ٤٤ ج ٩ وابن خلكان ١٦٩ ج ١ (٦) نفح الطيب ١١٩ ج ٢

(٧) نفح الطيب ١٩٥ ج ٢

الاندلس اذا عاد احدهم من فتح جلس للناس فيقرأ القراء ثم يقوم الشعراء فينشدون .
ونظنهم كانوا بالغون في اكرام الشعراء اقتداءً بخلفاء بغداد كما اقتدوا بهم في كثير من
آدابهم ونظاماتهم وسائر احوالهم

الشعر والخلفاء والامراء

ومن اسباب رواج صناعة الشعر في الدول العربية ان الخلفاء انفسهم كانوا ينظّمون
الشعر ويبحثون فيه ول بعضهم القصائد والمقاطيع الحسنة . ومن اشهر الخلفاء الشعراء يزيد
ابن معاوية فقد جمعوا شعره في ثلاث كراريس ذكر ابن خلكان انه قرأها وحفظ ابياتها
اشدة غرامه بها ^(١) ولا غرابة في ذلك لان يزيداً نشأ في البادية ووالدته ميسون بنت
بجذل الكلبية التي لم تعجبها قصور معاوية في الشام فحنت الى البادية وأنشدت الايات
المشهورة التي مطلعها :

ليت تحنق الارواح فيه احب اليّ من قصر منيف

وليس عباءة ونقر عيني احب اليّ من لبس الشفوف

فسمعها معاوية فطلقها فسارت الى اهلها في نجد وهي حامل بيزيد فولدته بالبادية
فارضعته سنتين ^(٢) هناك . ومن الخلفاء الشعراء ايضاً الوليد بن يزيد بن عبد الملك وهرون
الرشيد . واكثر الخلفاء العباسيين كانوا ينظّمون الشعر واشعرهم بلا استثناء عبدالله بن المعتز
المتوفى سنة ٢٩٦ هـ ولم يتول الخلافة الاً يوماً وليلة وكان من رجال العلم وله ديوان شعر ^(٣)
قد طبع ونشر بمصر . وآخر من نظم الشعر منهم الرافعي بالله المتوفى سنة ٣٢٩ هـ فانه آخر
خليفة دون له شعر وآخر خليفة خطب على منبر وجالس الندماء ووصل اليه العلماء ^(٤)

واما خلفاء الاندلس وامراؤهم فقد نظم الشعر منهم عبد الرحمن الاوسط والمستعين بالله .
وقد الف الصولي كتاباً مستقلاً في اشعار خلفاء بني العباس فحسدهم خلفاء بني امية
بالاندلس فكان هم الخليفة الحكم الاندلسي من يؤلف له كتاباً في شعراء خلفاء بني امية
مثل كتاب الصولي في بني العباس ^(٥)

واذا تدبرت ما تقدم رأيت اكثر الخلفاء والامراء عناية في الشعر اكثرهم اقداراً على
نظمه لانهم كانوا يقدرّون الشعر قدره — وذلك شأن العلم في الدول الماطقة فانما يروج فيها
من الصنائع والفنون والعلوم والآداب ما كان للملوك او الامراء رغبة فيه . فالوليد بن يزيد

(١) ابن خلكان ٥٠٨ ج ١ (٢) الدميري ٢١٨ ج ٢ (٣) ابن خلكان ٢٥٨ ج ١

(٤) الفخري ٢٥٢ (٥) فتح الطيب ١٠٠٣ ج ٢

ابن عبد الملك اعطى يزيد بن منبه على قصيدة مدحه بها عن كل بيت الف درهم^(١) وهو اول خليفة عدل الشعر واعطى على البيت الف درهم . ويقال نحو ذلك في سائر خلفاء الشعراء وكذلك الامراء فان سيف الدولة لم يبرج الشعر في عصره الا لانه كان هو نفسه شاعراً^(٢) فكان الغرض من تقرب الشعراء في اول دولة بني امية سياسياً ثم صار ادبياً بندفع الخلفاء والامراء اليه تلذذاً بالشعر وادابه . ولذلك كانوا يجالسون الشعراء ويقترحون عليهم نظم القصائد او الابيات او يستقدمونهم للسؤال عن بيت اغلق عليهم فهمه او نسوا بعضه وقد يكون بينهم وبين الشاعر بعد شائع . فقد بعث هشام بن عبد الملك بدمشق الى اميره على العراق يوسف بن عمر الثقفي ان يوجه اليه حماداً الراوية ويدفع له ٥٠٠ دينار وحملاً مهرباً فسار حماد الى الشام في ١٢ ليلة ولما وصلها وسأل عن سبب استقدمه فقال له هشام « خطر بيالي بيت لا اعرف فائله وهو :

دعوا بالصبح يوماً فجاءت قينة فيف يمينها ابريق

فقال حماد « بقوله عدي بن زيد العبادي » وانشدته باقي القصيدة^(٣) . وكثيراً ما كانوا يفعلون ذلك وهم في مجلس من مجالس الطرب لا يجوزه الشرع فان يزيد بن عبد الملك صاحب حجابة التي مات في سبيل تهتكه بها كانت تغنيه ذات ليلة وتسقيه فطرب ثم غنته : اذا رمت عنها ساوة قال شافع من الحسن ميعاد السلو المقابر فساءلها عن قائل هذا البيت فقالت لا ادري فبعث الى الزهري يستخبره وكان قد ذهب من الليل شطره فجاء وهو يرتعد خوفاً فلما علم السبب سري عنه^(٤) على ان الغالب في مجالسة الشعراء ان تكون لغرض ادبي كوصف منظر او اداة كما فعل الهادي اذ استقدم الشعراء اليه واقترح عليهم ان يصفوا سيفاً اهداه اليه المهدي وهو سيف عمرو بن معدى كرب . فوضع السيف بين يديه وقال للشعراء صفوه فقال الجائزة ابن يامين المصري^(٥)

وكان الرشيد من اكثر الخلفاء بحثاً في الشعر وقائليه فقد سأل اهل مجلسه مرة عن صدر هذا البيت « ومن يسأل الصعلوك ابن مذهب » فلم يعرفه احد وكان الاصمعي مريضاً لا يقدر على الجيء فارسل اليه اسحق الموصلي وبعث معه الف دينار لنفقته فجاء الجواب ان البيت من قصيدة لابي الشناسل النهشلي وهذا صدره :

(١) ابن الاثير ١٣٧ ج ٥ (٢) ابن خلكان ٣٦٥ ج ١ (٣) ابن خلكان ١٦٥ ج ١

(٤) حلبة النكيت ٦٠ (٥) المسعودي ١٨٧ ج ٢

وسائلة ابن الرحيل وسائل ومن يسأل الصعلوك اين مذهب (١)
وكثيراً ما كان الرشيد يعقد المجالس للبحث في معنى بيت . وقد سأل اهل مجلسه يوماً
عن معنى هذا البيت :

قتلوا ابن عفان الخليفة محرمًا ورعًا فلم ارَ مثله مخذولا
وكان في المجلس الكسائي والاصمعي فطال الجدل بينهما والخليفة يسمع (٢) واعطى الرشيد
الفضل خاتماً قيمته ١,٦٠٠ دينار مكافأة على احسن بيت قالته العرب في الذئب (٣)
والمأمون ولى ابن الجهم ولاية من اجل بيت طلبه منه واشترط عليه ذلك (٤) . وقس على
ذلك ما كان يجري من هذا القبيل في مجالس سيف الدولة وغيره من محبي الشعر
تأثير الشعر في الدولة

ويقال بالاجمال ان الشعر كان عند العرب كل آدابهم يتناشدونه ويتسامرون به
ويتذاكرون فيه ولم يكن ذلك قاصراً على الخلفاء او الامراء او الادباء ولكنه كان عاماً
في الرجال والنساء . وكانوا لكثرة ما يحفظونه منه يرمزون باسم الشاعر الى بيت من ابياته
مشهور بمعنى ويريدون ذلك المعنى كما اتفق لرجل كان قاعداً على جسر بغداد فرأى امرأة
بارعة في الجمال قادمة من جهة الرصافة فاستقبلها شاب فقال « رحم الله علي بن الجهم »
فقال له المرأة « رحم الله ابا العلاء المعري » وما وقفنا بل سارا مشرقاً ومغرباً — قال
الرجل « فبعت المرأة وقلت لها والله ان لم نقولي لي ما أراد وما أردت لا فضحك »
قالت اراد بعلي بن الجهم قوله :

عيون المها بين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث ادري ولا ادري
واردتُ بآبي العلاء قوله :

فيادارها بالخيف ان مزارها قريب ولكن دون ذلك احوال (٥)
فلا غرو بعد ما تقدم ان رأيت للشعر تأثيراً شديداً في نفوس كبار القوم حتى يترتب
على انشاد البيت الواحد إقصاد نار الحرب او قتل جماعة او انقاذهم من القتل
ومن أمثلة ذلك ان ابا العباس السفاح اول خلفاء بني العباس لما استوثق له الامر
بالخلافة تتبع بقايا بني امية ورجلهم ووضع السيف فيهم . ولكن جماعة من كبارهم كانوا
قد استأمنوا وصاروا يحضرون مجلس السفاح فاتفق مرة ان احدهم سليمان بن هشام

(١) المزهر ٨٣ ج ١ (٢) المزهر ٢٧٨ ج ١ (٣) النجوم الزاهرة ٤٦٢ ج ١

(٤) الاغانى ١٦ ج ١٣ (٥) حلبة الكميت ٩٥

ابن عبد الملك كان في مجلس السفاح وقد اكرمه فدخل سديف بن ميمون الشاعر وأنشد :
لا يغرنك ماترى من رجال ان تحت الضلوع داء دويا
فضع السيف وارفع السوط حتى لا ترى فوق ظهرها أمويا
فأنفت سليمان وقال قتلتني ياشيخ ثم أخذ سليمان قتل • ودخل على السفاح
شاعر آخر وقد قدم الطعام وعنده نحو سبعين رجلاً من بني أمية فأنشده:
أصبح الملك ثابت الأساس بالبهليل من بني العباس
ثم ذكر مظالم بني أمية الى ان قال :

واذكر وامصرع الحسين وزيد وقتيلاً بجانب المهراس
والقتيل الذي بحر ان اضحى ناويا بين غربة وتساس

فامر بهم السفاح فضربوا بالسيوف حتى قتلوا وبسط النطوع عليهم وجلس فوقهم
فاكل الطعام وهو يسمع أنين بعضهم حتى ماتوا جميعاً^(١)

ويقال نحو ذلك في القصيدة التي هاجت الرشيد لمحاربة نفقور ملك الروم ومطلعها :
غدر الذي اعطاك نفقور فعليه دائرة البوار تدور^(٢)

وكثيراً ما كان ينجو الرجل من القتل بببت يعجب به الخليفة فيخلى سبيله وحكاية
مالك بن طوق مع الرشيد مشهورة • فانه بعد ان استوجب القتل وركع على النطع قال
القصيدة التي مطلعها :

أرى الموت بين النطع والسيف كامناً يلاحظني من حيث ما اتلفت
الى ان قال :

وما بي من خوف اموت واتني لأعلم ان الموت شيء موقت
ولكن خوفاً صيبة قد تركتهم واكبادهم من حسرة تفتت
كاني اراهم حين أننى اليهم وقد خمشوا تلك الوجوه وصوتوا
فان عشت عاشوا آمنين بقبطة اذود الردى عنهم وان مت موتوا
فكم قاتل لا يبعد الله داره وآخر جذلان يسرو ويشمت

فبكى الرشيد وقال «لقد سكت على همة وتكلمت على علم وحكمة وقد عفوت لك عن
الصبوة ووهبتك للصية فارجع الى ولدك ولا تعاود» فقال «سمماً وطاعة» وانصرف^(٣)

(١) الفخري ١٣٤ (٢) المسعودي ١٤٢ ج ١

(٣) فوات الوفيات ١٤٣ ج ٢

وكم من قائد رجيع عن الهزيمة بيت تذكره فتحمس — قال معاوية لما رغب الناس في الشعر « فان فيه ما أثر اسلافكم ومواضع ارشادكم فلقد رأيته يوم الهزيمة وقد عزمت على الفرار فما ردني الا قول ابن الاطنابة الانصاري :

ابت لي عفتي وابي بسلافي واخذي الحمد بالثن الربيع ،^(١)
وقس على ذلك كثيراً من امثال هذه الحوادث في الجاهلية والاسلام

العلوم الدخيلة

فرغنا من الكلام في ما اقتضاه التمدن الاسلامي من العلوم الاسلامية وفي الاسباب التي دعت الى نشوئها وفي الاداب العربية الجاهلية وما بلغت اليه في الاسلام . ونحن مقدمون في ما يلي الى الكلام في العلوم الدخيلة التي نقلها المسلمون الى العربية وزيد بها العلوم القديمة التي كانت شائعة عند ظهور الاسلام في الممالك التي عرفها المسلمون . وهي عبارة عن خلاصة ابحاث رجال العلم والفلسفة والادب في ممالك التمدن القديم على اختلاف الامم والدول والاماكن والاصقاع في القرون المتوالية من اقدم ازمته التاريخ الى ايامهم وفيها زبدة علوم الاشوريين والبابليين والفنيين والمصريين والهنود والفرس واليونان والرومان . ولا يراد بذلك ان العرب اخذوا علم كل أمة عن اهلها رأساً ولكنهم جاؤا والعلوم قد تحلبت بتوالي الادهار وتفاعل العناصر واجتمع معظمها لليونان فبؤبؤها وورقوها وظهرت النصرانية فاثرت فيها وبقي بعضها في بقايا الدول القديمة كالفرس والكلدان والهنود وغيرهم ممن دانوا للمسلمين وانتظموا في خدمتهم . فاحذوا من هؤلاء جميعاً . ولذلك كان من جملة افضال التمدن الاسلامي على العلم انه جمع شتات تلك العلوم من اليونانية والفارسية والهندية والكلدانية الى العربية وزاد فيها ورقاها كما سيأتي . فلنبحث أولاً في حال العلم والادب في البلاد التي عرفها المسلمون وهو يتناول النظر في آداب اليونان والفرس والهنود والكلدان على ما يأذن به المقام . ثم ننقدم الى الكلام في ما نقله العرب من ذلك والاسباب التي دعت الى نقله

آداب اللغة اليونانية

اليونان من القبائل الآرية التي نزلت قبل زمن التاريخ من أعالي الهند واستقرت في الارخبيل اليوناني وما يقابله من شواطئ اسيا الصغرى حول بحر ايجيا • وللشعوب الآرية آداب مشتركة واخلاق متشابهة • فنزل اليونان هناك ومعهم كثير من معتقدات اسلافهم وعاداتهم التي نزل بها اخوانهم الآريون الى بلاد الهند ودونوا معظمها في كتبهم الدينية السنسكريتية (البرهمية) في اقدم أزمنة التاريخ

اما اليونان فكانوا يسمون هلاس او الهيلينيين وهم ثلاث قبائل كبرى اليونانيون والايوليون والدوريون • فنزل اليونانيون شواطئ اسيا الصغرى والايوليون في لسبس وما والاها ونزل الدوريون في المورة وصقلية وغيرها • وكان التمدن القديم يومئذ مورقاً في وادي النيل ووادي الفرات وكان الفينيقيون جيران اليونانيين برّاً والدوريين بحراً وقد استعمروا شواطئ اسيا الصغرى مماليك بلادهم • فأصبح اليونانيون او اليونان (الاسيويون) على مقربة منهم فحمل اليهم الفينيقيون كثيراً من اسباب التمدن واكثره منقول عن البابليين والاشوريين والمصريين • فاقبض اليونانيون مبادئ العلم والادب كالفلك والطب والدين ونقلوها الى اخوانهم الدوريين في الجانب الغربي من بحر ايجيا • وكان اليونانيون على الاجمال اهل ذكاء ونشاط فاشوا حيناً حتى نظموا الشعر والقوا الخطب وهي من قرائحهم الفطرية ونسبغ منهم الشعراء والخطباء ثم الفلاسفة والعلماء والاطباء وجعلوا للعلم قواعد لاتزال مرعية في أكثر وجوهها الى اليوم

ويقسم تاريخ آداب اللغة اليونانية الى ثلاثة اعصر:

- (١) عصر الآداب اليونانية القديمة وابتدى قبل زمن التاريخ الى سنة ٥٢٩ ميلاد وهي السنة التي امر فيها القيصر يوستينيان باقفال المدارس الوثنية في مملكة الروم
- (٢) العصر البيزنطي او القسطنطيني وابتدى سنة ٥٢٩ م وينتهي بفتح العثمانيين القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م

- (٣) العصر الحديث يبتدى بذلك الفتح ولا يزال ولا يهمننا في هذا المقام الا العصر الأول وبعض الثاني

الآداب اليونانية القديمة

من قبل التاريخ الى سنة ٥٢٩ م

ونقسم الآداب اليونانية القديمة الى ثلاثة ادوار (١) دور الشعر وينتهي سنة ٤٧٥ قبل الميلاد (٢) دور الروايات التمثيلية والتاريخ والفلسفة من سنة ٤٧٥ — ٣٠٠ قبل الميلاد (٣) دور العلم بعد نضجه او الدور الاسكندراني ويقسم الى عصرين العصر اليوناني والعصر الروماني

١ — الشعر اليوناني

اليونان من الامم التي استنبطت آدابها الخيالية استنباطاً ولم تقلد بها احداً ولا اخذتها عن احد وشأنهم في ذلك شأن العرب في علومهم الاسلامية وآدابهم العربية . واقدم آداب اليونان الشعر وقد انقنوه وأجادوا فيه من قديم الزمان لان كل قبيلة منهم تولت ائقان فرع منه فاشتغل اليونانيون في الشعر القصصي والايوليون في الشعر الموسيقي البسيط واشتغل الدوريون في ائقان هذا الشعر والتوسع فيه واخيراً اشتغل الآتيون وهم فرع من اليونانيين في ائقان الشعر التمثيلي وسائر الفنون الخيالية ونظفروا منها الى الفنون الثرية كالتاريخ والفلسفة وغيرها . وكانت لغات هذه القبائل تختلف بعضها عن بعض مثل اختلاف لغات قبائل العرب في عصر الجاهلية

ويغلب على الظن ان اليونان نظموا الشعر قبل تشنت قبائلهم واقدم اشعارهم « اناشيد الفصول » تليها اشعارٌ وصفوا بها الآلهة او الحروب على شكل الحكايات المتقطعة . كانوا يتناشدونها بالآلات الموسيقية . فلما تفرقوا اخلص اليونانيون بالشعر القصصي فالفوا من تلك الحكايات الملاحم واقدم الملاحم الايلاذة والاذيسية نظمهما هوميروس في القرن التاسع قبل الميلاد وصف بها الايام العشرة الاخيرة من حصار طروادة

وقد زها الشعر القصصي عند اليونان قبل سائر ضروب الشعر لانه يصف وقائعهم وحروبهم . وكانوا في اوائل احوالهم مثل قبائل العرب وكان امرؤهم محبوب سماع اخبار اسلافهم من الابطال وانصاف الآلهة فخبوا الى اصحاب القرائح نظم تلك الاخبار في الملاحم . وفي اواسط القرن الثامن قبل الميلاد اخذت السلطة الاستبدادية في الافول واخذ اليونان يتمتعون بحريتهم الشخصية استعداداً للحكم الجمهوري . فتمت شعائرهم الاستقلالية

واحسَّ كل منهم بذاتيته وتولد فيه الميل الى وصف عواطفه وامياله فنظمها شعراً هو الشعر الموسيقي . واكثر المشتغلين به الاوليون والدوريون وله عند كل منهما مميزات واشهر نوايع الشعر الموسيقي عند اليونان سيمونيدس وبندار — الاول يوفيُّ الاصل دوريُّ النظم واكثر منظوماته في وصف احوال الحرب بين اليونان والفرس والثاني دوري المولد والمنشأ واسلوبه ونظمه دوريان

٢ — الادب والعلم والفلسفة عند اليونان

من سنة ٤٧٥ — ٣٠٠ ق م

الادب والتاريخ

ويسمَّى هذا الدور ايضاً الدور الآتي او الاتيكي نسبة الى اتيكا في جزائر اليونان وسكانها . زيج من اليونيين والدوريين — فبعد ان اشتغل اليونون والابوليون والدوريون في انشاء الشعر ودونوا به اخبارهم ووصفوا حروبهم وعبروا به عن عواطفهم وعواطف ذويهم استحدثتهم قرايحهم القوادة الى ما يمثلون به تلك الاخبار وبشخصون به العواطف ليراها الناس راي العين او يشعروا بها كأنها بين جنبهم فحدثوا فن التمثيل (الدراما) ومنه التراجيديا والكوميديا واجادوا في كليهما ونبع منهم مشاهير عظام من اهل هذا الفن مما يطول بنا الكلام فيه وهو خارج عن موضوعنا . وانما يقال بالاجمال ان اليونان انقنوا الشعر على اختلاف ضروبه ومواضيعه قبل ان يعنوا بالنثر المرسل لاستغنائهم عنه بالشعر القصصي . واقدم آثارهم النثرية واكملها كتابات هيروذوتس الرحالة الشهير المتوفى سنة ٤٠٦ ق م وهي بالنظر الى نثر اليونان مثل الياذة هوميروس بالنظر الى شعرهم

على ان هيروذوتس ليس اول من كتب النثر المرسل عندهم فقد ظهر قبله جماعة من العلماء دونوا به آراءهم في الفلسفة او الميثولوجيا او التاريخ او غيرها من العلوم النثرية . واما هيروذوتس فتغلب نثره على نثرهم لحسن اسلوبه واهمية المواضيع التي كتب فيها . فقد كتب رحلته قبل سنة ٤٣١ هـ ق م وهي التاريخ المعروف باسمه بين فيه اسباب الحروب التي انتشبت بين الفرس واليونان في القرن السادس واول الخامس قبل الميلاد . ولا يزال كتابه فريداً في بابهِ الى اليوم ولذلك لقبوه بابي التاريخ . وبعده بقليل انتشبت بين اهل اثينا واهل المورة حرب اهلية هائلة هي الحرب المورية او البيلوبونيسية من سنة ٤٣١ —

٤٠٤ ق م فأرخها ثوسيدس وكان معاصراً لهيرودوتس واصغر منه . ثم ظهر جماعة من كتاب التاريخ عندهم كخينوفون وغيره . ثم اشتغل اليونان بالخطابة ونبغ منهم ديموستيس واشينس وهيريدس وغيرهم واشتغل آخرون في وضع الشرائع مثل صولون وآخرون بوضع قواعد اللغة او غيرها مما لا يهمننا البحث فيه هنا

العلم والفلسفة

وهما من نتاج الدور الأتى فقد ظل اليونانيون على نحو ما تقدم من الآداب الشعرية والتاريخية والادبية حتى تنهت اذهانهم الى البحث في الخليقة والعلل والمعلولات بنهضة حدثت على اثر الحرب المورية المذكورة . فانها توالى ٢٧ سنة وفي نهايتها دخلت اثينا في حوزة اللقديمونيين واصبح الاثينيون بعد العزاذلاء فساقتهم العبرة والمذلة الى النظر في الوجود فنهضوا نهضة فلسفية زعيمها وواضع اساسها سقراط . والحروب يغلب ان يعقبها نهضة ادبية او علمية او سياسية على ما قررناه في غير هذا المكان

على ان اليونان تنبهوا الى النظر في الموجودات الطبيعية واحوالها قبل تلك النهضة على اثر احشكك الافكار في اثناء حروبهم مع الفرس . وانما كان نظرهم فيها قاصراً على تفهم نواميسها على نحو ما نعر عنه اليوم بالطبيعيات . واقدم من وصل خبره اليها من الفلاسفة الطبيعيين طاليس المليطي ولد في مليطة من بلاد يونيا سنة ٦٤٠ قبل الميلاد وقد اخذ علمه من فينيقية ومصر وكريت ويونيا وغلب عليه النظر في النجوم والهندسة وله آراء في الوجود والموجودات واصل العناصر . ووضع كثيراً من القواعد الرياضية لاستخراج الكسوف والخسوف وقياس الاجسام المرتفعة بالنظر الى ظلالها . ونبغ بعده جماعة من تلامذته وتلامذتهم . ومنهم ارخيلاوس وهو الذي نقل الطبيعيات من يونيا الى اثينا وهناك تلمذ له سقراط المولود سنة ٤٦٩ ق م وفي ابام هذا الفيلسوف حدثت الحرب المورية فامتزجت الطباع وتحاكَّت الافكار فهاجت القرائع وثارَت العواطف واصبح الناس متضاغنين متنافسين وربما كان للرجل عدوٌّ من قبيلته واهله

فلما اصبحت اثينا بالذل بعد تلك العظمة اصاب اهلها اضطراب وانكسار — والانسان اذا اصاب بنكبة لاحيلة له في دفعها اشتغل عنها بالتعليلات الفلسفية عن الوجود واصله ليخفف وطأة تلك المصيبة عليه . خصوصاً في مثل ما اصبحت به اثينا بعد عزها ورفعة شأنها واصبح اهلها بعد سقوطها يتلفتون الى الورااء اسفين وينظرون الى الامام خائفين وقد ذهبت اسباب مفاخرتهم القديمة ولم تنتظم حكومتهم الجديدة . فنهت اذهانهم وانصرف

في مغارة بقيت فيها ١٨٧ سنة . فلما استخرجوها في رأس المئة الاولى قبل الميلاد وجدوا بعضها قد تهرأ بالعفونة والرطوبة والبعض الآخر اكله الدود والتمت فباعوها صفقة واحدة الى كتبي اسمه ايليكون فارجمها الى اثينا . فلما استولى سولا الروماني على اثينا سنة ٨٦ ق م كانت مكتبة هذا الرجل في جملة غنائم الرومانيين فقلوها الى رومية فوصل اليها بعض اليونانيين المقيمين هناك فاشتغلوا في نسخها وضبطها . واول المشتغلين في ذلك تيرانيون صاحب شيشرون . ثم تولى اندرونيكوس الرودي تصحيحها وترميمها ثم تناقلها الناس . فكل ما وصل الى العالم من مؤلفات ارسطو انما هو من تصحيح اندرونيكوس المذكور في اواسط القرن الاول قبل الميلاد

على انها ما لبثت ان ظهرت في العالم حتى تناولها الناس واشتغلوا فيها بين درس ونقل وترجمة وتلخيص وشرح ونقد . بدأ بذلك اليونان انفسهم ثم الرومان فالفرس فالعرب فاهل الاجيال الوسطى في اوربا فاهل اوائل التمدن الحديث وخصوصاً فلاسفة القرون الاولى لهذه النهضة . وكانت مدرسة الاسكندرية الآتي ذكرها تعلم الفلسفة بكتب ينسبونها الى ارسطو وكتبه لا تزال مدفونة . فلما فتح الرومان الاسكندرية وكانوا قد وقفوا على نسخ اندرونيكوس فاعتمدوا عليها دون سواها واصبحت عمدة التعليم في رومية والاسكندرية على السواء . حتى ظهرت النصرانية فبطل تعليمها في رومية وظل في الاسكندرية . ولما سعى قيصرية الروم في ازالة الوثنية من مملكتهم بحثوا عن العلوم الوثنية وابطلوها ومن جملتها كتب ارسطو الا بعض كتبه المنطقية . على انهم كانوا يعلمونها سراً حتى جاء الاسلام وانتقل التعليم من الاسكندرية الى انطاكية على يد عمر بن عبد العزيز . فانتقلت الى هناك وظل تعليمها محظوراً لا يتعلمها الا بعض اليهود او الحرانيين لتقوى بها حججهم على النصرانية

الطب والنجوم

والطب أيضاً من ثمار تلك النهضة على اثر الحرب المورية وكان اليونان قبل ذلك يعالجون مرضاهم بالكهانة وينسبون الامراض الى اعمال الشياطين والعلاجات الى اعمال الآلهة . وكان الفلاسفة يتكلمون في الطب باعتبار انه فرع من العلم الطبيعي ولم يستقل احد منهم بالبحث فيه . واول من رتب الطب وبوبه وبناه على اساس صحيحة ابقراط المتوفي سنة ٣٥٧ ق م ولذلك سموه أبو الطب وهو من نتاج الحرب المورية فقد نشأ في اثناها ونبغ بعد انقضاها وسافر الى سوريا ولعله اطلع على طب البابليين والمصريين فاضافهما

الى طب اليونان والف فيه الكتب . وأساس معالجته الاعتماد على الطبيعة وكان يفصد ويحجم ويكوي ويحقن ويشخص الامراض بالسماعة ويصف المسهلات النباتية والمعدنية . وله كتب في الطب كثيرة ذكروا منها ٨٧ كتاباً ولم يثبت له منها الا نحو العشرين وسيأتي ذكرها في ما نقله المسلمون من كتب الطب الى العربية . وما زالت كتب ابقراط معوّل الاطباء الى العصر الجديد وفيهم من شرحها او فسرّها او ترجمها او عاقل عليها . ومن اشتغل من اليونانيين في ترقية العلوم الطبية بعد ابقراط ارسطو وغيره من الفلاسفة العظام فلما انشئت مدرسة الاسكندرنية على عهد البطالسة كان للطب شأن كبير فيها كما سيجيء والنجوم او علم الفلك قديم عند سائر الامم كما قد رأيت في كلامنا عن علوم العرب قبل الاسلام . أخذ اليونان مبادئ هذا العلم عن سبقهم من أمم التمدن القديم على يد الفينيقيين وتوسعوا فيه من عند انفسهم . وكان النظر فيه من جملة البحوث الفلاسفة واقدّمهم طاليس المتقدم ذكره وقلّ من جاء بعده من فلاسفة اليونانيين ولم يتعرض لهذا الفن وأشهرهم فيه انكسيمندر وانكسيمينس وانكساغوراس . وكان للقسم الايطالي من بلاد اليونان عناية كبرى في النجوم ومقدام فلاسفتهم في فيثاغورس الشهير المتوفى سنة ٥٠٠ ق م أخذ بعض هذا العلم من مصر وتوسع فيه وتبعه في ذلك كثيرون . ويكاد لا يخلو فيلسوف من فلاسفة اليونان من النظر في النجوم واحكامها بما يطول شرحه . على ان هذا العلم بلغ قمة مجده في مدرسة الاسكندرنية . ويقال نحو ذلك في سائر العلوم الرياضية كالحساب والهندسة فقد اشتغل فيها الفلاسفة لكنها لم تنضج الا في مدرسة الاسكندرنية على يد اوقليدس

٣ - الدور الاسكندري

مدرسة الاسكندرنية ومكتبتها

لم يكد اليونان يتخلصون من مصائبهم بالحروب المورية حتى انقضى عليهم الرجل المكذوني العظيم (الاسكندر) فغلبهم على ما في ايديهم ثم حل بهم على العالم المتمدن في ذلك العهد ففتح مصر وبني فيها الاسكندرنية واكتسح الشام والعراق وفارس الى بلاد الهند . فأصاب العالم تلك الحروب هزّة انتفضت لها اعصابه واختلطت عناصره فالتقى اليوناني بالفينيقي والمصري والفارسي والكلداني والهندي وتحاكت الافكار وتلامست المطامع وتقاطعت المصالح وكان من اقل نتائجها : اولاً نشر علوم اليونان وآدابهم وتمدهم

في امم الارض • ثانياً نقل علوم الفرس والكلدان وغيرهم الى بلاد اليونان او مصر • فقد ذكروا ان الاسكندر لما فتح اصطخر عاصمة الفرس اخرب ابنتها وشوه نقوشها ونسخ ما كان مجموعاً من ذلك في الدواوين والخزائن هناك ونقله الى اللسان اليوناني والقبطي • وبعد فراغه من نسخ حاجته منه احرق ما كان مكتوباً بالفارسية • وأخذ ما كان يحتاج اليه من علم النجوم والطب والطبائع وبعث به وبسائر ما أصاب من العلوم والاموال والخزائن والعلماء الى بلاد مصر^(١)

ولمات الاسكندر سنة ٣٢٣ ق م انقسمت مملكته بين قواده فانقل علماء اليونان من بلادهم للإقامة في مستعمراتهم الجديدة في مصر والشام والعراق فابتنوا المدارس في الاسكندرية وانطاكية وبيروت وغيرها وكان حظ البطالسة في الاسكندرية اوفر من حظوظ سائر الدول اليونانية في الشرق في ترقية شؤون العلم والفلسفة • وكان سوتر اول البطالسة عادلاً محباً للعلم (حكم من سنة ٣٠٦ — ٢٨٥ ق م) فتناطر اليه العلماء والفلاسفة من بلاد اليونان على اختلاف القبائل والاماكن فاكرم وفادتهم ونشطهم في مواصلة البحث والدرس واطلق لهم الاموال فزادوا احتراماً له ورغبة في العلم وكان في جملة المقرين اليه خطيب اثيني اسمه ديمتريوس فاليروس أشار عليه بإنشاء مكتبة يجمع اليها الكتب من أنحاء العالم فأجابه الى ذلك وهي مكتبة الاسكندرية الشهيرة التي بحثنا عن اسباب حريقها في ما تقدم من هذا الكتاب • والظاهر ان الكتب التي بعثها الاسكندر من اصطخر وغيرها وضعوها في هذه المكتبة • وديمتريوس هذا هو الذي سماه ابن الفطحي « زميرة » وسبب الفرق تصحيف في النسخ • وبشارته ايضاً انشأ سوتر المتحف او النادي (Museum) على شكل مدارس اوربا الجامعة يجتمع فيه العلماء والادباء والفلاسفة للدرس والبحث وهو مدرسة الاسكندرية الشهيرة

وكان البطالسة خائفاء سوتر يقتفون اثره في تنشيط العلم واكثرهم العلماء وخصوصاً فيلاذلفوس (من سنة ٢٨٥ — ٢٤٧ ق م) فانه اضاف الى المكتبة مالم يكن فيها من كتب العلم اليونانية وغير اليونانية فابتاع الكتب التي كانت عند ارسطو وجمع كثيراً من مؤلفات اليهود والمصريين القدماء حتى لا ينقص هذه المكتبة علم ولا خبر وخلفه بطليموس اورجينس (سنة ٢٤٧ — ٢٢٢ ق م) فاضاف الى المكتبة كثيراً من كتب الادب والشعر والتأثيل مما وجدوه في خزائن ائتنا وفرض على كل من يقيم في الاسكندرية او يمرُّ

بها من رجال العلم ان يقدم للمكتبة نسخة من كل ما يملكه من الكتب . فزهت الاسكندرية بالعلم ونبع فيها العلماء في كل موضوع حتى فافت كل ما تقدمها او عاصرها من مدن العالم القديم وما زالت رافلة بالعلم والعلماء الى ظهور الاسلام اي عبارة عن نيّف وتسعماية سنة تقسم الى مديتين الاولى يونانية تبتدى بولاية سوتر وتنتهي بدخول مصر في حوزة الرومان سنة ٣٠ قبل الميلاد والثانية رومانية تبتدى من هذه السنة وتنتهي سنة ٦٤٠ م لما فتحها ابن العاص . وكان غرضها في المدة الاولى علمياً اديباً وغايتها ترقية العلوم اليونانية وتوسيع نطاقها وكانت المرجع العلمي الوحيد في تلك العلوم الى اواخر القرن الثاني للميلاد فاخذت لتتقهقر لاسباب كثيرة اهمها فساد الحكومة واعوجاج الاحكام وظهور مدارس اخرى من نوعها في سوريا ورووس وغيرها فتحوّت هم رجال العلم الى بلاد العدل والحرية . فلما دخلت الاسكندرية في حوزة الرومان اتسعت شهرتها باتساع دولتهم ولكن رغبة رجال العلم تحوّت عنها الى رومية . واتفق ظهور الديانة المسيحية واشتغال ذوي القرائح في اثباتها او نفيها . ونظراً للتوسط الاسكندرية وقربها من ميدان الجدل اتخذت مدرستها خطة فلسفية دينية — فلمدرسة الاسكندرية بهذا الاعتبار عصران الأول يوناني علمي وادبي والثاني روماني فلسفي ديني

العصر الاسكندري اليوناني من سنة ٣٠٦ — ٣٠ ق م

زهت الاسكندرية في عصرها الاول بن انتقل اليها من جالية اليونان على اثر ما اصاب بلادهم من الذل بعد ذهاب استقلالهم وحملوا معهم كتب العلم والفلسفة والطب والشعر والادب واللغة والتاريخ غير ما جمعه البطالسة من الكتب الاخرى كما تقدم . فاقام اليونانيون في الاسكندرية على الرحب والسعة في ظل حكومة يونانية وعادات وآداب يونانية . لكنهم كانوا قد اضاعوا انفة الاستقلال وروح الحرية لتقيد عواطفهم وشعائهم بالحكم المطلق الذي لا يقترّب منه الا المتزلفون ففسدت القرائح وضائق العقول فاشتغل يونانيو الاسكندرية في الشعر والخطابة والتاريخ والميثولوجيا لكنهم لم يجيدوا بشيء منها مثل اجدادهم في اثينا والمورة وساقس وغيرها ناهيك بانصراف الازهان الى العلوم الطبيعية والرياضيات وقد كان لهذه العلوم حظ وافر في تلك المدرسة فنبع فيها جماعة من علماء الفلك والطب والهندسة والجغرافية وان كانت مؤلفاتهم في الغالب مبنية على مؤلفات القدماء او شروحاً لها

الرياضيات — نبغ افيلدس الصوري المولود سنة ٣٢٣ ق م وقد طلب العلم في

بلاد اليونان وانفن الرياضيات بنوع خاص وكانت الاسكندرية قد دخلت في حكم البطالسة وافضت الحكومة الى بطليموس فيلادلفوس فاستقدمه اليه في جملة من استقدمهم من رجال العلم ووسع له الرزق وامره بتدريس الهندسة وكان فيلادلفوس أول من تلقاها عنه وهناك ألف كتابه المعروف باصول اقليدس ولا يزال عليه المعول في هذا الفن الى اليوم وقد نقل الى كل لغات العالم المتمدن



فلكي يوناني يرصد الكواكب في مرصد الاسكندرية

ونبع من الرياضيين بعد اقليدس ارخميدس او ارشيدس الصقلي المولود سنة ٢٨٧ قبل الميلاد وجاء مدرسة الاسكندرية تلقى فيها الرياضيات وعاد الى بلاده وكان ملكها يحترمه فقربه اليه وكان في حرب ضد الرومان فاعانه بعلمه ما لم يستطعه القواد بسيوفهم ولكنه ذهب ضحية تلك المساعي فقتله بعض جنود الرومان في اثناء الفتح وهو لا يعرفه . ولارخميدس اكتشافات مهمة في النواميس الطبيعية المتعلقة بالهندسة او الحساب وذكروا له من الكتب كتاباً في الكرة والاسطوانة وآخر في تريع الدائرة وتسديعها والدوائر المماسية

والمثلثات والخطوط المتوازية والمأخوذات والمفروضات^(١)

ثم نبغ ابولونيوس المولود سنة ٢٥٠ ق م صاحب الابحاث في قطع المخروط وهيبارخوس المتوفى سنة ١٢٥ ق م مؤسس الراي الفلكي للسموات واشتغلوا في اثناء ذلك بالجغرافية الرياضية وأول من كتب فيها اراتستين المتوفى سنة ١٩٥ ق م وهو اول من وضع جداول اسماء الملوك الفراعنة واول من قاس الارض

ثم ظهر بطليموس القلوذي الشهير في اواسط القرن الثاني بعد الميلاد فأخذ راي هيبارخوس وبنى عليه كتاب المجسطى الذي كان عليه المعول في مدارس العالم الى عهد غير بعيد . ومن اقواله « لا يعرف كتاب ألف في علم من العلوم قديمها وحديثها فاشتمل على جميع ذلك العلم واحاط باجزائه غير ثلاثة كتب المجسطى في علم هيئة الفلك وحرركات النجوم وكتاب ارستوطاليس في صناعة المنطق وكتاب سيبويه في النحو^(٢) ومن مؤلفات بطليموس المذكور كتاب الاربعة وكتاب الحرب والقتال وكتاب الجغرافية في المعمور وغيرها واشتغل علماء الاسكندرية خصوصاً برصد الافلاك واستخراج الازياج وكان عندهم

مرصد يرصدون منه الاجرام وظل هو المرصد الوحيد في العالم الى ايام الاسلام
الطب — اما الطب فقد كان يعلم في مدرسة برغامس فلما زهت مدرسة الاسكندرية توجهت الانظار اليها وكثر طلبة الطب فيها وكانت عمدة التدريس فيها على مؤلفات ابقراط لكنهم اشتغلوا خصوصاً في فن التشريح حتى فاقوا فيه سائر مدارس الطب في ذلك العهد واشتهر فيها اثناء العصر اليوناني طيبيان لكل منهما مذهب في الطب والعلاج وهما هيروفيلوس وارااستراتس الاول من خلكيدونه وتلقى العلم في مدارس اليونان واشتغل خصوصاً في التشريح والف كتباً وافق ابقراط في اكثرها ويعدونه في المنزلة الاولى بعده . اما الثاني فكان معاصراً لهيروفيلوس وهو من انطاكية وجاء الاسكندرية للتبحر في علم التشريح وله مؤلفات ذهب فيها مذهباً غير مذهب هيروفيلوس فكان لكل من هذين الطيبيين تلامذة يؤيدون رايه واصحاب هيروفيلوس ينصرون ابقراط والآخرين ضده . وظل المذهبان الى القرن الثاني بعد الميلاد وقد مهد الارستراتيون الطريق للتدجيل الذي شاع بعدئذ في الاجيال المظلمة

انقضى عصر مدرسة الاسكندرية اليوناني وبعض العصر الروماني والاطباء فئتان لها مذهبان متنافضان حتى ظهر جالينوس القلوذي المولود في برغاموس سنة ١٣٠ م تلقى اصول

العلم على ابيه ثم شرع في درس الطب هناك . وسافر سنة ١٥٠ م الى ازمير ثم قدم الى الاسكندرية لانتقان فن التشريح وظاف بلاداً اخرى في طلب العلم حتى عاد سنة ١٥٨ م الى برغاموس وسافر سنة ١٦٤ الى رومية وهي اهلة بالعلماء وانتق له معالجة بعض كبار القوم وشفائهم على يديه فذاع صيته وسموه « الخطيب العجيب » فحسده زملاؤه فرجع الى بلده سنة ١٦٨ ثم توفى في الرجوع الى رومية وخدم بعض امبراطورها حتى توفي سنة ٢٠٠ م وله مؤلفات عديدة في الطب اشتهرها يعرف بالكتب الستة عشر وبعضها يعرف باسماء خاصة حسب مواضيعها وسياتي ذكرها في جملة ما نقل من كتب الطب الى العربية — وجالينوس ليس من اهل العصر الاسكندري اليوناني الذي نحن في صدده وانما ذكرناه استيفاء للكلام في تاريخ الطب

العصر الاسكندري الروماني من سنة ٣٠ ق م — ٦٤٠ م

هو العصر الاسكندري الثاني ويبتدىء بالحقيقة قبل الفتح الروماني بنصف قرن اي منذ دخول اثينا في حوزة الرومان في القرن الاول قبل الميلاد فان قائدهم سولا بعد ان فتح اثينا حمل منها الى رومية اجمالاً من كتب العلم والفلسفة كما تقدم فانقل العلم من ذلك الحين من اثينا الى رومية ولما أسس اوجسطس قيصر المكتبة الشهيرة في رومية قسمها الى قسمين لاتيني ويوناني . ولم تثر رومية كتب اثينا فقط ولكنها ورثت علماءها وفلاسفتها أيضاً فاصبح اليونان انفسهم اذا اردوا التبحر في العلم رحلوا الى رومية . وليس من شأننا الآن البحث في آداب الرومان

فمدرسة الاسكندرية أخذت قبل دخولها في حوزة الرومان في الانحطاط فلما صارت رومانية زادت ضعفاً . وكانت علومها قد تغيرت وجهتها وانحصرت في الفاسفة لان الاسكندرية ما برحت منذ تأسيسها وفيها جماعة من اليهود نزحوا اليها كعادتهم في الرحيل للارتزاق او فراراً من الاضطهاد فآنسوا في الاسكندرية ترحاباً وراحة فكثر ثروا . فترتب على اختلاطهم باليونان وتمزج الاذواق والابحاث تغير مهم في الفلسفة والدين لان اليهود اهل توحيد ووحى وتقليد واليونان اهل فلسفة ومنطق وخرافات دينية فأدى التمازج الى التقارب وزاد ذلك بظهور النصرانية . ولما تأيدت النصرانية واعتنقها اليونان اخذوا في تطبيق فلسفتهم على الدين فتولد من ذلك ما يسمونه الفاسفة الافلاطونية الجديدة (Neo-Platonie) والفاسفة الفيثاغورية الجديدة (Neo-Pythagoric) وجملة القول ان العصر الاسكندري الثاني فلما أفاد العلم لان ابحاثه كانت غايتها فلسفية دينية

ومما اقتصت مدرسة الاسكندرية في تربيته من العلوم: أولاً التشرّح لان المصريين كانوا يفتحون الجثث لاجل تحنيطها فسهل عليهم درس فن التشرّح بها • ثانياً علم الكيمياء لانه كان في مصر قبل دخولها في سلطنة اليونان ولما انشئت مدرسة الاسكندرية اشتغل علماءها في درس هذا العلم وجمعوا ما كان عند الامتين في علم واحد وظلت مدرسة الاسكندرية مركز التدريس في الشرق الى اواخر القرن الاول للهجرة حتى نقله عمر بن عبد العزيز الى مدرسة انطاكية فمدرسة حران وغيرها من مدارس تلك الايام^(١)

العصر البيزنطي من سنة ٥٢٩ — ١٤٥٣ م

سمي هذا العصر بالبيزنطي نسبة الى بيزانتيوم (القسطنطينية) لان آداب اللغة اليونانية هناك كان لها فيه شأن خاص فلا بأس من الإشارة الى ما يهمنها منه • ويقال بالاجمال ان الآداب اليونانية قلما تقدمت في تلك العاصمة مع ان العلم كان في خزائنها كما كان في خزائن الاسكندرية وخصوصاً بعد موت يوستنيان • فلما قامت الخصومة على الايقونات كان من جملة نتائجها اعدام الكتب واهمال العلم • واقتصر النوابع فيها على ما لا يحتاج الى مواهب خصوصية او الى بحث او نظر فكانوا اذا نشأ احد القياصرة وأراد التشبه بمنشطي العلم القدماء رغب الناس في المطالعة والتأليف • وتأليفهم عبارة عن تلخيص القديم او شرحه او جمعه على شكل الموسوعات وقد يفعل القيصرفسه ذلك • فان قسطنطين السابع (٩٠٥ — ٩٥٩ م) كان محباً للعلم مشتغلاً في التأليف فألف كتباً متسلسلة في تاريخ الحكومة ونظامها • وكذلك كانوا يفعلون في سائر المواضيع الادبية كالتاريخ والشعر واللغة بدون نقد ولا نظر كما فعل مؤلفو العرب بعد ذلك في مثل هذه الحال • اما الفلسفة فتحوّلت عندهم الى اللاهوت لان علماء النصرانية استخدموا الادلة الفلسفية لاثبات بعض العقائد او الاراء الدينية في مجادلاتهم او في مواعظهم على نحو ما قدمناه عن الفلسفة الافلاطونية الجديدة • ومن اشتهر في هذا الشأن يوحنا الدمشقي (٧٠٨ — ٧٤١ م) صاحب المؤلفات الكثيرة في الدين والفلسفة وغيره مما لاحاجة بنا الى ذكره

آداب اللغة الفارسية قبل الاسلام

الفرس من الشعوب الآرية اخوان الهنود واليونان وهم أمة قديمة حاربت اليونان قبل المسيح ببضعة قرون فجدت على بلادهم جيشاً قد يمتنع على اعظم دول الارض اليوم حشده ونقله بمهامته ومؤوته من أواسط اسيا الى البحر الابيض فكيف منذ بضعة وعشرين قرناً • فالدولة التي هذا مبلغ قوتها لا تخلو من أدب وعلم والفرس اهل ذكاء وتعقل وفيهم استعداد فطري لاسباب التمدن فلا بد من اجاتهم في نظم الشعر على نحو ما فعل اخوانهم الهنود في المهابارات ونحوها وان كان ما وصل منه اقل قليلاً • ناهيك بالعلوم القديمة التي هي من قبيل الطبيعيات والرياضيات كالنجوم والاثواء فقد احرزوا شيئاً منها وخصوصاً لانهم ورثوا السابليين والاشوريين واحكوا باليونان وهم في أبان تمدنهم واختلطوا بحيرانهم الهنود • وكانوا يعرفون الكتابة وينقشونها على الاحجار باللغة الفهلوية ويؤيد ذلك ما جاء في كتب الاخبار عن فتوح الاسكندر بلاد فارس وما عثر عليه في عاصمتهم اصطخر من خزائن الكتب فاستنسخها واحرقها كما تقدم وفيها ما كان قد جمعه الفرس من علوم الهند والصين الى تلك الايام

وليس ذلك كل ما كان عند الفرس من كتب العلم فقد عثروا في أوائل القرن الرابع للهجرة على مخاين في رستاق جي بفارس هي عبارة عن ازج معقود بالحجارة فوجدوا هناك كتباً كثيرة مكتوبة في لحاء التوز وفيها اصناف من علوم الاوائل باللغة الفارسية القديمة (الفهلوية) وقد تبين من قراءتها • ان طهمورث الملك المحب للعلوم والعلماء خاف الامطار على كتب العلم فأودعها ذلك الرستاق • وهي كتب نفيسة في علم النجوم وعلل حركاتها مما كان عند الفرس والروم والكلدان (١) • وعثروا نحو ذلك الزمن أيضاً على ازج آخر انهار فانكشف عن كتب كثيرة لم يهتد احد الى قراءتها • والظاهر ان عادة حبس الكتب في المغر او نحوها كانت شائعة في ذلك الزمان - قال ابن النديم « والذي رأيته انا بالمشاهدة ان ابا الفضل ابن العميد انفذ الى هنا في سنة ثيف واربعين (وثلاثمائة) كتباً متقطعة اصببت باصفهان في سور المدينة في صناديق وكانت في اليونانية فاستخرجها اهل هذا الشأن مثل يوحنا وغيره وكانت اسماء الجيش ومبلغ ارزاقهم • • • الخ »

على ان الشائع من علوم الفرس لم يكن يتجاوز بعض الاشعار والاخبار وكتب

العقائد والاديان الى ايام سابور بن ازدشير من الدولة الساسانية في اواسط القرن الثالث للميلاد . وفي ايامه ظهرت طائفة المانوية وانتشبت بين سابور والروم حروب انتهت بدمارته وقد حل معه عدداً كبيراً من اسراهم الى بلاده فأنشأ لهم في الاهواز مدينة سماها جنديسابور نسبة اليه واكرم وفادتهم فحببوا اليه العام فعمل على استرجاع علوم الفرس من اليونان او الاستعاضة بمثلها . فبعث الى بلاد اليونان استجلب كتب الفلسفة وأمر بنقلها الى الفارسية ^(١) واحترنهما في مدينته واخذ الناس في نسخها وتدارسها فلما تولى كسرى انوشروان العادل (من سنة ٥٣١ — ٥٧٨ م) فُتح للفرس موردٌ جديد للعلم والفلسفة بما كان من اضطهاد يوستنيان قيصر الروم للفلاسفة الوثنيين على اثر اقفاله الهياكل والمدارس الوثنية . وكانت الفلسفة الافلاطونية الجديدة قد فضحت فقرَّ بعض اصحابها من وجه الاضطهاد وتفرقوا في العالم وجاء منهم سبعة الى انوشروان فاکرم وفادتهم وامرهم بتأليف كتب الفلسفة او نقائها الى الفارسية فنقلوا المنطق والطب ^(٢) والفوا فيهما الكتب فطالهما هو ورغب الناس فيها . وعقد المجالس للبحث والمناظرة كما فعل المأمون بعده بقرنين وبعض القرن حتى خيل لليونان الذين جالسوا انوشروان انه من تلاميذ افلاطون . والمظنون ان تلك الفلسفة كانت أساساً لتعاليم الصوفية التي نشأت بعد ذلك

ولم يقتصر انوشروان على نقل علوم اليونان الى لسانه ولكنه نقل علوم الهند أيضاً من السنسكريتية الى الفارسية ^(٣) وانشأ في جنديسابور مارستاناً (مستشفى) لمعالجة المرضى وتعليم صناعة الطب استقدم اليه الاطباء من الهند وبلاد اليونان وكانوا يعامون فيه الطين الهندي والابقراطي فجمع بين الحسينين . وبلغ هذا المارستان من الشهرة عالم يسبق له مثيل وكان له شأن كبير بعد الاسلام كما سيأتي

وجملة القول ان الفرس اشتغلوا قبل الاسلام في الفلسفة والطب وتشققت عقولهم وذاع صيتهم وكان لهم اطلاع خاص في علم النجوم واحكام الافلاك مما توارثوه عن اسلافهم او نقلوه عن جيرانهم . وقد زها العلم عندهم في ايام انوشروان العادل — والعلم لا يزهو الا في ظل العدل والحرية

(١) ابو الفداء ٥٠ ج ١ (٢) الفرست ٢٤٢

(٣) E. Browne's Literary History of Persia 167

آداب اللغة السريانية قبل الاسلام

السريان بقايا الكلدان او البابليين القدماء الذين انشأوا تمدناً ووضعوا علوماً هامة ورصدوا الكواكب واخترعوا المزاويل ووضعوا اسس الطب قبل الميلاد بقرون . ثم دالت دولتهم واستولى الفرس على بلادهم فذهب علمهم بذهاب حريتهم حتى اذا تالفت النصرانية وانتشر دعائها في البلاد واقرت الى طوائف ومذاهب كان للسريان حظ كبير من كل ذلك وكان لهم تأثير ذو شأن في تاريخ النصرانية

وانما يهتفنا في هذا المقام ماكان عندهم من العلم والفلسفة . وهم في ذلك تلامذة اليونان لانهم تعلموا فلسفتهم وطبهم وسائر علومهم كما تعلمها الرومان قبلهم واقتبسها الفرس معهم وكما تعلمها المسلمون بعدهم . والسريان اهل ذكاء ونشاط فكانوا كلما اطعمت خواتمهم من مظالم الحكام وتشويش الفاحمين انصرفوا الى الاشتغال في العلم فانشأوا المدارس للادوت والفلسفة واللغة ونقلوا علوم اليونان الى لسانهم وشرحوا بعضها ولخصوا بعضها . ومنهم خرج اكثر الذين ترجموا العام للعباسيين واكثرهم من النساطرة كاسيحي . ونقتصر هنا على ذكر اشتغالهم في العلم لانفسهم

كان للسريان في ما بين النهرين نحو خمسين مدرسة تعلم فيها العلوم بالسريانية واليونانية اشهرها مدرسة الرها وفيها ابتداء السريان يشتغلون بفلسفة ارسطو في القرن الخامس للميلاد . وبعد ان تعلموها اخذوا في نقلها الى لسانهم ففعلوا المنطق في اواسط القرن المذكور . ثم اتم دراسة المنطق سرجيس الراس عيني الطيب المشهور وفي المتحف البريطاني بلندرا نسخ خطيه من ترجمته الابساغوجي الى السريانية وكذلك مقولات ارسطو لفروروريوس وكتاب النفس وغيرها وقد نشر بعضها من عهد قريب

وفي اوائل القرن السابع للميلاد اشتهرت مدرسة قنسرين على الفرات بتعليم فلسفة اليونان باللغة اليونانية وتخرج منها جماعة كبيرة من السريان وفي جملتهم الاسقف سويرس فقد انقطع فيها لدرس الفلسفة والرياضيات واللاهوت . ولما تمكن من تلك العلوم نقل بعضها الى السريانية ولا تزال بعض ترجماته في الفلسفة محفوظة في المتحف البريطاني . وقد اتهمها بعده تلميذه يعقوب الرهاوي واضع علم النحو السرياني واثناسيوس بلد . ومن تلامذته اثناسيوس جورجيس المعروف باسقف العرب (٦٨٦ م) فقد ترجم بعض كتب ارسطو . واشتغل جماعة آخرون في ترجمة كتب افلاطون وفيثاغورس وغيرها مما يطول شرحه .

واشتهر هناك مدارس أخرى كمدرسة نصيبين التي كان عدد تلامذتها نحو ثمانمائة وكانت تعلم فيها كل العلوم العقلية والنقلية

أما الطب فقد كان لهم فيه حظٌ وافر على اثر انشاء مارستان جنديسابور واشتهر فيهم من اهل هذه الصناعة كثيرون منهم سرجيس الراس عيني المتقدم ذكره واناتوس الامدي وسمعان الطيبوتي والاسقف غريغوريوس والبطريرك ثيودوسيوس وغيرهم من الاطباء الذين ادركوا الدولة العباسية وخدموها

وقد نقل اطباء السريان كثيراً من كتب الطب من اليوناني الى السرياني حتى في اثناء اشتغالهم بنقلها الى العربية لانهم كانوا كثيراً ما ينقلونها الى السريانية فقط او الى السريانية والعربية معاً . فسر جيس ترجم بعض كتب جالينوس الى السريانية ثم نقلها في الاسلام موسى بن خالد الى العربية^(١) والطيبوتي الف في اواخر القرن السابع للميلاد كتاباً في الطب وترجم غير كتاب ناهيك بما كان من مؤلفات آل بختيشوع وآل حنين وغيرها

ولهم في النجوم مؤلفات كثيرة لتسلسل هذا العلم فيهم عن آباءهم السكديانيين فان البرديصاني له كتاب في النجوم لم يصل الينا غير خبره . والف الرأس عيني في تأثير القمر وحركة الشمس . والف السبكتي في صور الابراج . ومن الف في النجوم أيضاً يعقوب الرهاوي المتقدم ذكره وداود البيت رباني وموسى بن كيفا وعمونيل البرشباري وغيرهم واشتغل السريان أيضاً في الكيمياء والحساب والرياضيات فضلاً عن اشتغالهم في لغتهم وضبط قواعدها وحركاتها . والمشهور انهم اقتبسوا قواعد النجوم اليونان وحركات احرفهم عبارة عن احرف يونانية صغيرة توضع فوق الحروف او تحتها . وقد استغرقوا في آداب اللغة اليونانية وشعرها فترجموا الايامدة والاوزيدسية الى لسانهم . ترجمها يوفيل الرهاوي سنة ٨٧٥ م وقد ضاعت الترجمة ولم يبق منها الا بيتان . ويقال انهم تنبهوا لاستخدام الحروف اليونانية مكان الحركات لما اراد ناظم الايامدة ضبط الاعلام اليونانية فيها . وذلك غير النقط التي كانت تقوم عندهم مقام الحركات وقد تقدم ذكرها في كلامنا عن حركات الخط العربي . ولا تزال الحركات عند السريان النقط والاحرف اليونانية الى اليوم الأولى شائعة عند السريان الشرقيين والثانية عند الغربيين

آداب اللغة الهندية قبل الاسلام

الهند امة قديمة والطبقة العليا منهم اخوان الفرس واليونان وقد نظموا الملاحم ودونوا الاخبار شعراً من قديم الزمان ولم آداب خاصة وتواريخ خاصة تولدت عندهم بتوالي القرون كما يستدل من مراجعة تواريخهم ودرس احوالهم . حتى كثيراً ما كانت ملوك الفرس يستعينون باطبائهم كما فعل انوشروان في مارستان جنديسابور وكم وقع للخلفاء العباسيين في اوائل نهضتهم فانهم كانوا يستقدمون الاطباء من الهند ويستشيرونهم في امراضهم بعد ان تفرغ حيل اطباء الفرس والسريان من معالجتهم . لان للطب الهندي طرقاً غير ما للطب اليوناني او الفارسي وقد اشتهر منهم عدة اطباء القوا في الهندية ونقل المسلمون بعض كتبهم الى العربية كما سيجي ومنهم كنيكه وصنجيل وشاناق وغيرهم

وكانت لهم معرفة حسنة بالنجوم ومواقعها وارباجها ولها اسماء خاصة بلسانهم وكان لهم فيها ثلاثة مذاهب مذهب الارجهير ومذهب الاركنند ومذهب ثالث يقال له بالنسكربتية سدهنتا Siddhanta وهو عبارة عن زيح ذكروا فيه آراءهم في حركات الكواكب وهو الذي وصل الى العرب ونقلوه الى لسانهم وسموه السندهند . والهندو هم الذين اخترعوا الارقام وعينهم اخذها العرب ولم طرق خاصة في الحساب اكتسبها العرب عنهم . وكان لهم معرفة بفن الموسيقى ولم فيها كتب ترجم المسلمون بعضها الى العربية وسيا في ذكرها

الخلاصة

هذه حال العلوم في المملكة الاسلامية لما عزم المسلمون على نقلها الى العربية وقد رأيت ان اكثرها يونانية الاصل وضعها اليونان في ايام وثنيتهم مع ما اقتبسوه من الانبياء التي تمدنت قبلهم . ثم تنوعت بالنصرانية وانتقلها الى الفرس والسريان على مقتضيات آداب تلك الامم وعاداتهم

وكان العراق على الخصوص حافلاً بالعلماء وفيهم الاطباء والفلاسفة والمنجمون والحساب وغيرهم ممن تجمعوا من بلاد فارس وما بين النهرين وفيهم السريان والفرس والروم والهندو . فلما اراد الخلفاء نقل تلك العلوم الى لسانهم وجدوا بين ظهورانيهم من بليي الطلب وبني الغرض

العرب والعلوم الدخيلة

ما الذي حملهم على طلبها

قد رأيت في ما كتبناه عن « العرب والقرآن والاسلام » ان المسلمين كانوا يعتقدون في الصدر الاول « ان الاسلام يهدم ما كان قبله » وانه « لا ينبغي ان يتلى غير القرآن » وبناءً على ذلك هان عليهم احراق ما عثروا عليه من كتب اليونان والفرس في الاسكندرية وفارس . ثم اشتغلوا عن طلب تلك العلوم بما احتاجوا اليه في صدر الاسلام من اسباب انشاء الدولة فاصبحوا لا عناية لهم الاً بالقرآن واحكامه وما ترتب عليه من العلوم الاسلامية في الفقه واللغة والمغازي وسير الفتح ونحو ذلك . وكان اهل البلاد الاصليون من الروم والفرس يجيبون الى الخلفاء الاشتغال بعلوم الاوائل وخصوصاً الطب والفلسفة وهم لا يصغون ولا يقبلون — يحكي ان ماسرجويه البصري من معاصري مروان بن الحكم كان عالماً في الطب وهو سرياني الجنس يهودي المذهب وكان في ايامه كتاب في الطب هو كناش (حاوي) من افضل الكنائش الفقه القس اهرن بن اعين في اللغة السريانية فنقله ماسرجويه الى العربية . فلما تولى عمر بن عبد العزيز وجد هذا الكتاب في خزائن الكتب في الشام خرضه بعضهم على اخراجه الى المسلمين للانتفاع به . فاستخار الله في ذلك اربعين يوماً ثم اخرجه الى الناس وبثه في ايديهم^(١) . ويدل ذلك على التردد الذي استولى على الخليفة في اخراج هذا الكتاب مع انه من كتب الطب وليس الفلسفة

ولما اتسع سلطان المسلمين وفرغوا من انشاء العلوم الاسلامية وقد تأيدت دولتهم وذهبت عنهم السداجة والغفلة عن الصنائع واخذوا في اسباب الحضارة بالخط الوافر وتفننوا بالصنائع والعلوم تشوقوا الى الاطلاع على العلوم الفلسفية بما سمعوه من الاساقفة والاقسة وهان عليهم ذلك بالاسناد الى الحديث النبوي القائل « الحكمة ضالة المؤمن يأخذها ممن سمعها ولا يبالي في اي وعاء خرجت » وقوله « خذوا الحكمة ولو من السنة المشركين »^(٢) و « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » و « اطلبوا العلم من المهد الى اللحد » و « اطلبوا العلم ولو بالصين »^(٣) على انهم لم يقدموا على طلبها دفعة واحدة وانما طلبوها تدريجاً تبعاً لمقتضيات الاحوال

(١) تاريخ الحكماء (خط) (٢) العقد الفريد ١٦٠ ج ١

(٣) كشف الظنون ٣٩ و ٤٣ ج ١

اول من اشتغل بها

اقدم من اشتغل من العرب بهذه العلوم النضر بن الحارث بن كلدة الثقيفي وهو ابن خالة النبي وكان قد رحل الى بلاد فارس وغيرها كآبيه الحارث الطيب الشهير في عصر النبي واجتمع بالعلماء وعاشر الاحبار والرهبان وحصل من العلوم القديمة اشياء جليلة واطلع على علوم الفلسفة واجزاء الحكمة وتعلم من ابيه صناعة الطب . وكان يجاري ابا سفيان بعداوة النبي لانه ثقيفي وكان بنو ثقيف حلفاء بني امية . فكان النضر كثير الاذى للنبي بتكلم فيه بأشياء كثيرة ليحط من قدره عند اهل مكة . ثم وقع النضر اسيرا في واقعة بدر فامر النبي بقتله وذهب خبره^(١)

على ان النضر اقتصر من تلك العلوم على المطالعة ولم ينقل منها شيئا الى العربية . اما اول من اشتغل في نقلها فخالد بن يزيد الاموي المتوفى سنة ٨٥ هـ حفيد معاوية الاكبر ويسمونه حكيم آل مروان . وكان طامعا في الخلافة بعد وفاة اخيه معاوية الثاني فغلبه على ذلك مروان بن الحكم وانتقلت به الخلافة من بيت ابي سفيان الى بيت مروان . فلما يسى خالد من الخلافة وهو ذو مطامع وذكاء انصرف ذهنه الى اكتساب العلي بالعلم . وكانت صناعة الكيمياء رائجة يومئذ في مدرسة الاسكندرية فاستقدم جماعة منهم راهب رومي اسمه مريانوس طلب اليه ان يعلمه صناعة الكيمياء فلما تعلمها امر بنقلها الى العربية . فنقلها له رجل اسمه اصطفان القديم^(٢) وهذا اول نقل في الاسلام من لغة الى لغة

وكان خالد راغبا في علم النجوم ايضا وانتقى الاموال في طلبه واستحضر آلاته ولعلمهم ترجموا له شيئا منه لم يصلنا خبره . على ان بعض الذين اطعموا على مكتبة القاهرة في اواسط القرن الرابع للهجرة شاهدوا فيها كرة من نحاس من عمل بطليموس وعليها مكتوب « حملت هذه الكرة من الامير خالد بن يزيد بن معاوية »^(٣)

وبلي نقل خالد للكيمياء نقل ماسرجويه او ماسرجيس المتقدم ذكره لكناش اهرون من السرياني الى العربي وهو ثلاثون مقالة زاد عليها ماسرجويه ومقاتلين^(٤)

(١) طبقات الاطباء ١١٣ ج ١ (٢) الفهرست ٢٤٣ و ٢٤٤

(٣) تراجم الحكماء (٤) طبقات الاطباء ١٠٩ ج ١

نقل العلوم في العصر العباسي

المنصور والنجوم والطب

اول الخلفاء العباسيين السفاح ولم يعن بشيء من العلم لقصر مدة حكمه . ثم افضت الخلافة الى اخيه المنصور (سنة ١٣٦ - ١٥٨ هـ) وكان شديداً حازماً كثرت في ايامه الفتوق فاضطر الى حروب كثيرة . وقد طالبت مدة حكمه لكنه قضى معظمها في تثبيت دعائم دولته وبناء مدينته (بغداد)

النجوم

وكان المنصور مع براعته في الفقه ميالاً الى التنجيم لا يكاد يعمل عملاً الاً استشار التنجيم فيه وهو اول خليفة قرب التنجيم وعمل باحكام النجوم^(١) واقتدى به اكثر الذين خلفوه . وكانت صناعة النجوم رائجة عند الفرس ونبع فيها جماعة تقربوا بها اليه اشتهرهم نوبخت النجم الفارسي كان مجوسياً واسلم على يده وكان بارعاً في اقترانات الكواكب وحوادثها وكان يصعب المنصور حينئذ توجه . ولما ضعف عن خدمته قال له المنصور « احضر ولدك ليقوم مقامك » فاحضره وهو ابو سهل بن نوبخت^(٢) وتوالى آل نوبخت في خدمة العباسيين وترجموا لهم كتباً في الكواكب واحكامها وكانوا فضلاء ولم رأي ومشاركة في علوم الاوائل وخدم المنصور ايضاً في النجوم ابراهيم الفزاري النجم وابنه محمد . وعلي بن عيسى الاسطرلابي النجم^(٣) ونظراً لتكلف المنصور بحركات الكواكب وحبسه الاطلاع عليها قصده اصحابها من بلاد فارس والهند والروم . وفي جملة من رجل من الهند قيم في حساب السدھنتا المتقدم ذكره جاءه سنة ١٥٦ هـ وعرض عليه كتاباً في النجوم مع تعاديل معمولة على مذاهب الهند . فامر المنصور ان ينقل هذا الكتاب الى العربية وان يؤلف فيه كتاباً يتخذ العرب اصلاً في حركات الكواكب . فتولى ذلك محمد بن ابراهيم الفزاري وعمل منه كتاباً سماه النجوم السدھندي الكبير وظل اهل ذلك الزمان يعملون به الى ايام المأمون^(٤) فاهتم الناس من ذلك الحين في علم النجوم ومتعلقاتها . وجرحهم النظر في الافلاك الى

(١) المسعودي ٣٦٤ ج ٢ (٢) ابو الفرج ٢١٦ (٣) المسعودي ٢٦٤ ج ٢

(٤) تراجم الحكماء (خط)

المهندسة فكتب المنصور الى ملك الروم ان يبعث اليه بكتب التعاليم مترجمة . فبعث اليه بكتاب اقليدس وبعض كتب الطبيعيات ^(١) ولعل المجسطى من جملتها لانه في التجوم . والظاهر ان ترجمة هذه الكتب لم تكن مضبوطة لاننا رأينا اقليدس والمجسطى في جملة ما ترجم للرشيد والمأمون . وجملة القول ان رغبة المنصور في التجوم دعت الى ترجمة بعض كتب التجوم وما يتعلق بها

الطب

وما اهتموا بنقله من العلوم الطبيعية في ايام المنصور الطب . والسبب في ذلك ان المنصور اصابه في أواخر ايامه (سنة ٥٤٨ هـ) مرض في معدته فانقطعت شهوته وكان الاطباء القائمون في خدمته يعالجونه ولا يجدي علاجهم نفعاً . فجمعهم يوماً وقال لهم « هل تعرفون من الاطباء في سائر المدن طبيباً ماهراً » فقالوا « ليس في وقتنا هذا احد يشبه جورجيس رئيس اطباء جنديسابور » . وهو جورجيس بن بختيشوع السرياني فقد كان ماهراً في الطب وله فيه مصنفات باللغة السريانية . وكان من الذكاء والفضل على جانب عظيم حتى أصبح رئيس اطباء مارستان جنديسابور اشهر مدارس الطب في تلك الايام . فبعث المنصور في طلبه على عجل فلما جاء الرسول الى جورجيس اراد استمهاله فهدده بالقتل اذا ابطأ . فعهده بامر المارستان الى ابنه بختيشوع واصطحب اثنين من تلامذته هما ابراهيم وعيسى بن شهلا وركب الى بغداد . فلما وصل استقدمه المنصور اليه فدخل ودعا له بالفارسية والعربية . وكان جورجيس ذاهية ووقار وفصاحة فوقع عند المنصور موقعاً حسناً فاجلسه قدامه وسأله بعض الاسئلة فاجابه عليها بسكون فازداد اعجاباً به فاخبره عن علته من ابتدائها . فقال له جورجيس « انا ادبرك كما تحب » فخلع عليه وانزله في قصر خاص وامر باكرامه . ورجع في الغد ونظر في فارورة الماء (زجاجة البول) ودبره تدبيراً لطيفاً فشنى ورجع الى مزاجه فازداد فرحه به ومنعه من الرجوع الى بلده . ومما زاده رغبة فيه انه رآه عفيفاً صادقاً في تدبئه . وكان المنصور قد علم ان جورجيس خلف امرأته في جنديسابور وليس عنده في بغداد من يخدمه فارسل اليه ثلاث جوار روميات وثلاثة آلاف دينار فقبل الدنانير وردّ الجوارى فلما عاتبه المنصور في الغد اجابه « اننا معشر النصارى لا نتزوج الا بامرأة واحدة وما دامت المرأة حية لا نأخذ غيرها » ^(٢) فحسن موقع ذلك عند المنصور واطلق له الدخول الى حظاياه وحرره ليطيعهن وتعلق به تعلقاً شديداً

وكان جورجيس محباً للتأليف كما رأيت وكان يعرف اللغة اليونانية فضلاً عن السريانية والفارسية والعربية . فلما رأى وثوق المنصور به نقل له كتباً طبية من اليونانية الى العربية غير ما ألفه في السريانية . اما التأليف في الطب فقد سبقه اليه أكثر الاطباء الذين خدموا المسلمين على عهد بني أمية . وكان الطبيب اذا خدمهم ألف لنفسه او لولده او لاحد تلامذته كتاباً او غير كتاب في الفن الذي يتعاطاه . والغالب ان يؤلفوا الكنانيش كالكنكناش الذي ألفه ثياذوق المتوفى سنة ٩٠ هـ طبيب الحجاج ألفه لابنه وألف له أيضاً كتاباً في الادوية ومعالجتها . وتوالى آل بنخيشوع في خدمة العباسيين وخدموا الطب والعلم في ظلهم خدمة نافعة

فلمنصور اول من عني بنقل الكتب القديمة ولكنه اقتصر منها على التجوم والهندسة والطب . وفي ايامه ترجم ابن المقفع كاتبة ودمنة . واما الفلسفة والمنطق وسائر العلوم العقلية فترجمت في ايام المأمون . وقد ذكر صاحب الفهرست ان ابن المقفع نقل من الفارسية الى العربية كتباً في المنطق والطب كان الفرس قد نقلوها عن اليونانية — فقلها لنفسه

المهدي والرشيد

اما المهدي (١٥٨ — ١٦٩ هـ) فانه اشتغل عن نقل العلم بما ظهر في ايامه من البدع الدينية وما انتشر من كتب ماني وابن دميان ومريقون مما نقله ابن المقفع وغيره وترجمت من الفارسية والفهلوية الى العربية وما صنفوه في تأييد هذه المذاهب في العربية فكثير الزنادقة وظهرت آراؤهم في الناس فامر المهدي اهل البحث من المتكلمين بتصنيف الكتب لابطال تلك المذاهب . اما الهادي فلم تطل ايامه ولم يأت ارباً بذكر

فلما افضت الخلافة الى الرشيد (١٧٠ — ١٩٣ هـ) كانت الافكار قد فضحت والاذهان قد زادت تنبهاً الى علوم الاقدمين بما كان يتقاطر الى بغداد من الاطباء والعلماء من السريان والفرس والهنود . وكانوا اهل تمدن وعلم كما رأيت وكانوا يتعلمون العربية ويعاشرون المسلمين ويباحثونهم في تلك العلوم والمسلمون يتهيون من ذلك لما سبق الى اذهانهم من مخالفته للدين — الا الكتب الطبية فكانوا يرغبون في نقلها او مطالعتها . ولكن الاطباء انفسهم كانوا يومئذ من غير المساميين ويغلب ان يكونوا من محبي الفلسفة والمنطق وكانوا من الجهة الثانية يخدمون الخلفاء ويحاشرونهم ويعاشرهم كأنهم بعض اهلهم كما سرى . فأدى ذلك الى ائتلاف الخلفاء بذكر الفلسفة واصبحوا اذا فتحوا

بلدًا ووجدوا فيه كتبًا لا يأمرهم بإحراقها أو إعدامها بل يأمرهم بحملها إلى عاصمتهم والاحتفاظ بها لنقلها إلى لسانهم كما اتفق للرشد في أثناء حربه في أقرة وعمورية وغيرها من بلاد الروم فإنه عثر هناك على كتب كثيرة حملها إلى بغداد وأمر طيبه يوحنا بن ماسويه بترجمتها^(١) ولكنها ليست من الفلسفة في شيء وإنما هي في الطب اليوناني^(٢) وفي أيام الرشيد نقل كتاب أقليدس النقلة الأولى على يد الحجاج بن مطر وتسمى الهارونية تميز أهلها عن النقلة المأمونية التي نقلها للمأمون^(٣) وفي أيامه نقل المجسطي إلى العربية وأول من عني بنقله يحيى بن خالد البرمكي ففسره له جماعة لم يتقنوه فندب لفسيره أبا حسان وسلامًا صاحب بيت الحكمة فآثناه واجتهدا في تصحيحه

المأمون والفلسفة والمنطق

فالكاتب الفلسفية لم يقدم المسلمون على ترجمتها إلا في أيام المأمون لسبب متصل بالمأمون نفسه • وذلك أن المسلمين تعبدوا من أول الإسلام حرية الفكر والقول والمساواة فيما بينهم فكان إذا خطر لاحدهم رأي في خليفة أو أمير لا تمنعه هيئة الملك من إبداء رأيه • وكان ذلك شأنهم أيضًا في الدين فإذا فهم أحدهم من الآية أو الحديث غير ما فهمه الآخر صرح برأيه وجادله فيه • فلم ينقض عصر الصحابة حتى أخذ المسلمون يفترون في المذاهب • ولم يدخل القرن الثاني حتى تعددت الفرق وتفرعت وفي جملتها المعتزلة • والمعتزلة طوائف كثيرة أساس مذهبهم تطبيق النصوص الدينية على الأحكام العقلية • ولو طالعت مذاهبهم لرأيت بعضها يوافق أحدث الآراء الانتقادية في الدين مع مرور الأجيال على تمحيصها • ولذلك فهم يسمون أصحاب العدل والتوحيد

المأمون والاعتزال

ظهر مذهب الاعتزال في أواخر القرن الأول للهجرة وكثر أشياعه بسرعة لارتياح العقل إلى أدلته • وقد تقدم في كلامنا عن الفقه أن المنصور أخذ بناصر أصحاب الرأي والقياس واستقدم أبا حنيفة إلى بغداد ونشطه لهذه الغاية وظل الميل إلى القياس متواصلًا في بني العباس • والاعتزال أقرب المذاهب إلى أصحاب الرأي لأن عمدة المعتزلة في إثبات

(١) طبقات الأطباء ١٧٥ ج ١ (٢) أبو الفرج ٢٢٧

(٣) الفهرست ٢٦٥ و ٢٦٨

مذهبهم البرهان العقلي ولذلك كانوا اذا رأوا رجلاً مطلعاً على منطق ارسطو او اقواله في الجدل ونحوه استمعوا بما يسمعون منه في تأييد مذهبهم واحتاجوا الى ذلك خصوصاً في ايام المهدي لدفع اقوال الزنادقة كما تقدم • فلعلمهم احتاجوا الى الاستعانة بمنطق اليونان وفلسفتهم او شعروا باحتياجهم اليها على الاقل وأخذوا في انشاء علم الكلام • وكان البرامكة من أصحاب الرأي أيضاً وفيهم ذكالة وميل الى العلم فاشتغلوا في ترجمة الكتب القديمة قبل المامون ^(١) وكانوا يعقدون مجالس المباحثة والمجادلة في منازلهم • ولكن يظهر ان الرشيد لم يكن يوافقهم على ذلك فلم يتظاهروا به

فلما افضت الخلافة الى المامون (١٩٨—٢١٨ هـ) تغير وجه المسألة لانه كان مع فطنته وسعة علمه شديد الميل الى القياس العقلي • وقد تعلم وتفقه وطالع ما نقل الى عهده من كتب القدماء فازداد رغبة في القياس والرجوع الى احكام العقل فتمسك بمذهب الاعتزال وقرب اليه اشياخه كابني الهذيل العلاف وابراهيم بن سيار وجالس المتكلمين فتمكن من مذهب الاعتزال • فأخذ بنصر اشياخه وصرح بأقوال لم يكونوا يستطيعون التصريح بها خوفاً من غضب الفقهاء وفي جملتها القول بخلق القرآن اي انه غير منزل • وكان المسلمون في ايام الرشيد يخافون المامون في ذلك لانه ظهر فيه قبل تولية الخلافة وكان الفضيل بن عياض يمتن طول عمر الرشيد لما تبين له من أمر المامون من هذا القليل فلما تظاهر المامون بالاعتزال وقال بخلق القرآن قامت قيامة الفقهاء وعظم ذلك على غير المعتزلة وهم أكثر عدداً ولم يمد في وسعه الرجوع عن قوله فعمل على تأييده بالبرهان وجعل يمدد المجالس للمناظرة ^(٢) في هذا الموضوع • وتابيداً لصحة الجدل أمر بنقل كتب الفلسفة والمنطق من اليونانية الى العربية واطلع هو عليها فقويت حجته وازداد تمسكاً بالاعتزال • ولما يش من اقناع الناس بالبرهان والقياس عمد الى العنف — باشر ذلك في العام الاخير من حكمه وهو خارج بغداد فكتب الى عامله فيها اسحق بن ابراهيم ان يمتحن القضاة والشهود وجميع أهل العلم بالقرآن فمن أقر انه مخلوق محدث خلي سبيله ومن أبى فليعلمه به ^(٣)

فالراجح عندنا ان المامون لسعة علمه وحرية فكره ورغبته في القياس العقلي لم يكن يرى بأساً من نقل علوم اليونان الى العربية وانه بدأ بنقل كتب الفلسفة والمنطق تابيداً لمذهب الاعتزال ثم جعل الترجمة عامة لكل مؤلفات ارسطو في الفلسفة وغيرها • وقد

ابتداءً بترجمة تلك الكتب في اعوام بضعة عشر ومائتين فتلقى المعتزلة تلك الفلسفة تلقى الظمان لموارد الماء واقبلوا على تصفحها والتبحر فيها فاشتد ساعدهم بها ^(١) فقولد من اشتغال المسلمين بالفلسفة علم الكلام ^(٢) كما تولد من اشتغال النصارى بها « الفلسفة الافلاطونية الجديدة »

المأمون ونقل الكتب

وقد ذكروا مباشرة المأمون نقل تلك الكتب اسباباً كثيرة — قال ابو اسحق التميمي صاحب كتاب الفهرست في سبب ذلك ان المأمون رأى في منامه ارسطوطاليس الحكيم وسأله بعض الاسئلة فلما نهض من منامه طلب ترجمة كتبه فكتب الى ملك الروم يسأله الاذن في انفاذ ما يختار من العلوم القديمة المذخرة ببلد الروم فاجابه الى ذلك بعد امتناع فاخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج بن مطر وابن البطريق وسلمأ صاحب بيت الحكمة وغيرهم فاختدوا مما وجدوا ما اختاروا فلما حملوه اليه أمرهم بنقله فنقل ^(٣) وذكر نحو ذلك ابن ابي اصيبعة صاحب طبقات الاطباء وابو الفرج صاحب مختصر الدول وغيرهما والغالب في ظننا انهم نقلوا ذلك عن ابن اسحق المذكور . ومهما يكن السبب فلا مشاحة في ان المأمون بذل جهده في استخدام الترجمة لنقل تلك الكتب وغيرها . وكان ينفق في سبيل ذلك بسخاءً حتى اعطى وزن ما يترجم له ذهباً . وكان لشدة عنايته في النقل يضع علامته على كل كتاب يترجم له . وكان يحرض الناس على قراءة تلك الكتب ويرغبهم في تعلمها وكان يخلو بالحكماء ويانس بمنظراتهم ويلتذ بمذاكراتهم ^(٤) واقتدى بالمأمون كثيرون من اهل دولته وجماعة من اهل الوجة والثروة في بغداد فتقاطر اليها المترجمون من انحاء جزيرة العراق والشام وفارس وفيهم النساطرة واليعاقبة والصابئة والمجوس والروم والبراهمة يترجمون من اليونانية والفارسية والسريانية والسانسكريتية والنبطية واللاتينية وغيرها . وكثرت في بغداد الوراقون وباعة الكتب وتعددت مجالس الادب والمناظرة وأصبح هم الناس البحث والمطالعة وظلت تلك النهضة مستمرة بعد المأمون الى عدة من خلفائه حتى نقلت أهم كتب القدماء الى العربية

(١) المقرئ ٢٥٧ ج ٢ (٢) الشهرستاني ١٨ ج ١
(٣) الفهرست ٢٤٣ (٤) ابو الفرج ٢٣٦ وطبقات الاطباء

نقطة العلم في العصر العباسي

رأيت في ما تقدم ان السريان كانوا في نهضة علمية قبيل الاسلام وانهم أخذوا في نقل كتب اليونان الى لسانهم ودرسوا كثيراً منها وخصوصاً الفلسفة والطب وبرزوا في هذه الصناعة حتى تولى بعضهم رئاسة مارتستان جنديسابور كما تقدم وان اللغة اليونانية كانت تعلم في مدارسهم . فلما انتقل كرسي الخلافة الى بلادهم (العراق) وعمرت بغداد بالوافدين من اطراف المملكة الاسلامية وغيرها كان اولئك السريان من جملة الوفود التماساً للرزق فتعلموا لسان العرب كما نتعلم نحن لغة الانكليز اليوم لهذا السبب . وطاب لهم الاختلاط بالعرب او المسلمين لما آنسوه من عدل العباسيين في أول دولتهم واطلاق حرية الاديان لرعاياهم حتي كثيراً ما كانوا يوسطونهم في فض الخلاف بين طوائفهم او اساقفتهم . ولهذا السبب أيضاً انتقل جماعة الفرس الى بغداد وكانوا اهل دولة وحكومة فاستخدمهم الخلفاء في ادارة شؤون حكومتهم وفيهم جماعة كبيرة من اهل العلم والادب واستقدم الخلفاء ايضاً جماعة من اطباء الهند للانتفاع بطبهم

فلما أراد الخلفاء نقل كتب العلم الى العربية كان واسطة ذلك النقل اهل العراق والشام وفارس والهند . فرغبهم الخلفاء في ذلك بالبذل الكثير وجعلوا لبعضهم رواتب وجواري وبالغوا في اكرامهم ومحاسنتهم فتكاثروا واكثرهم من السريان النساطرة لانهم اقدر على الترجمة من اليونانية واكثر اطلاعاً على كتب الفلسفة والعلم اليوناني . وفيهم جماعة من اهل فارس والهند وغيرهم للنقل من الفارسية او الهندية وكان اكثرهم تتوالى الترجمة في اعقابهم فيتولاها هو واولاده واحفاده . واليك اشهر نقطة العلم في العصر العباسي :

(١) آل مجنثشوع : وهم من السريان النساطرة اولهم جورجيس بن مجنثشوع طبيب المنصور وقد تقدم ذكره وخلفه عندهم ابنه مجنثشوع بن جورجيس استقدمه الرشيد من جنديسابور كما استقدم المنصور اياه قبله . فلما دخل على الرشيد دعا له بالفارسية والعربية فقال الرشيد لوزيره يحيى امتحنه فدعا يحيى الاطباء لامتحانهم وهم ابو قريش عيسى وعبد الله الطيفوري وداود بن سرايون وغيرهم فلما رأوه قال ابو قريش « يا امير المؤمنين ليس في الجماعة من يقدر على الكلام مع هذا لانه كون الكلام وهو وابوه وجنسه فلاسفة » ويدل ذلك على منزلة آل مجنثشوع من العلم والفلسفة . فولاه الرشيد رئاسة الاطباء وخلفه فيها ابنه جبريل وكان حظياً عند الخلفاء ونال

جوائزهم وعطاياهم • وكان له من الرواتب شيء كثير قد فصلناه في الجزء الثاني من هذا الكتاب • وخلفه ابنه بختيشوع بن جبريل وقد بلغ من عظم المنزلة والحال وكثرة المال ما لم يبلغه أحد من اطباء عصره ومنهم جبريل بن عبيد الله بن بختيشوع خدم المقتدر العباسي وخلفه عبيد الله بن جبريل • فهؤلاء ستة من آل بختيشوع كلهم من مهرة الاطباء ولم يكن في الترجمة منهم الا جورجيس الاول وانما اوردنا ذكرهم لان اكثرهم الف في الطب كتباً مفيدة وبعضهم استخدم الترجمة في نقل بعض كتب الطب الى السريانية ^(١)

(٢) آل حنين : اولهم حنين بن اسحق العبادي شيخ المترجمين وهو من نصارى الحيرة ولد سنة ١٩٤ هـ وكان أبوه صيرفياً ولما ترعرع انتقل الى البصرة فالتقى فيها العربية ثم انتقل الى بغداد ليشغل بصناعة الطب فتي في ذلك مشقة لان الاطباء وخصوصاً اهل جنديسابور كانوا يكرهون ان يدخل في صناعتهم ابناء التجار • وكان عمر مجالس الطب في بغداد يومئذ مجلس يوحنا بن ماسويه احد متخرجي مارستان جنديسابور فجعل حنين يحضره • فالتقى انه سأله مرة مسألة مما كان يقرأ عليه فغضب يوحنا وقال « ما لاهل الحيرة وصناعة الطب فصر الى فلان قرابتك حتى يهب لك خمسين درهماً تشتري بها قفافاً صفاراً بدرهم وزرنيخاً بثلاثة دراهم واشتر الباقي فلوساً كوفية وفارسية وزرنيخ القادسية في تلك القفاف واقعد على الطريق وصح الفلوس الحياد للصدقة والتفقه وبع الفلوس فانه اعود عليك من هذه الصناعة » ثم أمر به فاخرج من داره

نخرج حنين باكياً مكروباً وقد بعته ذلك على زيادة النشاط للسمي في تعلم الطب بلغته الاصلية — فغاب عن بغداد سنتين ثم عاد وقد تعلم اليونانية وادابها في الاسكندرية وحفظ اشعار هوميروس ^(٣) فأصبح اعلم اهل زمانه بالسريانية واليونانية والفارسية فضلاً عن العربية واصبح اطباء بغداد في حاجة اليه لنقل الكتب حتى ابن ماسويه نفسه فانه استخدمه في نقل بعض كتب جالينوس الى السريانية وبعضها الى العربية واحتذى فيها حذو الاسكندرانيين ^(٤) • وترجم أيضاً لجبريل بن بختيشوع كتاب التشريح لجالينوس وكان جبريل يخاطبه بالتبجيل فيقول له « ربن حنين » في اصطلاح السريان اي « يامعلمنا حنين » ولما اراد المأمون نقل فلسفة اليونان الى العربية سأل عن من يستطيع ذلك فارشدوه

(١) طبقات الاطباء ١٣٨ ج ١ (٢) طبقات ١٨٥ ج ١

(٣) طبقات الاطباء ١٨٩ ج ١

الى حنين لانه لم يكن ثمة من يضاهيه وهو لا يزال شاباً فخرج المأمون جماعة من الترجمة وهم الحجاج بن مطر وابن البطريق وسلم صاحب بيت الحكمة وغيرهم وعليهم حنين المذكور ليصلح ما يترجمونه . وكان المأمون يعطيه من الذهب زنة ما ينقله الى العربي مثلاً بمثل ولذلك فقد كان حنين يكتب الترجمة بحروف غليظة واسطر متفرقة على ورق غليظ جداً التعظيم حجم الكتاب وتكثير وزنه . وذكروا ان حينئذ رحل بنفسه في طب الكتب من بلاد الروم لنقلها وكان يترجم أيضاً لبني شاعر الآتي ذكرهم ولغيرهم

وكان لحنين ولدان داود واسحق صنف لهما كتباً طبية في المبادئ والتعليم ونقل لهما كتباً كثيرة من مؤلفات جالينوس فافلح اسحق وتميز واشتغل في الترجمة مثل أبيه من اليونانية الى العربية الا ان عنايته كانت مصروفة الى نقل كتب الحكمة مثل كتب ارسطوطاليس وغيره من الحكماء . أما أبوه فكان أكثر اشتغاله في نقل كتب الطب وخصوصاً كتب جالينوس . ويندر أن يوجد من كتب جالينوس كتاب الا وهو بنقل حنين او باصلاحه وما لم يكن كذلك لم يكن معتبراً عندهم لبراعة حنين في العربية فضلاً عن تمهره بصناعة الطب . واشتغل حنين في زمن المتوكل (تولى سنة ٢٣٣ هـ) فاختاره لرئاسة الترجمة فعين جماعة من الترجمة كاصطفان بن باسيل وموسى بن خالد فكانوا يترجمون ويتصفح حنين ترجماتهم وينقحها . وكان يلبس زناراً على عادة النصارى في تلك الايام وتوفي سنة ٢٦٤ هـ . واشتهر ابنه اسحق أيضاً وأكثر نقله من كتب ارسطو في الفلسفة وشروحها وكان مع أبيه ثم انقطع للقاسم بن عبيدالله وزير المعتضد وكان يفضي اليه بأسراره وله فضلاً عن المنقولات ومؤلفات في الطب والصيدلة وغيرهما

(٣) حبيش الاعسم الدمشقي : هو حبيش بن الحسن الدمشقي ابن اخت حنين ابن اسحق وقد تعلم صناعة الطب منه وكان قد سلك مسلكه في الترجمة — وقيل من جملة سعادة حنين صحبة حبيش له فان أكثر ما نقله حبيش نسب الى حنين وكثيراً ما يرى الناس شيئاً من الكتب القديمة مترجماً بنقل حبيش فيظنه لحنين وقد صحف فيكشطه ويجعله لحنين^(١)

(٤) قسطا بن لوقا البعلبيكي : وهو من نصارى الشام وكان طبيباً حاذقاً وفيلسوفاً نبيلاً رحل الى بلاد الروم في طاب العلم وكان عالماً باللغات اليونانية والسريانية والعربية ونقل كتباً كثيرة من اليونانية الى العربية وكان جيد النقل واصلاح نقولاً كثيرة وألف

رسائل عديدة في الطب • وكان حسن العبارة جيد القريحة وفضلاً عما نقله فله مؤلفات كثيرة في الطب والتاريخ والفلسفة والفلك والجبر والمقابلة والهندسة والمنطق والأدب والدين ما يزيد على مئة كتاب • قال أبو الفرج الماطي « لو قلت حقاً لقات أنه أفضل من صنف كتاباً بما احتوى عليه من العلوم والفضائل ومارزق من الاختصار للالفاظ وجمع المعاني »

(٥) آل ماسرجويه : أولهم ماسرجويه متطبب البصرة وهو يهودي المذهب سرياني اللغة وكان ينقل من السرياني الى العربي وقد تقدم ذكره • ثم ابنه عيسى بن ماسرجويه وكان يلحق بابيه ولهما مؤلفات في الطب

(٦) آل الكرخي : أولهم شهدي الكرخي من أهل الكرخ وكان قريب الحال في الترجمة • ثم ابنه وكان مثل أبيه في النقل ثم فاق أباه في آخر عمره ولم يزل متوسطاً وكان ينقل من السرياني الى العربي

(٧) آل ثابت : أولهم ثابت بن قره الحراني وهو من الصائبة المقيمين في حران وكان صيرفياً ثم تعلم الطب والفلسفة والنجوم وكان مع ذلك يعرف اللغة السريانية جيداً وكان جيد النقل الى العربية وله تصانيف كثيرة في الرياضيات والطب والمنطق وله في السريانية كتاب في مذهب الصائبة • وكان في خدمة المعتضد العباسي وبلغ عنده أجل المراتب حتى كان يجلس في حضرته في كل وقت ويحادثه طويلاً ويضاحكه ويقبل عليه دون وزرائه وخاصته • يليه ابنه سنان بن ثابت وكان مقدماً عند القاهرة بالله وله تصانيف كثيرة وكذلك ابنه ثابت بن سنان ولكنهما لم ينقل شيئاً

(٨) الحجاج بن مطر : كان في جملة من ترجم للأماون وقد نقل كتاب المحسني واقليدس الى العربية ثم أصلح نقله فيما بعد ثابت بن قره الحراني
(٩) ابن ناعمة الحمصي : هو عبد المسيح بن عبدالله الحمصي الناعمي كان متوسط الثقل وهو الى الجودة اميل • ومن بيت الناعمة الحمصي أيضاً زروبا بن مانحوه وكان اضعف من سابقه

(١٠) اسطفان بن باسيل : كان يقارب حنين بن اسحق في جودة النقل الا ان عبارة حنين كانت افصح واحلى

(١١) موسى بن خالد : ويعرف بالترجمان نقل كتباً كثيرة من الستة عشر للجالينوس وهو دون حنين

- (١٢) سرجيس الرأسي : هو من مدينة رأس العين في جزيرة العراق نقل كتباً كثيرة وكان متوسطاً في النقل وخزين كان يصلح نقله
- (١٣) يوحنا بن بختيشوع : هو من غير آل بختيشوع المتقدم ذكرهم وكان ينقل الكتب من اليوناني الى السرياني وليس الى العربي
- (١٤) البطريق : كان في أيام المنصور وقد أمره بنقل أشياء من الكتب القديمة وله نقل كثير جيداً إلا أنه دون نقل خزين
- (١٥) يحيى بن البطريق : كان في جملة الحسن بن سهل وكان لا يعرف العربية حق معرفتها ولا اليونانية وإنما كان يعرف اللاتينية^(١)
- (١٦) ابو عثمان الدمشقي : كان من النقلة المجيدين الى العربية
- (١٧) ابو بشر متى بن يونس : من اهل دير قتي تفقه في مدرسة مارماري على اساتذة عظام واليه انتهت رئاسة المنطقيين في عصره
- (١٨) يحيى بن عدي : هو من اهل المنطق في القرن الرابع للهجرة قرأ على متى بن يونس وعلى ابي نصر الفارابي وهو يعقوبي المذهب خلافاً لأكثر المترجمين السريان وكان سريع الخط يكتب في اليوم واليلة مئة ورقة^(٢)
- هؤلاء اشهر نقلة العلم من اليوناني او السرياني الى العربي . وقد اكتفينا بما تقدم للاختصار واما النقلة من اللسانة الأخرى فمنهم من نقل من الفارسية الى العربية كابن المقفع وآل نوبخت وقد تقدم ذكر نوبخت كبيرهم ولابنه الفضل بن نوبخت نقل من الفارسي الى العربي في النجوم وغيرها . ومنهم موسى ويوسف ابنا خالد وكانا يخدمان داود بن عبدالله بن حميد بن قحطبة وينقلان له من الفارسية الى العربية وعلي بن زياد التميمي ويكنى أبا الحسن نقل من الفارسي الى العربي كتاب زيج الشهرار والحسن بن سهل وكان من النجمين . والبلاذري احمد بن يحيى وجبلة بن سالم كاتب هشام واسحق بن يزيد نقل سيرة الفرس المعروفة باختيارنا . ومنهم محمد بن الجهم البرمكي وهشام بن القاسم وموسى بن عيسى الكردي وعمر بن الفرخان وغيرهم
- ومن الذين نقلوا من اللغة السنسكريتية (الهندية) منكم الهندي كان في جملة اسحق ابن سليمان بن علي الهاشمي ينقل من اللغة الهندية الى العربية . وابن دهن الهندي وكان اليه مارستان البراهمة نقل من الهندي الى العربي^(٣)

ومن الذين نقلوا من اللغة النبطية (الكلدانية) الى العربية ابن وحشية نقل كتباً كثيرة سيأتي ذكرها

السوريون ونقل العلم

اذا تدبرت ما تقدم من اخبار النقلة ومواطنهم وملهم رأيت معظمهم من السوريين سكان الشام والجزيرة والعراق . وللسور بين شأن كبير في نشر العلوم بين الامم او نقلها من امة الى اخرى او من لسان الى لسان من اقدم ازمنة التاريخ — يساعدهم على ذلك نشاطهم وذكرهم واقدامهم وتوسط بلادهم بين الشرق والغرب

فالسوريون (او الفينيقيون) هم الذين نشروا احرف الهجاء في العالم قبل الميلاد ببضعة عشر قرناً خملوها معهم في اثناء اسفارهم التجارية الى بلاد اليونان والكلدان ولا تزال صورها واسماؤها عند سائر امم العالم المتمدن شاهدة بذلك الى اليوم . وهم الذين توسطوا في نقل العلوم والآداب بين المصريين والكلدانيين ثم نقلوها الى اليونان القدماء كما تقدم . وكانوا يدرسون اللغات اليونانية والنبطية والبابلية وغيرها من لغات الامم المتدنة في تلك الاعصر كما يدرسون اليوم الانكليزية والفرنساوية وغيرها من لغات ممالك التمدن الحديث لنقل العلم او الاتجار او الانتفاع من الخدمة في مصالح تلك الدول

ولما تمدن اليونان واستتبطنوا الفلسفة والمنطق وغيرها ونشبت علومهم وانتقلت بفتح الاسكندر الى العراق والشام تلقاها السوريون ونقلوها الى لسانهم و اضافوا اليها بعد انتشار النصرانية الآداب النصرانية اليونانية وحفظوها مع الفلسفة اليونانية في اديرتهم ثم كانت مصدراً للعلم والفلسفة الى بلاد فارس والهند وغيرها

وكان السوريون في دولة الفرس الساسانية الواسطة الكبرى في نقل علوم اليونان وطبهم وفلسفتهم الى الفرس . ولما بنى كسرى انوشروان مارستان جنديسابور لتعليم الطب والفلسفة كما تقدم كان جل معتمده في ذلك على نصارى العراق والجزيرة . ناهيك بما حفظ من الآداب السامية على صبغته الوثنية في حرّان لان اهلها ظلوا على ديانتهم القديمة . غير ما حفظه اهل العراق من آداب قدماء الكلدان وعلومهم

فلما ظهر الاسلام واراد الخلفاء نقل العلوم الى العربية كان السوريون ساعدهم الاقوى في نقلها من اللغات المعروفة في ذلك العهد وفيهم الحمصي والبلعكي والدمشقي والحيري والحراني

والبصري . ونقل العلوم من لسان الى آخر لا يتيسر الا باستيعاب تلك العلوم وتفهمها فضلاً
عن اتقان اللغات اللازمة لذلك . ولهذا كان أكثر أولئك المترجمين من اهل العلم الواسع
في ما اشتغلوا بنقله وفيهم من ألف في أكثر فروع العلم او الفلسفة او المنطق او الطب وغيرها
وذلك شان السوربين ايضاً في علوم التمدن الحديث فقد كانوا من أكثر الناس
اشتغالاً في نقلها من لغات اوربا المختلفة الى اللغة العربية ولا يزالون في ذلك الى اليوم

نقل العلم لغير الخلفاء

قد رأيت في مائقدم ان الخلفاء هم الذين سعوا في نقل كتب العلم على يد التراجم .
فلما نقل بعض تلك الكتب واطلع عليها اهل بغداد نهض جماعة من كبرائهم واقتدوا بالخلفاء
في نقلها واستخدموا التراجم وبذلوا الاموال في البحث عنها وترجمتها
وأشهر هؤلاء ثلاثة يعرفون ببني شاكر أو بني موسى لانهم اولاد موسى بن شاكر
وهم محمد واحمد والحسن وتعرف اولادهم بعدهم ببني المنتجم . وكان والدهم موسى
يصحب المأمون والمأمون يرعى حقه في اولاده هؤلاء . اما موسى فلم يكن من اهل العلم
والادب بل كان في حداته حرامياً يقطع الطريق ويتزيا بزي الجند وكان شجاعاً مجرباً
وكان يصلي العتمة مع جيرانه في المسجد ثم يخرج مبتكراً فيقطع الطريق على فراسخ
كثيرة في طريق خراسان ويركب فرساً له اشقر يشد على قوائمه خرقاً بيضاء ليومهم من
يراه في الليل انه محجل . وكان له جاسوس يأتيه بخبر من يخرج ومعه مال وربما لقي
الجماعة وفارسهم وغلبهم فيصرف من ليلته فيصلي الصبح مع الجماعة في المسجد . فلما
كثر فعله واشتهر أتيهم فشهد له الجماعة بملازمته الصلاة معهم فاشتبه امره . ثم انه تاب
ومات وخلف هؤلاء الثلاثة صغاراً فوصى بهم المأمون اسحق بن ابراهيم المصعبي واثبتهم
مع يحيى بن ابي منصور في بيت الحكمة . وكان المأمون اذا سافر بعث الى اسحق ان
يراعيهم حتى قال اسحق « جعلاني المأمون داية لاولاد موسى » وكانت حالهم رثة رقيقة
وأرزاقهم قليلة . ولكنهم خرجوا نهاية في علومهم وكان اكبرهم وأجلهم محمد وكان وافر
الخط في الهندسة والتجوم عالماً باقليدس والمجسطي وغيرهما من علوم الفلك والطبيعات
والرياضيات . وكان اخوه احمد دون اخيه في العلم الا صناعة الحيل (الميكانيكات) فانه
قد فتح له فيها ما لم يفتح مثله لاخيه . وكان اخوهما الحسن منفرداً بالهندسة وله طبع

كتب ارسطوطاليس

- | | | |
|----|-------------------------------|---|
| ١ | فاطيغورياس اي المقولات | نقله حنين بن اسحق |
| ٢ | كتاب العبارة | » » الى السريانية واسحق الى العربية |
| ٣ | تحليل القياس | » ثيادورس واصلمه حنين |
| ٤ | كتاب البرهان | » اسحق الى السرياني ومتى الى العربي |
| ٥ | » الجدل | » » » ويحيى » » |
| ٦ | » المغالطات او الحكمة الموهمة | { ابن ناعمه وابو بشر الى السرياني
» ويحيى الى العربي |
| ٧ | » الخطابة | » اسحق وابراهيم بن عبدالله |
| ٨ | » الشعر | » ابو بشر من السرياني الى العربي |
| ٩ | » السماع الطبيعي | { ابوروح الصابي وحنين ويحيى
» وقسطا وابن ناعمة |
| ١٠ | » السماء والعالم | » ابن البطريق واصلمه حنين |
| ١١ | » الكون والفساد | { حنين الى السرياني واسحق والدمشقي
» الى العربي |
| ١٢ | » الآثار العلوية | » ابو بشر ويحيى |
| ١٣ | » النفس | » حنين الى السرياني واسحق الى العربي |
| ١٤ | » الحس والمحسوس | » ابو بشر متى بن يونس |
| ١٥ | » الحيوان | » ابن البطريق |
| ١٦ | » الحروف او الالهيات | » اسحق ويحيى وحنين ومتى |
| ١٧ | » الاخلاق | » اسحق |
| ١٨ | » المرأة | » الحجاج بن مطر |
| ١٩ | » اثولوجيا | » |

ولكتب ارسطو شروح وتعليق لبعض تلامذته او من جاء بعده كثاوفرستس
وديدوخس برقلس والاسكندر الافروديسي وفرفوريوس وامونيوس وتامسطيوس ونيقولاوس
وفلوطرخس ويحيى النخوي وغيرهم . وبعض هؤلاء مؤلفات خاصة وكها في الفلسفة وفروعها

وقد نقل كثير منها الى العربية ولم يعلم ناقلها فاغفينا عن ذكرها وقد ذكرها صاحب الزهرست
وذكروا جالينوس في جملة كتبه الطبية الا في بيانها بضعة كتب في الفلسفة والادب
وهي كتاب ما يعتقد رايًا ترجمه ثابت وكتاب تعريف المرء عيوب نفسه نقله توما واصلحه
حنين وكتاب الاخلاق نقله حبش وكتاب انتفاع الاخيار باعدائهم نقله حبش والمحرك
الاول لا يتحرك نقله حبش وعيسى وغيرها

٢ - كتب الطب وفروعه

كتب ابقراط

- | | | |
|----|------------------|---|
| ١ | كتاب عهد ابقراط | حنين الى السريانية وحبش وعيسى الى العربية |
| ٢ | » الفصول | نقله حنين لمحمد بن موسى |
| ٣ | » الكسر | » » » |
| ٤ | » مقدمة المعرفة | » وعيسى بن يحيى |
| ٥ | » الامراض الحادة | عيسى بن يحيى |
| ٦ | » ابيديميا | » » » |
| ٧ | » الاخلاط | » » » لآحمد بن موسى |
| ٨ | » قاطيطيون | حنين لمحمد بن موسى |
| ٩ | » الماء والهواء | » وحبش |
| ١٠ | » طبيعة الانسان | » وعيسى |

كتب جالينوس

واشهر كتب جالينوس الكتب الستة عشر وهي كتاب الفرق . الصناعة . كتاب
النض . شفاء الامراض . المقالات الخمس . الاسطصات . كتاب المزاج . القوى
الطبيعية . العلل والامراض . تعرف علل الاعضاء الباطنة . كتاب النض الكبير .
كتاب الحماميات . البحران . ايام البحران . تدبير الاصحاء . حيلة البرء . وقد نقلها كلها
حنين بن اسحق الى العربية الا كتاب العلل الباطنة . وكتاب النض الكبير .
وكتاب تدبير الاصحاء وكتاب حيلة البرء فقد نقلها حبش اما ما بقي من كتب جالينوس
الطبية فاليك امساؤها مع اسماء ناقلها :

٢٥ علل الصوت	حنين	١	التشريح الكبير	حيش الاعسم
٢٦ الحركات المجهولة	"	٢	اختلاف التشريح	" "
٢٧ افضل الهيئات	"	٣	تشريح الحيوان الحي	" "
٢٨ سوء المزاج المختلف	"	٤	" " الميت	" "
٢٩ الادوية المنردة	"	٥	علم ابقراط بالتشريح	" "
٣٠ المولود لسبعة اشهر	"	٦	الحاجة الى النبض	" "
٣١ رداءة التنفس	"	٧	علوم ارسطو	" "
٣٢ الذبول	"	٨	تشريح الرحم	" "
٣٣ قوى الاغذية	"	٩	اراء ابقراط وافلاطون	" "
٣٤ التدبير الملطف	"	١٠	العادات	" "
٣٦ مداواة الامراض	"	١١	خصب البدن	" "
٣٦ ابقراط في الامراض الحادة	"	١٢	المني	" "
٣٧ الى تراسبولوس	"	١٣	منافع الاعضاء	" "
٣٨ الطبيب والفيلسوف	"	١٤	تركيب الادوية	" "
٣٩ كتب ابقراط الصحية	"	١٥	الرياضة بالكرة الصغيرة	" "
٤٠ مخنة الطبيب	"	١٦	" " الكبيرة	" "
٤١ افلاطون في طبائس	واسحق	١٧	الحث على تعليم الطب	" "
٤٢ مقدمة المعرفة	عيسى	١٨	قوى النفس ومزاج البدن	" "
٤٣ الفصد	عيسى واصطفان	١٩	حركات الصدر	} نقلد اصطفان واسلحه حنين
٥٤ صفات لصبي يصرخ	ابن الصلت			
٤٥ الاورام	" "	٢٠	علل النفس	اصطفان واسلحه حنين
٤٦ الكيموس	ثابت وحيش	٢١	حركة العضل	" " "
٤٧ الادوية والادواء	عيسى	٢٢	الحاجة الى النفس	" " "
٤٨ الترياق	ابن البطريق	٢٣	الامتلاء	" "
		٢٤	المرة والسوداء	" "

وهناك كتب في الطب وتوابعه ذكرها صاحب الفهرست ولم يذكر ناقلها • وأما مؤلفوها فمنها بضعة وعشرون كتاباً لروفس من أهل أفسس كان قبل جالينوس ولعلماء

لم تنقل كلها • وما ذكرنا قلوبه بضعة كتب لاورياسيوس وهي كتاب الأدوية المستعملة نقله اسطفان بن باسيل وكتاب السبعين مقالة نقله حنين وعيسى بن يحيى الى السريانية وكتاب الى ابنه اسطاث نقله حنين وكتاب الى ابيه اونايس نقله حنين • ولديسقوريدس العين زربي ويقال له السائح في البلاد لسياحته في طلب العقاقير والحشايش كتاب في الحشايش سيأتي تاريخ نقله • ولاسكندروس كتاب البرسام نقله ابن البطريق وغير هؤلاء مما لم يعرفنا قلوبه

٣ - كتب الرياضيات والنجوم ومبادئ العلوم

ويشتمل الذنار في ذلك على علم النجوم والهندسة والحساب والموسيقى والميكانيكيات وهالك خلاصة الكلام فيها :

(١) كتب اقليدس : منها اصول الهندسة نقله الخجاج بن مطار نقلين الهاروني والمأموني ونقله اسحق بن حنين واصلحه ثابت بن قرة ونقله أبو عثمان الدمشقي ولايزال هذا الكتاب باقياً الى الآن • ومن كتب اقليدس التي لم يعرف ترجموها كتاب الظاهرات وكتاب اختلاف المناظر وكتاب الموسيقى وكتاب القسمة وكتاب القانون وكتاب الثقل والحنة

(٢) كتب ارخميدس : وقد تقدم ذكرها في كلامنا عن آداب اليونان وهي عشرة ولم يعرفنا قلوبها

(٣) ابوليونيوس : صاحب كتاب المخروطات وكتاب قطع السطوح وقطع الخطوط والنسبة المحدودة والدوائر المماثلة ولم يعرفنا قلوبها

(٤) منالوس : له كتاب الاشكال الكروية وكتاب اصول الهندسة نقله الى العربي ثابت بن قرة

(٥) بطليموس القلوذي : صاحب كتاب المجسطي الشهير وقد تقدم خبر نقله وتفسيره على يد يحيى البرمكي • ولبطليموس أيضاً كتاب الاربعة نقله ابراهيم بن الصلت وأصلحه حنين وكتاب جغرافيا المعمور وصفة الارض نقله ثابت الى العربي نقلاً جيداً • ولبطليموس ١٥ كتاباً آخر في الجغرافية وغيرها لم يعرفنا قلوبها

(٦) ابرخس : له كتاب صناعة الجبر ويعرف بالحدود وكتاب قسمة الاعداد لم يعرفنا قلوبها

(٧) ذيونطس : له كتاب صناعة الخبز لم يعرف ناقله
وهناك كتب عديدة في الرياضيات والهيئة والازياج ونحوها ذكرها ابن النديم ولم
يذكر ناقلها منها كتاب العمل بالاسطرلاب المسطح لابون البطريق وكتاب جرم
الشمس والقمر لارسطرخس وكتاب العمل بذات الحلق وكتاب جداول زيج بطليموس
المعروف بالقانون المسير وكتاب العمل بالاسطرلاب وكلها لثاؤن الاسكندري . غير ما تقدم
ذكره من الكتب الرياضية في أثناء ذكر كتب الفلسفة رغبة في ايرادها لاصحابها مع
سائر مؤلفاتهم . وقد نقل للمسلمين من كتب الموسيقى عن اليونانية كتاب الموسيقى
الكبير لنيقوماخس الجهراسيني وكتاب الموسيقى المنسوب لافليدس وقد تقدم ذكره
ومقالات في الموسيقى لفيثاغورس وغيره — وكتاب الريموس وكتاب الايقاع
لارسطكاس وكتاب الآلات المصوتة المسماة بالارغن البوقي والارغن الزمري لمورطس
ونقل لهم من كتب الميكانيكات غير ما جاء في كتب ارخميدس كتاب الحيل الروحانية
وكتاب شيل الاثقال لايرن وكتاب استخراج المياه لبادروغوغيا وكتاب الآلات
المصوتة على ستين ميلاً لمورطس

٢ — الكتب المنقولة عن الفارسية

اكثر الكتب المنقولة عن الفارسية في النهضة العباسية من قبيل الآداب والاعمال
والسبر والاشعار وبعضها في النجوم مما نقله آل نوحخت وعلي بن زياد التيمي وغيرهم . اما
ما بقي من كتبهم المنقولة الى العربية فهي مع اسماء ناقلها :

١ كتاب رسم واسفنديار جبلة بن سالم	٩ كتاب الاداب الصغير عبد الله بن المقفع
٢ » بهرامشوس » »	١٠ » اليتيمة » »
٣ » خديانامه في السير عبد الله بن المقفع	١١ » هزار افسانه لم يذكر ناقله
٤ » آيين نامه » »	١٢ » شهرزاد مع ابرويز » »
٥ » كليله ودمنة » »	١٣ » الكارنامج انوشروان » »
٦ » مزدك » »	١٤ » دارا والصنم الذهب » »
٧ » التاج في سيرة » »	١٥ » بهرام وزرسي » »
» انوشروان	١٦ » هزارستان » »
٨ » الاداب الكبير » »	١٧ » الدب والتعلب » »

١٨ سير ملوك الفرس وهي غير كتاب ترجم أحدها محمد بن جهم البرمكي والآخرون ترجمه زادويه بن شاهويه الاصفهاني والآخرون محمد بن بهرام بن مطيار الاصفهاني^(١) ومما يجب ذكره من مترجمات الفرس وان كان من مؤلفاتهم بعد نشوء التمدن الاسلامي كتاب « شاهنامه » التي نزلها الفردوسي للسلطان محمود الغزنوي سنة ٣٨٤ هـ في نحو ٦٠,٠٠٠ بيت على نسق الياذة هوميروس وقد تضمنت تاريخ الفرس القديم نقلها الى العربية الفتح بن علي البنداري الاصفهاني نثراً لملك المعظم عيسى الايوبي أتم ترجمتها سنة ٦٩٧ هـ^(٢) ولا ريب ان العرب نقلوا من اللغة الفارسية كتباً أخرى تاريخية وأدبية وخصوصاً مما يتعلق بالمذاهب القديمة ونحوها

٣ - الكتب المنقولة عن اللغة الهندية

نقل العرب عن اللغة الهندية (السنسكريتية) كثيراً من كتب الطب والنجوم والرياضيات والحساب والاسمار والتواريخ . والكتب الطبية المنقولة عنها كثيرة وان لم يصل اليها من اخبارها الا القليل لان بغداد كانت في أبان الزهو العباسي حجج العلماء والاطباء والتجار والسياح من كل الملل وكان للبرامكة عناية في استقدام أطباء الهند اليها وقد بعث يحيى بن خالد فامته قدم بضعة صالحة منهم كمنكه وبازيكر وقليرفل وسندباز وغيرهم^(٣) ويظهر مما كتبه المسامون بعد العصر العباسي في الادب او الطب او الصيدلة والسير انهم اعتمدوا في جملة مصادرهم على كتب هندية الاصل . راجع قانون ابن سينا مثلاً او الماسكي للرازي او غيرها من كتب الطب الكبرى فتراهم يذكرون بعض الامراض ويشيرون الى ان الهنود يسمونها مثلاً كذا وكذا او يعالجونها بكذا وكذا . واذا قرأت العقد الفريد لابن عبد ربه اوسراج الملوك للطرطوشي او غيرها من كتب الادب المهمة رأيت مؤلفيها اذا ذكروا بعض الآداب او الاخلاق او نحوها قالوا « وفي كتاب الهند كذا وكذا »

كتب الطب وفروعه

على اننا نعلم مما كتبه صاحب طبقات الاطباء انه اشتهر حوالي العصر العباسي جماعة

(١) رسائل شبلي في اللغة الهندستانية (٢) كشف الظنون ٤٧ ج ٢

(٣) البيان ٤٠ ج ١

من علماء الهند في الطب والنجوم والفلسفة وغيرها منهم كنيه الهندي وهو من مقدمهم
واكبرهم وخصوصاً في علم النجوم فضلاً عن الطب وله مؤلفات كثيرة منها كتاب
النوذر في الاعمار وكتاب اسرار المواليد وكتاب القرانات الكبير والصغير وكتاب في
الطب يجري مجرى الكناش وكتاب في التوهم وكتاب في احداث العالم والدور في
القران . ومنهم أيضاً صنعيل وباكر ونيرها وقد نقل كثير من مؤلفاتهم في النجوم
والطب الى اللغة العربية اما رأساً او بواسطة اللغة الفارسية بأن ينقل الكتاب من الهندي
الى الفارسي ثم ينقل من الفارسي الى العربي . منها كتاب سيرك الهندي وقد نقله من
الفارسي الى العربي عبد الله بن علي وكتاب آخر في علامات الادواء ومعرفة علاجها
أمر يحيى بن خالد البرمكي بنقله . وكتاب في ما اختلف فيه الروم والهند في الحار والبارد
وقوى الادوية وكتب أخرى في فروع الطب

ومن مشاهيرهم من كنه الهندي المتقدم ذكره بين المترجمين وقد أتى بغداد بشارة يحيى بن
خالد لمعالجة الرشيد فشفاه فأجرى عليه الرشيد رزقاً واسعاً وكان من كنه يعرف الفارسية أيضاً
فكان ينقل من الهندي الى الفارسي وله حديث طويل ذكره صاحب طبقات الاطباء .
ومنهم صالح بن بهلة الهندي جاء العراق في أيام الرشيد أيضاً ونال شهرة واسعة وخالف
اطباءها يومئذ واختلطوا به فاذا لم يكونوا نقلوا شيئاً من كتبه فلا بد من اقتباسهم شيئاً
من أراء الهند عنه

ومن مشاهيرهم أيضاً شاناك وله كتاب في السموم خمس مقالات نقله من اللسان
الهندي الى الفارسي من كنه الهندي واوعز يحيى بن خالد الى رجل يعرف بابي حاتم البلخي
بنقله الى العربي ثم نقل للمأمون على يد العباس بن سعيد الجوهري مولاه . ولجودر
الحكيم كتاب في المواليد نقل الى العربي أيضاً
ومن الكتب الطبية التي نقلت من الهندية الى لسان العرب في العصر العباسي غير
ما تقدم ذكره^(١) : —

- | | | |
|---|-------------------|---------------------|
| ١ | كتاب سسردي الطب | نقله من كنه |
| ٢ | اسماء عقاير الهند | " " لاسحق بن سليمان |
| ٣ | استانكر الجامع | " ابن دهن |

وترجمة كلب باره وهي مقالة للهند في الامراض التي تجري مجرى العنونة « وغير ذلك فيؤخذ من هذا ان الهنود اهل علم وراي في النجوم وعلموها وان المسلمين نقلوا عنهم شيئاً كثيراً

كتب الادب

واما كتب الهند في الأدب والتاريخ والمنطق والاسمار والخرافات مما نقل الى العربية فاولها كتاب كيلة ودمنة وقد نقل عن طريق الفارسية كما تقدم وبعد نقله الى العربية نظموه شعراً كما نظمه الفرس من قبلهم . ومن نظمه في العربية ابان بن عبد الحميد بن لاحق بن غنير الرقاشي وعلي بن داود . (٢) كتاب سندباد الكبير (٣) كتاب سندباد الصغير (٤) كتاب البد (٥) كتاب يوداسف (٦) يوداسف مفرد (٧) كتاب ادب الهند والصين (٨) كتاب هابل في الحكمة (٩) كتاب الهند في قصة هبوط آدم (١٠) كتاب طرق (١١) كتاب ديك الهندي في الرجل والمرأة (١٢) كتاب حدود منطق الهند (١٣) كتاب ساديرم (١٤) كتاب ملك الهند القتال والبراح (١٥) كتاب بيدبا في الحكمة^(١) ومما نقله العرب من الهنود كتاب في الموسيقى اسمه في الهندية (ياافر) ومعناه يمتاز الحكمة وفيه اصول الاخوان وجوامع تأليف النغم^(٢)

٤ - الكتب المنقولة عن النبطية

قد رأيت في ما تقدم كتباً كثيرة فلسفية وطبية نقلت من اليوناني الى العربي بواسطة اللغة السريانية اخت النبطية او هي عينها فلا تعرض لذكرها . وانما المراد بهذا الباب الكتب التي كانت مكتوبة في اللغة الكلدانية او النبطية ونقلت الى العربية رأساً ولولا نقلها لضاع . واهم تلك الكتب كتاب الفلاحة النبطية فانه فريد في بابها وقد نقله الى العربية احمد بن علي بن المخنار النبطي المعروف بابن وحشية سنة ٢٩١ هـ وظل معتمد اهل الزراعة الى امد غير بعيد وقد نقل الى اللغات الافرنجية ولولا نقله الى العربية لضاع وخسر العالم كما يؤخذ من مطالعة مقدمته فقد قال ابن وحشية وهو يلي الكتاب على علي بن محمد ابن الزيات سنة ٣١٨ هـ « اعلم يا بني اني وجدت هذا الكتاب في كتب الكسديين (الكلدان او النبط) يترجم معناه في العربية كتاب فلاحه الارض واصلاح الزرع والشجر والثمار ودفع الآفات عنها . وكان هؤلاء الكسدانيون اشد غيرة عليها لئلا يظهر هذا الكتاب

فكانوا يحفونهم بمجهودهم . وكان الله عز وجل قد رزقني المعرفة بلغتهم ولسانهم فوصلت الى ما اردت من الكتب بهذا الوجه . وكان هذا الكتاب عند رجل مميّز فاختفى عني علمه فلما اطلعت عليه لمته في اخفاء الكتاب عني وقلت له انك ان اخفيت هذا العلم دثر ومضى ولا يبقى لاسلافك ذكر . ما يصنع الانسان بكتب لا يقرأها ولا ينجلي من يقرأها فهي عنده بمنزلة الحجارة والمدر . فصدقني في ذلك واخرج اليّ الكتب فجعلت انقل كتاباً بعد كتاب . فكان اول كتاب نقلته كتاب دواناي البالي في معرفة اسرار الفلك والاحكام على حوادث النجوم وهو كتاب عظيم المحل ونقلت كتاب الفلاحة هذا بتمامه الخ «^(١)»
(٢) كتاب طرد الشياطين ويعرف بالاسرار (٣) كتاب السحر الكبير (٤) كتاب السحر الصغير (٥) كتاب دوار على مذهب النبط (٦) كتاب مذاهب الكلدانيين في الاصنام (٧) كتاب الاشارة في السحر (٨) كتاب اسرار الكواكب (٩) كتاب الفلاحة الصغير (١٠) كتاب في الطلسمات (١١) كتاب الحياة والموت في علاج الامراض (١٢) كتاب الاصنام (١٣) كتاب القرايين (١٤) كتاب الطبيعة (١٥) كتاب الاسماء واكثرها من نقل ابن وحشية^(٢) غير ما لا بد من نقله من كتب الدين واخبار الكلدان القدماء

٥ - الكتب المنقولة عن العبرانية والآتينية والقبطية

لا ريب ان كثيراً من تعاليم اليهود وآدابهم المدونة في التلمود وغيره من كتبهم قد نقل الى العربية وان كنا لا نرى شيئاً منها مدوناً بصفة ترجمة لانهم كانوا ينقلونها شفاهاً للصحابة وغيرهم على ما تقدم وربما دونوا منها شيئاً وضاع . واما ما وصل الينا خبره من المنقول عن العبرانية فترجمة اسفار التوراة نقلها سعيد الفيومي المتوفى سنة ٣٣٠ هـ وهو اقدم من نقل التوراة الى العربية مما وصل الينا خبره وله ايضاً شروح وتفسير عليها^(٣)
ولا يبعد ان يكون قد نقل الى العربية بعض الكتب عن الآتينية لانها كانت تحوي كثيراً من العلوم الفلسفية والتاريخية والشرعية وغيرها وربما نقلت الاخبار ذكر ما نقل عنها . وقد رأينا في جملة المترجمين يحيى بن البطريق لا يعرف غير اللغة الآتينية وانه ترجم عدة كتب فالظاهر انه ترجمها عن الآتينية
وأما القبطية فاذا لم ينقل العرب عنها رأساً فلا نشك في انهم نقلوا كثيراً من علوم

(١) كتاب الفلاحة النبطية (خط) (٢) الفهرست ٣١٢ (٣) الفهرست ٢٣

المصريين بواسطة اللغة اليونانية وخصوصاً صناعة الكيمياء القديمة وغيرها مما برع فيه المصريون وأما الكيمياء فقد نقلت عن القبطي واليوناني معاً بأمر خالد بن يزيد^(١٢)

الخلاصة

وفي الجملة فإن المسلمين نقلوا الى لسانهم معظم ما كان معروفاً من العلم والفلسفة والطب والنجوم والرياضيات والادبيات عند سائر الامم المتقدمة في ذلك العهد ولم يغادروا لساناً من السن الامم المعروفة اذ ذلك لم ينقلوا منه شيئاً وان كان اكثر نقلهم عن اليونانية والفارسية والهندية . فاخذوا من كل امة احسن ما عندها فكان اعنادهم في الفلسفة والطب والهندسة والموسيقى والمنطق والنجوم على اليونان . وفي النجوم والسير والآداب والحكم والتاريخ والموسيقى على الفرس . وفي الطب (الهندي) والعقاقير والحساب والنجوم والموسيقى والاقتصاص على الهنود . وفي الفلاحة والزراعة والتجيم والسحر والطلاسم على الانباط والكلدان . وفي الكيمياء والتشريح على المصريين فكانهم ورثوا اهم علوم الاشوريين والبابليين والمصريين والفرس والهنود واليونان وقد مزجوا ذلك كله وعجنوه واستخرجوا منه علوم التمدن الاسلامي (الدخيلة) وما نلاحظه من امر ذلك النقل ان العرب مع كثرة ما نقلوه عن اليونان لم يتعرضوا لشيء من كتبهم التاريخية او الادبية او الشعر مع انهم نقلوا ما يقابلها عند الفرس والهنود فقد نقلوا جملة سالحة من تواريخ الفرس واخبار ملوكهم وترجموا الشاهنامة . ولكنهم لم ينقلوا تاريخ هيرودوتس ولا جغرافية استرابون ولا الياذة هوميروس ولا اوديسيته . والسبب في ذلك ان اكثر ما بعث المسلمين على النقل رغبتهم في الفلسفة والطب والنجوم والمنطق لاسباب تقدم بيانها واما التواريخ والاداب فقد كان الترجمة ينقلونها غالباً من عند انفسهم حباً في اظهار ما آثر اسلافهم او جيرانهم فالمترجمون الفرس نقلوا شيئاً من تواريخ الفرس وادابهم وكذلك فعل الترجمة السريان باداب اجدادهم وكذلك الترجمة الهنود . فلو كان في اولئك المترجمين واحد او غير واحد من اليونان لنقلوا كثيراً من تواريخ اتمتهم واشعارها . ولا ريب ان من جملة ما منعهم من نقل الالبادة الى العربية ذكر الآلهة والاصنام فيها ولكن في الشاهنامة ايضاً كثيراً من ذلك فلم يمنعهم من نقلها . ويلاحظ ايضاً ان العرب نقلوا من علوم تلك الامم في قرن وبعض القرن ما لم يستطع الرومان بعضه في عدة قرون وذلك شأن المسلمين في اكثر اسباب تقدمهم العجيب

محاسبة الخلفاء للعلماء غير المسلمين

ومن العوامل النعالة في سرعة نضج العلم في النهضة العباسية وكثرة ما ترجم في تلك المدة القصيرة ان الخلفاء اصحاب تلك النهضة كانوا يبدلون كل مرتخص وغال في سبيل نقل الكتب ويرغبون النقلة وغيرهم بالبذل والاكرام والمحاسبة بقطع النظر عن ملهم او فحلهم او انسابهم وقد كان فيهم النصراني واليهودي والصابي والسامري والمجوسي . فكانت الخلفاء يعاملونهم كغاية بالرفق والاكرام مما يصح ان يكون مثالا للاعتدال والحرية وقوة لولاة الامور في كل العصور

بلغ من اكرام المنصور لطيبه جورجيس بن بختيشوع^(١) حتى امر ان يحضروا له المشروب وهو محرم في الاسلام — وذلك انه رأى وجهه يتغير على اثر اقامته في بغداد فقال المنصور لحاجبه الربيع « ارى هذا الرجل قد تغير وجهه لا يكون قد منعه مما يشربه على عادته » قال الربيع « لم ناذن له ان يدخل الى هذه اذار مشروباً » فأجابه المنصور بقبيح وقال « لابد ان تمضي بنفسك حتى تحضره من المشروب كل ما يريد » فمضى الربيع الى قطربل وحمل منها اليه غايه ما امكنه من الشراب الجيد^(٢) وكان ذلك شأن المنصور مع اكثر اطبائه حتى كان يستشير بعضهم في اهم الامور — فلما طلب اهل خراسان عقد البيعة لابنه المهدي كان من اطبائه طبيب يهودي اسمه فرات بن شحاتا وكان حاضراً فقال له المنصور « ما تقول يا فرات » فأشار عليه بما يراه

وباغ من اكرام الرشيد لطيبه جبريل بن بختيشوع انه دعا له وهو في الموقف بكهنة دعاء كثيرًا فانكر عليه بنو هاشم ذلك وقالوا « ياسيدنا ذي » فقال « نعم ولكن صلاح بدني وقوامه به » وصلاح المسلمين في صلاحهم بصلاحه وبقائه » فقالوا صدقت يا امير المؤمنين^(٣) اما المامون فلطفه واكرامه العلماء اشر من ان يذكر

وكثيراً ما كان الخلفاء يطلقون ايدي اطبائهم في دورهم ويستشيرونهم في مهام امورهم الادارية والسياسية وربما كفوهم التوقيع عنهم . فكان المعتصم قد استطب سلمويه بن بنان النصراني وبلغ من اكرامه اياه انه كان اذا ورد الى الخليفة كتاب يقتضي توقيعاً وكان سلمويه حاضراً امره ان يوقع عنه بخطه . وكل ما كان يرد على الامراء والقواد من خروج

(١) ويقال ايضاً جورجيس بن جبرئيل (٢) طبقات الاطباء ١٢٤ ج ١

(٣) طبقات الاطباء ١٣٠ ج ١

امر او توقيع من الخليفة فخط سلمويه . وكذلك كان شان داود بن ديلم مع المعتضد^(١) ومن ادلة اكرام المعتصم سلمويه انه ولّى اخاه ابراهيم بن بنان خزن بيوت الاموال في البلاد وخافه مع خاتم الخليفة ولم يكن احد عنده مثل سلمويه واخيه في المنزلة . وكان المعتصم يدعو سلمويه « اي » وكان اذا قرب الفصح او غيره من اعياد النصارى اذن له بالذهاب الى بلده القادسية ليقم في كنيسها ويتقرب ويزوده بالاكسية والمسك والبخور . ولما اعتل سلمويه عاده المعتصم وبكى عنده وقال له « تشير عليّ بعدك بما يصلحني » فاشار عليه يوحنا بن ماسويه . فلما مات سلمويه امتنع المعتصم من اكل الطعام يوم موته وامر بان تحضر جنازته الدار ويصلى عليه بالشمع والبخور على زي النصارى الكامل ففعلوا وهو بحيث يبصرهم ويباهي في كرامته^(٢)

وكذلك كان المتوكل والمهتدي وغيرهم في اكرام الاطباء وتقديمهم والاحسان اليهم وكانوا اذا حضروا مجلس الخليفة جلسوا معه على السدة^(٣) وربما جلس الطبيب والوزراء والامراء وقوف كما كان شان ثابت بن قرة الصابي مع المعتضد بالله^(٤) . وكانت مواكبهم اذا ركبوا مثل مواكب الامراء والوزراء . وكان الخلفاء يمازحونهم ويماجنونهم وهم اول من يدخل عليهم للنظر في ما يحتاجون اليه مما يصلح ابدانهم او يختارون لهم الاطعمة المناسبة . ولم يكن الخليفة يتناول دواء الا باذن طبيبه فاذا فعل ولم يستاذنه جرّ عليه غضب الطبيب واضطرّ لاسترضائه . ذكروا ان المتوكل احتجم مرة بغير اذن طبيبه اسرائيل بن الطيفوري فغضب اسرائيل فافتدى الخليفة غضبه بثلاثة آلاف دينار وضبعة ثعل في السنة ٥٠٠٠٠ درهم^(٥) وكان جبرائيل الكحال اول من يدخل على المامون بعد الصلاة فيغسل اجفانه ويكحل عينيه فاذا اتقه من قائلته فعل مثل ذلك^(٦)

وطبيعي ان يانس الانسان بطبيبه ويكرمه وخصوصاً في دور الخلفاء في ذلك العصر والمطالبون بالخلافة كثيرون ومن اقرب الطرق الى نيل مطالبهم ان يقبلوا الخليفة بالسلم وذلك حين على الطبيب . وكثيراً ما كانوا يخافون ذلك من ملوك الروم . فكان الخلفاء يخافون ان يفعل الاطباء ذلك طمعاً بمال او منصب فكانوا يبذلون الجيد في ان يلاّ واجيؤهم وعيونهم وقلوبهم . وكثيراً ما كانوا يمتحنون امانتهم وسلامة ذمتهم قبل التسليم لهم كما فعل

(١) طبقات الاطباء ٢٣٤ ج ١ (٢) طبقات الاطباء ١٦٥ ج ١

(٣) ابو الفرج ٢٤٩ (٤) طبقات الاطباء ٢١٦ ج ١

(٥) طبقات الاطباء ١٥٧ ج ١ (٦) طبقات الاطباء ١٧١ ج ١

المتموكل بجنين بن اسحق لما اراد ان يستطبه وقد خافه على نفسه فبعث اليه فلما حضر اقطعه اقطاعاً سنياً وقرّر له جارياً وخلع عليه ثم قال له « اريد ان تصف لي دواء يقتل عدواً نريد قتله سرّاً » فقال حنين « ما تعلمت غير الادوية النافعة ولا علمت ان امير المؤمنين يطلب مني غيرها فان احب ان امض واتعلم فعلت » فقال « هذا شيء يطول بنا » ثم رغبه وهدّده وحبسه في بعض القلاع سنة ثم احضره واعاد عليه القول واحضر سيفاً ونطعاً وهدّده بالقتل فقال « لي رب ياخذ لي حتي غداً في الموقف العظيم » فبسم المتوكل واخبره انه اراد امتحانه ^(١)

ولنفس هذا السبب كان الخلفاء يوجبون على اطبائهم النصارى او غيرهم التمسك بطقوس دياناتهم ^(٢) ويكرمون اهل تلك الاديان من اجلهم . فقد كان ثابت بن قرة صائبياً فلما نال حظوة عند المعتضد تجددت الرئاسة للصائبية في مدينة السلام . وقما كانوا يريدونهم على الاسلام الا نادراً كما اراد القاهرة بالله سنان بن ثابت المذكور فهرب ثم اسلم خوفاً منه . على ان الصائبية كثيراً ما كانوا يصومون شهر رمضان مع المسلمين كما كان يفعل ابو اسحق الصابي الكاتب المشهور في ايام عز الدولة ومع ذلك فلما اراده عز الدولة على الاسلام لم يفعل لانه كان متمسكاً بدينه . والصابي هذا هو الذي رثاه الشريف الرضي بقصيدته الدالية التي مطلعها ^(٣)

ارابت من حملوا على الاعواد ارابت كيف خبا ضياء النادي

ولم يمنعه شرفه في الاسلام من هذا الرثاء — وبذلك ذلك على ان التعصب او التساهل انما يكون مصدرهما من صاحب الامر والنهي فاذا كان الامير معتدلاً او متعصباً كانت رعيته مثله . ولذلك فقد كان التساهل في عصر النهضة العباسية شاملاً على الخصوص اهل الخلفاء واهل الوجاهة والعلم . ولم يكن العالم المسلم يستنكف ان ياخذ العلم عن نصراني حتى الفارابي الفيلسوف الكبير فقد اخذ بعض علمه عن احد نصارى حران ^(٤) وكان النصارى من الجهة الاخرى لا يستنكفون من قراءة التوراة والانجيل على فقيه مسلم ^(٥)

اما بذل الاموال للطباء فلا حاجة الى ذكره لشهرته ومن مراجعة ثروة جبريل بن بختيشوع في الجزء الثاني من هذا الكتاب كفاية . فضلاً عما كانوا يكسبونهم من الاموال غير الرواتب فان المامون امران كل من يتقلد عملاً لا يخرج الى عمله الا بعد ان يلقى

(١) ابو الفرج ٢٥١ (٢) طبقات الاطباء ١٩ ج ١

(٣) ابن خلكان ١٣ ج ١ (٤) ابن خلكان ٧٦ ج ٢ (٥) ابن خلكان ١٣٣ ج ٢

طبيبه جبريل ويكرمه . وللمامون شعر فيه :

افي طبك يا جبريل ما يشفي ذوي العلة
غزال قد سبي عقلي بلا جرم ولا زلة ^(١)

فكيف لا يزهو العلم ويزهر وبشر في ظل هؤلاء

ولم تكن تلك المحاسنة خاصة بالنهضة العباسية بل كانت لتناول كل دولة نهضت للعلم
فالدولة الفاطمية بمصر كان اكثر اطباءها من النصارى واليهود والسامريين وكانت لهم
عندهم منزلة الاطباء في الدولة العباسية فكانوا يقدون عليهم الاموال ويولونهم الوظائف
والمناصب ويستشيرونهم ويكرمونهم بلقبونهم بالشرف كسلطان الحكماء وامين الدولة
ومعتمد الملك ^(٢) ويخاطبونهم كما يخاطبون الامراء والوزراء . كان طبيب العزيز بالله
الفاطمي نصرانياً اسمه منصور بن مقشر فاعتل الطبيب وتأخر عن الركوب فلما تماثل
كتب اليه الخليفة العزيز بخط يده « بسم الله الرحمن الرحيم علي طيبنا سلمه الله سلام الله
الطيب واتم النعمة عليه . وصلت الينا البشارة بما وهبه الله من عافية الطبيب وبرئه والله
العظيم لقد عدل عندنا مارزقناه نحن من الصحة في جسمنا اقالك الله العثرة واعادك
الى افضل ما عودك من صحة الجسم وطيبة النفس وخفض العيش بحوله وقوته » ^(٣)
ويقال نحو ذلك في دولة الاندلس فقد كان للاطباء والعلماء في ايام الحكم بن الناصر
ما كان لهم في ايام المامون لمشابهة بين الخليفتين فقد كان الحكم نجباً للعلم والعلماء جماعاً
للكتب كما سيأتي . على ان حال هؤلاء العلماء كانت تختلف باختلاف الخلفاء
واختلاف العصور

انتشار العلوم الدخيلة في المملكة الاسلامية

لم تكن العلوم الدخيلة تنقل الى العربية حتى اخذ المسلمون في درسها والاشتغال بها .
وكان اشتغالهم في بادىء الراي على سبيل التلخيص او الشرح او التعليق حتى اذا نضج تقدمهم
وانتشرت العلوم في البلاد لاسباب الآتية اخذ المسلمون في التأليف من عند انفسهم وبعد
ان كانت العلوم في القرنين الاولين نقلية انما تحتاج الى الاذخار في الذاكرة اصبحت
في القرنين التاليين وما بعدها عقلية عمدتها النظر والقياس والتحليل والتركيب

(١) طبقات الاطباء ١٣٨ ج ١ (٢) تراجم الحكماء (٣) ابو الفرج ٣١٦

وكانت بغداد كعبة العلم وحج العلماء ومنبت اهل الفضل ومقرّ نقلة العلم في اثناء النهضة العباسية وخصوصاً في ايام المأمون . حتى اذا تولى المعتصم واستكثر من الانتراك وظهرت منهم الاساءة لاهل بغداد نفر الناس وتباعدت القلوب ولكن المعتصم كان على مذهب اخيه المأمون في الاعتزال واكرام الشيعة فظلت بغداد على نحو ما كانت عليه في ايام المأمون . وكان الواثق يتشبه بالمأمون في حركاته وسكنتاته وكان يعقد المجالس مثله للمباحثة بين الفقهاء والمتكلمين في انواع العلوم العقلية والسعدية في جميع الفروع^(١) فلما توفي الواثق سنة ٢٣٣ هـ خلفه أخوه جعفر المتوكل وكان شديد الانحراف عن الشيعة والمعتزلة حتى أمر بهدم قبر الحسين بن علي وما حوله من المنازل ومنع الناس من اتيانه وكان كثير الاستهزاء بعلي^(٢) وكان يجلس من اشهر ببغضه . وخالف ما كان عليه المأمون والمعتصم والواثق من الاعتقاد فابطل القول بحلق القرآن ونهى عن الجد والمناظرة في الآراء وعاقب عليه . وأمر بالرجوع الى التقليد ونصر السنة والجماعة وأمر الشيوخ والمحدثين بالتحديث فامحط علم الكلام بعد ان بلغ رونقه في أيام الرشيد وخالفاته فآخذ في التقهقر في أيام المتوكل لانه كان شديد الوطأة على اصحاب الرأي واصحاب الفلسفة وسائر العلوم الدخيلة . وأخذ منذ تولى الخلافة في مناوأتهم فاهلك جماعة من العلماء وحط مراتبهم وعادى العلم واهله ولاقى اهل الذمة منه الشدائد بتغيير زيهم وتذليلهم واهانتهم^(٣) . ومن اشهر حوادث نفقته على خدمة العلم انه غضب على يحيى بن شعيب الطيب وقبض ماله ونفاه الى البحرين وقتل ابا يوسف يعقوب المعروف بابن السكيت^(٤) وسخط على عمر بن مصرح الراجحي وكان من عليه الكتاب وأخذ منه مالا وجوهرأ وأمر أن يصفع في كل يوم فاحصي ما صفع به فكان ستة آلاف صفقة^(٥)

ومات المتوكل مقتولاً سنة ٢٤٧ هـ قتله رجاله بتحريض ابنه فاضطربت احوال الخلافة واستفحل شأن الاراك ففرت قلوب طلبة العلم واكثرهم من الفرس والعرب ففرقوا من بغداد رويداً رويداً الى انحاء المملكة الاسلامية شرقاً وغرباً ولذلك كان اكثر من ظهر من العلماء بعد نضج العلم في القرن الرابع للهجرة فما بعده انما نبغوا خارج بغداد وفيهم الاطباء والفلاسفة والمنجمون والمهندسون والمتكلمون واصحاب المنطق

(١) المسعودي ٢٦١ و ٣٦٧ ج ٢ (٢) ابوالفداء ٤٠ ج ٢

(٣) تاريخ المشاركة (خط) ٤ . ابوالفداء ٤٣ ج ٢ (٥) المسعودي ٢٦٩ ج ٢

والفقهاء والافويون وغيرهم

فكان مركز الطب والطبيعات والفلسفة عند ظهور الاسلام في الاسكندرية ثم انتقل في أيام عمر بن عبد العزيز في آخر القرن الأول للهجرة الى انطاكية . وكان مركز العلوم الإسلامية في أول الاسلام في المدينة ثم انتقل الى البصرة ومنها الى الكوفة . فلما بنيت بغداد انتقلت اليها تلك العلوم ثم اضممت اليها العلوم الدخيلة فاصبحت بغداد أم المدائن في العلم والادب والفلسفة والطب وسائر العلوم العقلية والنقلية . فلما اضطربت أحوال الخلافة في أيام المتوكل ثم نشأت الدول الجديدة في أنحاء المملكة الإسلامية بالتفرع والتشعب على مقتضى ناموس الارتقاء تفرق العلماء وأصبح للعلم مراكز كثيرة قد يتفاضل بعضها على بعض . وتدرج الانتقال من بغداد أولاً الى العراق المعجمي فخراسان وما وراء النهر من المشرق ثم الى القاهرة وما اليها من المغرب والاندلس

وربما كانت الاندلس اسبق من سواها الى الادب والشعر لانها ورثت دول المشرق في ذلك فاصبحت قرطبة في الدولة المروانية قبة الاسلام ومجتمع العلماء واليهما كانت الرحلة في رواية الشعر ومناشدة الشعراء ^(١) وهي في ذلك وفي غيره مديونة لبغداد وخصوصاً في العلوم الدخيلة . فان الموسيقى نقلت اليها من بغداد على يد زرقون وعلون دخلا في أيام الحكم بن هشام ^(٢) . وأما الفلسفة فقد دخلتها في عهد عبدالرحمن الاوسط المعاصر للأمايون وازدهت في أيام الحكم بن الناصر ^(٣) اما الطب فدخل المغرب ثم الاندلس على يد اسحق بن عمران أصله من بغداد ورحل الى المغرب ونقل الطب معه ^(٤) في اوائل القرن الثالث . على ان أطباء الاندلس ومصر ما زالوا حيناً من الدهر يرحلون في آفاق الطب وغيره من العلوم الدخيلة الى بغداد . حتى يهود الاندلس فقد كانوا يستخرجون فقههم من يهود بغداد ^(٥) ويقال نحو ذلك في سائر بلاد الاسلام

وبالجملة فان بذور العلم التي القاها خلفاء النهضة العباسية في بغداد ظهرت ثمارها في خراسان والري وخوزستان واذريجان وما وراء النهر وفي مصر والشام والاندلس وغيرها . وظلت بغداد مع ذلك رافدة بالعلماء بقوة الاستمرار وبما فيها من أسباب الثروة ولانها

(١) نقح الطيب ٢١٧ ج ١ (٢) نقح الطيب ٧٥٣ ج ٢

(٣) طبقات الاطباء ٦٢ ج ٢ (٤) طبقات الادباء ٣٦ ج ٢

(٥) طبقات الاطباء ٥٠ ج ٢

مركز الخلافة • فنبغ فيها جماعة من أهل العلم المسلمين فضلاً عن الأطباء النصارى الذين كانوا يخدمون الخلفاء في التطبيب والترجمة

على أن أكثر العلماء غير المسلمين الذين نبغوا فيها بعد تلك النهضة كانوا يتقاطرون إليها من أنحاء جزيرة العراق وغيرها لخدمة الخلفاء • أما المسلمون فالتألب ان يكون ظهورهم خارج العراق لاسيما وان أكثر ملوك الدول الجديدة التي تفرعت من الدولة العباسية اقتدوا بخلفاء النهضة العباسية في ترغيب أهل العلم واستقدامهم الى عواصمهم في القاهرة وغزنة ودمشق ونيسابور واصطخر وغيرها • فالرازي من الري وابن سينا من بخارى في تركستان والبيروني من يرون في بلاد السند وابن جليل التباتي من أهل الاندلس وكذلك ابن باجة الفيلسوف وابن زهر الطيب واقاربه آل زهر وابن رشد وابن الرومية التباتي وكلهم من الاندلس

اما مصر فأكثر أطبائها المشاهير من النصارى واليهود والسامريين وقد نبغ فيها ابن الهيثم من أهل الفلسفة والطبيعات وعلي بن رضوان الطيب الشهير والشيخ السديد رئيس الأطباء ورشيد الدين ابو حليقة الطيب الفيلسوف وضياء الدين ابن البيطار التباتي الشهير • أما الشام فقد نبغ منها الفارابي الفيلسوف وابو المجد بن ابي الحكم وشهاب الدين السهروردي وموفق الدين البغدادي الرحالة ناهيك بعدد عديد من النصارى الذين خدموا الخلفاء والامراء في الطب والفلسفة وغيرها ممن نبغ في الشام

ويقال نحو ذلك في علماء العلوم الاسلامية كالفقهاء والمحدثين واللغويين والشعراء فانهم مع بقاء بغداد آهلة بهم فقد ظهر جماعة كبيرة منهم في خارجها وألقابهم تدل على اماكنهم كالبخاري والشيرازي والنيسابوري والسجستاني والفرغاني والباخي والحوارزمي والفيروزابادي والحوي والدمشقي والفيومي والسيوطي والقرطبي والاشيلي وغيرهم

الخلفاء والامراء والعلم

اشتغال الخلفاء والامراء بالعلم

فلا غرو اذا احتفى الخلفاء والامراء باهل العلم وحسنوهم وهم انفسهم كانوا من طلبة العلم ومريديه واذا كان الملك أو الامير عالماً زها في أيامه العلم وسعد خدمته • ومن شروط الخلافة في الاسلام ان يكون الخليفة عالماً بالامور الشرعية ولذلك كان الخلفاء في الغالب عالين بها يعقدون المجالس للنظر فيها ويقربون الفقهاء والمحدثين وتطرقوا من ذلك

الى الرغبة في النحو واللغة والتاريخ لارتباط تلك العلوم بعضها ببعض — والعلم مترابط يطلب بعضه بعضاً . فلما أقاموا في العراق واحاط بهم اهل العلوم الطبيعية والفلسفة والنجوم من السريان والفرس واطلعوا على شيء من تلك العلوم ناقت انفسهم اليها واشتغلوا بها وكان ذلك الاشتغال باعثاً على استنارة الخلفاء والامراء فنبغ من ذلك العصر فما بعده جماعة من الخلفاء انتظموا في سلك اهل العلم الطبيعي فضلاً عن الادبي

واعلم خلفاء بني العباس المأمون فقد كان عالماً بالشرع واللغة والنجوم والفلسفة والمنطق وبقائه في الدول الاسلامية الاخرى الحكم بن الناصر الاموي في الاندلس (توفي سنة ٣٦٦هـ) والحاكم بامر الله الفاطمي في مصر (توفي سنة ٤١١هـ) . اما الحكم فقد كان مع رغبته في العلم جماعاً للكتب يذلل الاموال في استجلائها من الاقطار . واما الحاكم فقد كان عالماً بالنجوم وبني مرصداً وانشأ مكتبة كما سيأتي . وكذلك كان عبد الرحمن الاوسط امير الاندلس المتوفى سنة ٢٣٨هـ ^(١) وهو اول من وصلت اليه كتب الفلسفة من امراء الاندلس واطلع عليها وتظاهر بها اقتداءً بالمأمون لقرب عهده منه . اما قبلها فلم يكن احد من الخلفاء يعرف الفلسفة واذا عرفها فلا يحسر على التظاهر بها ولكنهم كانوا يعرفون النجوم و يشتغلون بها كما فعل المنصور والرشد . اما بعد النهضة العباسية فقد تظاهر بعض الخلفاء بالفلسفة والعلم الطبيعي

اما الادب والشعر فكان للخلفاء حظ وافر منها وقد ذكرنا يباب الشعر من اشتغل به منهم — اما الادب فقد كان السفاح تعجبه الحادثة ومفاخرات العرب من نزار واليمن ^(٢) وكان المنصور صاحب اخبار وآداب وله كتاب فيها ^(٣) وكان الهادي يجالس الادباء يقصون عليه الاخبار والاشعار . وابن المعتز اول من الف بعلم البديع ^(٤) وابراهيم بن المهدي كان من علية اهل الادب والشعر . ويقال نحو ذلك في بني حمدان في حلب وبني عباد في الاندلس وبني بويه في بغداد

وكان هؤلاء الخلفاء او الامراء يقدمون اهل العلم ويستوزرونهم . ومن الوزراء العلماء يحيى بن خاله وزير الرشيد ويعقوب بن كلس وزير العزيز بالله بمصر وكذلك كان اكثر الوزراء في الدولة العباسية وغيرها

واذا كان السلطان من اهل العلم فلا غرو اذا كثرت العلماء في عصره وزها العلم على

(١) نفح الطيب ١٦٤ ج ١ (٢) المسعودي ١٥٩ ج ٢

(٣) البيان ١٥٤ ج ٢ (٤) ابن خلكان ٢٥٨ ج ١

يده لان الناس على ما يريد ملوكهم وخصوصاً في الحكم المطلق لان الافكار نجه الى ارضاء الحاكم المطلق فيشتغلون بما يرضيه — قال اسامة بن معقل « كان السفاح راغباً في الخطب والرسائل يصطنع اهلها ويثيبهم عليها فحفظت الف رالة والف خطبة طلباً للحظوة عنده فنلتها . وكان المنصور بعده معنياً بالاسمار والاختبار وابام العرب يدفي اهلها ويجيزهم عليها فلم يبق شيء من الاسمار او الاخبار الا حفظته طلباً للقرى منه . وكان موسى الهادي مغرمًا بالشعر يستخلص اهلها فما تركت بيتاً نادراً ولا شعراً فاخراً ولا نسيباً سائراً الا حفظته ولم ار شيئاً ادعى الى تعلم الآداب غير رغبة الملوك في اهلها وصلاتهم عليها »^(١)

تأليف الكتب للخلفاء والامراء

وهذا هو الواقع في كل عصر وكل دولة . فلما مون لولا حبه العلم واحرازه شيئاً منه لم يقدم على ترجمة الكتب وقد كان يعقد المجالس للمناظرة والمحاورة وهو الذي امر القراء بجمع اصول النحو واخلاه في غرفة واطلق له الاموال^(٢) . فزها العلم في ايامه وخصوصاً الفلسفة لانه كان يحبها . وما من امير ولا ملك يحب للعلم الا اجتمع العلماء حوله والقواله الكتب في ما يحبه من فروع العلم وهو يجيزهم عليها . فمحمد بن اسحق الراوية الشهير الف كتاب المغازي للمنصور وهو في الحيرة^(٣) وابن بكار الف كتاب الاخبار المعروف بالموفقيات للموفق بالله^(٤) والرازي الف كتابه المنصوري باسم المنصور بن اسحق . ولما تولى عضد الدولة ابن بويه دار السلام قرب اليه اهل العلم فقصدوه من كل بلد وصنفوا له كتاب الايضاح في النحو وكتاب الحجة في القراءات وكتاب الملكي في الطب والتاجي في تاريخ الديلم وغيرها^(٥) وسعيد بن هبة الله الطبيب الف كتاب المغني في الطب للقتدي بامر الله^(٦) وقد يؤلفون الكتب للوزراء والامراء فقد ألف الحريري مقاماته لانوشروان وزير المسترشد^(٧) والف جبريل بن عبيدالله بن بختيشوع كتاب الكافي بلقب صاحب بن عباد لمحبه له . وقس على ذلك كثيرين الفوا الكتب باسماء الخلفاء او الامراء او الوجهاء . والغالب ان يكون الغرض من ذلك الطمع بالعطايا الوافرة وكانوا ينالون شيئاً كثيراً منها . فالمنصور الاندلسي اثناب على كتاب الفصوص بخمسة آلاف دينار^(٨) والفردوسي نظم الشاهنامه للسلطان محمود الغزنوي على ان يعطيه على كل بيت ديناراً فبلغت ٦٠,٠٠٠ بيت

(١) كتاب البلدان للهمداني ١ (٢) طبقات الادباء ١٢٧

(٣) ابن خلكان ٤٨٣ ج ١ (٤) المسعودي ٢٤١ ج ٢ (٥) ابو الفداء ١٢٩ ج ٢

(٦) طبقات الاطباء ٢٥٥ ج ١ (٧) الفخري ٢٧٤ (٨) نفع الطبيب ٧٢٨ ج ٢

على انهم لم يكونوا يميزون على تأليف الكتب اعباطاً وانما كانوا ينظرون فيها فاذا لم يتوسموا بها نفعاً نذوها وربما عاقبوا مؤلفيها . فابو بكر الرازي الطبيب ألف للمنصور ابن اسحق المذكور كتاباً في صناعة الكيمياء فاجازه عليه بالف دينار ولكنه طالبه باثبات ما فيه فلما عجز عن ذلك قال له المنصور « ما اعتقدت ان حكيماً يرضى بتخليد الكذب في كتب ينسبها الى الحكمة يشغل قلوب الناس بها . وقد كافأتك على قصدك وتعبك بالالف دينار ولا بد من معاقبتك على تخليد الكذب » ثم امر ان يضرب بالكتاب على رأسه حتى يتقطع ثم جهزه وارجمه الى بغداد^(١)

وكان بعض الامراء والسلاطين يتفاخرون بتقريب العلماء وتأليف الكتب باسمائهم وخصوصاً بالاندلس بعد ذهاب دولة بني امية منها وقيام دول الطوائف . فانهم كانوا يقلدون الخلفاء في حب العلم وتنشيط العلماء وهم في جهل وكان اكثرهم يحاضر العلماء والادباء ويجب ان يشهر عنه ذلك وخصوصاً عند مباديه في الرئاسة^(٢) . وكانوا يتباهون ان يقال ان العالم الفلاني عند الملك الفلاني والشاعر الفلاني مخلص بالملك الفلاني . وكان العلماء والشعراء يدثون عليهم ويستعزّون وربما ابى الشاعر ان يمدح الملك الا بما لم يعين يشترطه سلفاً والملوك يسترضونهم بما يريدون . وقد يقترح الامير على العالم ان يؤلف كتاباً باسمه فلا يرضى ولو بالمال الكثير . حكى ان ابا غالب تمام بن غالب اللغوي القرطبي المتوفى سنة ٤٣٦ هـ ألف كتابه في اللغة بعث اليه ابو الجيش مجاهد العامري ملك دانية الف دينار ومركوباً وكساءً على ان يجعل الكتاب المذكور باسمه فيزيد في آخره « هذا الكتاب مما افنه ابو غالب لابني الجيش مجاهد » فردّ الدنانير وقال « كتاب الفته لينتفع به الناس واخلد فيه همتي اجعل في صدره اسم غيري واصرف الفخر له ؟ » فلما بلغ هذا مجاهد استحسن اقتته واضعف له العطاء وقال « هو في حل من ان يذكرني فيه لانصدّه عن غرضه »^(٣)

على ان بعض العلماء كانوا يؤلفون الكتب لابنائهم واخوانهم واصدقائهم لا يلتمسون على ذلك اجرا . وقد يؤلفون لانفسهم — ومن لطيف ما جاء في مقدمة كتاب حياة الحيوان للدميري قوله « هذا الكتاب لم يسألني احد تأليفه »

وجملة القول ان التمدن الاسلامي كان حافلاً باهل العلم من قصور الخلفاء الى المساجد ومنازل الامراء والعامّة الى مراسع الغناء . وكانوا يعقدون المجالس للمناظرة في العلوم على

(١) ابن خلكان ٧٨ ج ٢ (٢) نفح الطيب ١٠١ ج ١

(٣) نفح الطيب ٧٨٠ ج ٢ وابن خلكان ٩٧ ج ١

اختلفوا في الآداب على تنوع وجهاتها وفي الشعر وغيره . وكانوا يفرضون العلم على اولادهم واخوانهم وماليكهم وجواريتهم وسرايهم . وكانوا يعلمون الجواري ويثقفونهن ويحفظونهن القرآن ويروونهن الاشعار والاخبار ويعلمونهن النحو والعروض والغناء ثم يتهادونهن . وقد كان عند زبيدة ام الامين مئة جارية يحفظن القرآن وكان يسمع من قصرها دوي كدوي النحل من القراءة^(١) حتى الخائث فقد كانوا يؤدبونهم وكان في قرطبة في اوائل القرن الخامس للهجرة جملة من الفتيان المخائث ممن اخذ من الادب بأوفر نصيب ولهم فيه مؤلفات^(٢)

واغرب من ذلك بذلم الاموال للمطالعين فضلاً عن المؤلفين فالملك المعظم شرف الدين عيسى الايوبي صاحب دمشق كان من رغب الادب فاشتراط لكل من يحفظ كتاب المنفصل للزمخشري مائة دينار وخلعة فحفظه جماعة كبيرة^(٣) وهذه منقبة لم يسمع بمثلا

المؤلفون والمؤلفات

فلا عجب والحالة هذه اذا كثرت المؤلفون وتعددت مؤلفاتهم واتسعت مباحثهم وكان منهم الملوك والامراء والوزراء والاغنياء والنقراء وفيهم العرب والفرس والروم واليهود والسريان والهندود والترك والديلم والقبط وغيرهم من الملل الخاضعة للاسلام في انحاء العالم المتحدن يومئذ في الشام ومصر والعراق وفارس وخراسان وما وراء النهر والهند وفي المغرب والاندلس وغيرها . وقد حوت مؤلفاتهم البحث في كل ما نتجته قريحة الانسان الى ذلك الزمان من الطبيعيات والالهيات والعقليات والرياضيات والادبيات والنقلات . ودعت ابحاثهم الواسعة الى تشعب العلوم وتفرعها حتى زادت على خمسمئة علم ذكرها طاشكبري زاده في مفاتيح العلوم . ومنها ما لم يكن له وجود قبل الاسلام كالاقتصاد السياسي وفلسفة التاريخ والموسوعات التاريخية والجغرافية . غير العلوم الاسلامية الخاصة بلغة العرب وآداب المسلمين

وقد تعددت مؤلفاتهم حتى اصبحت تعدد بعشرات الالوف ويستدل على كثرتها مما بقي من خبرها الى القرن الحادي عشر للهجرة على ما في كشف الظنون . فقد بلغ عدد المؤلفات المذكورة هناك ١٤,٥٠١ غير الشروح والتعليق . وغير ما ضاع خبره منها في النكبات المتوالية في اثناء الفتن الداخلية بين الفرق الاسلامية وغيرها . وما كان يحرقه ولاية الامر

(١) ابو المحاسن ٦٣٢ ج ١ (٢) نفح الطيب ٧٢٩ ج ٢ (٣) ابن خلكان ٣٩٦ ج ١

من كتب الفلسفة ومتعلقاتها اضطهاداً لأصحابها كما سيبيء حتى ذهب معظم ما ترجموه أو الفوه ولم يبق منها إلا النذر اليسير

ولا رب عندنا ان الضائع من كتب المسلمين يزيد على اضعاف الباقي . وما يؤيد ذلك ان بعض المؤلفين القدماء كالمسعودي والطبري وابن الاثير وغيرهم ذكروا في مقدمات كتبهم كثير من اسماء المؤلفات التي نقلوا كتبهم عنها . ولما نجد اسماءها في النهارس

ومن المؤلفين المسلمين من بلغت مؤلفاته بضع مئات الى الالف فهو مؤلفات ابي عبيدة ٢٠٠ مؤلف في علوم مختلفة ومؤلفات ابن سريج ٤٠٠ ومؤلفات ابن حزم ٤٠٠ مجلد ومؤلفات الكندي ٢٣١ ومؤلفات القاضي الفاضل مئة كتاب . وقس على ذلك مؤلفات كثير من العلماء في المواضيع المختلفة كمؤلفات الرازي والسيوطي وابن سينا . وقد بلغت مؤلفات بعضهم الف كتاب كعبد الملك بن حبيب عالم الاندلس^(١) وقد عدت مؤلفات جمال الدين الحافظ وقسمت على عمره فبلغ كل يوم تسع كراريس^(٢)

ناديك بضخامة تلك المؤلفات فان بعضها يتألف من عشرات المجلدات وخصوصاً كتب التاريخ فكتاب مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي اربعون مجلداً وتاريخ دمشق لابن عساكر ثمانون مجلداً وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١٤ مجلداً والاغانى عشرون مجلداً وابن الاثير ١٢ مجلداً ويقال نحو ذلك في غير كتب الادب كشرح كتاب النبات لابي حنيفة الدينوري فانه بلغ ستين مجلداً^(٣) وتقدير المجلد يختلف باختلاف الاحوال فاذا اعتبرنا تقسيم ابن الاثير والاغانى الى مجلدات رأينا المجلد عبارة عن ٢٠٠ صفحة فاكثروا ولكننا رأينا في بعض النصوص ان تقدير المجلد عشر ورقات^(٤) وربما اختلف ذلك باختلاف المواضيع

والغالب في المؤلفات الكبرى عندهم ان تكون من قبيل الموسوعات الحاوية في موضوعها وما يقاربه . فمعجم ياقوت موضوعه الاصلي في الجغرافية ولكنه يحوي تراجم جماعة كبيرة من علماء الاسلام وادبائه . والاغانى في الفناء ولكنه يشمل فوائد ذات شأن في تاريخ العرب وادابهم في الجاهلية وأوائل الاسلام . والعقد الفريد كتاب في الادب ولكن فيه فوائد كثيرة في الشعر والعروض والاخلاق والتاريخ وغيرها . وقس على ذلك سائر كتب التراجم او التواريخ المطولة . ومن هذا القبيل الكتب الطيبة كالفقانون لابن

(١) نفح الطيب ٣٣١ ج ١ (٢) ابن خلكان ٢٩٧ ج ١

(٣) نفح الطيب ٨٨٤ ج ٢ (٤) ابن خلكان ٢٣٠ ج ٢ وطبقات الادباء ١٠٥

سينا فانه عبارة عن قاموس جامع لفنون الطب كالتشريح والفسولوجيا والباطولوجيا والنبات والصيدلة وغيرها وكذلك كتاب الرازي . وقد يجمع الكتاب الواحد مواضيع متباعدة ككتاب حياة الحيوان للدميري فان موضوعه علم الحيوان ولكنه حوى شيئاً كثيراً من التاريخ والآداب والاخلاق والطب والصيدلة والنبات . والكشكول كتاب في الادب والحكم ولكن فيه مقالات وفصولاً في فنون متناقضة كالجبر والهندسة والمنطق والتجوم والفلسفة والتاريخ والادب واللاهوت والفقه والحديث وغيرها

تأثير التمدن الاسلامي

في العلوم الدخيلة

لما نضج التمدن الاسلامي وانتشرت العلوم الدخيلة في بلاد الاسلام عني المسلمون في درسها ونسخ منهم جماعة فاقوا اصحابها وادخلوا فيها آراءً جديدة فتنوعت وارتقت على ما اقتضاه الاسلام والآداب الاسلامية وما مزجها من علوم الامم الاخرى فاصبحت على شكل خاص بالتمدن الاسلامي . فلما نهض اهل اوربا الى استرجاع علوم اليونان اخذوا معظمها عن اللغة العربية وفيها الصبغة الاسلامية . فلنبحث في ما أثره التمدن الاسلامي في علوم التمدن القديم

١ - الفلسفة في الاسلام

قرأ المسلمون الفلسفة في كتب افلاطون وارسطو وما علقه عليها اليونان من الشروح و اضافوا اليها من الآراء وهي تشمل المنطق والطبيعات والالهيات والاخلاق . فبدأ المسلمون أولاً بتدرس هذه الكتب ثم أخذوا في شرحها او تلخيصها ثم عمدوا الى الكتابة في تلك المواضيع من عند انفسهم . ويندر ان يشتغل الواحد منهم في الفلسفة دون الطب والتجوم او في الطب دون الفلسفة والتجوم او بالعكس . ومن اقوال حينه « ان الطيب يجب ان يكون فيلسوفاً » لكنهم كانوا يلقبون العالم بما غلب اشتغاله فيه

الفلاسفة المسلمون في الشرق

واكبر فلاسفة المسلمين واشهرهم واسبقهم يعقوب بن اسحق بن الصباح الكندي وهو عربي الاصل دون سواه من الفلاسفة ويتصل نسبه بملوك كنده ولذلك سموه فيلسوف العرب — فبعد ان كان العرب في صدر الاسلام يستنكفون من الاشتغال في العلوم حتى الاسلامية • وبعد ان عملوا على اباده ما عثروا عليه من علوم الاقدمين في مصر وفارس اصبحوا لا يستنكفون من الاشتغال حتى في العلوم الفلسفية الدخيلة • وأول من اشتغل فيها منهم ابناء ملوكهم • كان الكندي معاصراً للأماون والمعتصم الى المتوكل وكانت له عندهم منزلة سامية وقد برع في الطب والفلسفة والحساب والمنطق والالحن والهندسة وطبائع الاعداد وعلم النجوم وقد نبغ وليس في المسلمين فيلسوف غيره وحذا في تآليفه حذو ارسطوطاليس وله ترجمات عديدة نقلها لنفسه وكان يعدُّ من حذاق الترجمة ولم يذكر بينهم لانه لم يرتزق بالترجمة • وقد انب الكندي في معظم العلوم الدخيلة كتباً كثيرة ذكرها صاحب الفهرست واليك عددها باعتبار العلوم :—

في الفلسفة	٢٢	كتاباً	في الطبيعيات الخ	٣٣	«
« الحساب	١١	«	« الكريات	٨	كتب
« النجوم	١٩	«	« المنطق	٩	«
« الهندسة	٢٣	«	« الموسيقى	٧	«
« الفلكيات	١٦	«	« الاحكام	١٠	«
« الطب	٢٢	«	« النفس	٥	«
« الجدل	١٧	«	« الابعاد	٨	«
« السياسة	١٢	«	« مقدمة المعرفة	٥	«
« الاحداث	١٤	«	المجموع كله	٢٣١	كتاباً

واكثر هذه الكتب قد ضاع • ويتضح من مراجعة اسمائها ان الرجل كان كثير التضلع في هذه العلوم حتى انتقد اصحابها وخطأهم • وللكندي تلامذة حذوا حذوه ويليهِ ابو نصر الفارابي المتوفى سنة ٣٣٩ هـ اصله من فاراب ببلاد الترك لكنه فارسي المنتسب^(١) وقد نشأ في الشام واشتغل فيها وكان فيلسوفاً كاملاً درس كل ما درسه الكندي

من العلوم وفاقه في كثير منها وخصوصاً في المنطق وتعمق في الفلسفة والتحليل وانحاء التعاليم وافاد التعليم وجوه الانتفاع بها والف كتباً في مواضيع لم يسبقه احد اليها ككتابه « في احصاء العلوم والتعريف باغراضها » وهو اشبه بقاموس علمي على شكل موسوعات العلوم لم يذنب مذهبه فيه احد قبله وكتاب « السياسة المدنية » وهو الاقتصاد السياسي الذي يزعم اهل التمدن الحديث انه من مخترعاتهم وقد كتب فيه الفارابي منذ الف سنة ثم كتب فيه ابن خلدون في مقدمته . وبرع الفارابي خصوصاً في علم الموسيقى حتى أصبح لا يضاميه فيه أحد واخترع القانون كما سيأتي في باب الموسيقى وأصلح ما بقي من الترجمات غير مصلح فسموه المعلم الثاني ^(١)

ومن غلبت عليه الفلسفة من علماء المسلمين الشيخ الرئيس ابن سينا المتوفى سنة ٤٢٨ هـ وله من المؤلفات نحو مئة كتاب ٢٦ منها في الفلسفة فقط . ومنهم ابو حامد الغزالي الملقب بحجة الاسلام المتوفى سنة ٥٠٥ هـ وهو امام التصوف . غير الذين ظهروا في الاندلس وبياني ذكرهم — على ان الافاضة في ذكر الفلاسفة ومؤلفاتهم وآرائهم من متعلقات « تاريخ آداب اللغة » فنقتصر هنا على تاريخ الفلسفة في الاسلام وما كان من تأثيرها في الدين والعلم أهم ما كان من تأثير الفلسفة في الاسلام انهم بنوا عليها علم الكلام وايدوه بها لتقوى حججهم في ما قام بينهم من المحادلات المذهبية . واشتهر علم الكلام في المسلمين وعكفوا على درسه وخصوصاً المعتزلة واشتهر به جماعة من علية القوم وفي جلهم الشريف المرتضى والزنجشيري والباقلاني وغيرهم

واما الفلسفة بمجد ذاتها فقد كان اصحابها متهمين بالكفر وكان الانتساب اليها مرادفاً للانتساب الى التعطيل ومن اقوالهم « كان فلان سامعه الله يتهم بدينه لكون العلوم العقلية غالبية عليه » ^(٢) وقد شاع ذلك في بغداد بين العامة حتى في ايام المأمون ولذلك ساء بعضهم امير الكافرين ^(٣) ولكنهم لم يكونوا يتظاهرون بذلك حتى ذهب عصر المأمون والمعتمد والواثق وتنصب المتوكل فاصبح مريدو الفلسفة يتجنبون الظهور بها او ينكرونها وهم كلفون بها فكانوا يشتغلون فيها سرّاً فألفوا الجمعيات السرية لهذه الغاية جمعية اخوان الصفا

ومن جمعياتهم السرية الفلسفية جمعية اخوان الصفا تألفت في بغداد في اواسط القرن

(١) كشف الظنون ٤٤٨ ج ١ (٢) ابن خلكان ١٣٤ ج ٢

(٣) اليعقوبي ٥٤٦

الرابع للهجرة ذكروا من اعضائها خمسة هم : ابو سليمان محمد بن معشر البستي ويعرف بالمقدسي وابو الحسن علي بن هارون الزنجاني وابو احمد المهرجاني والعوفي وزيد بن رفاعه^(١) وكانوا يجمعون سرّاً ويبحثون في الفلسفة على انواعها حتى صار لهم فيها مذهب خاص هو خلاصة اجاث الفلاسفة المسلمين بعد اطلاعهم على آراء اليونان والفرس والهند وتعديلها على ما يقتضيه الاسلام . واساس مذهبهم ان الشريعة الاسلامية تدرست بالجهالات واختلطت بالضلالات ولا سبيل الى غسلها وتطهيرها الا بالفلسفة لانها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية وانه متى انظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال وقد دونوا فلسفتهم هذه في خمسين رسالة سموها رسائل اخوان الصفا وكتبوا اسماءهم . وهي تمثل الفلسفة الاسلامية على ما كانت عليه في ابان نضجها وتشمل النظري في مبادئ الموجودات واصول الكائنات الى نضد العالم فالهوى والصورة وماهية الطبيعة والارض والسماء ووجه الارض وتغيراته والكون والفساد والآثار العلوية والسماء والعالم وعلم النجوم وتكوين المعادن وعلم النبات واصاف الحيوانات ومسقط النطفة وكيفية رباط النفس بها وتركيب الجسد والحاس والحسوس والعقل والمعقول والصنائع العلمية والعملية والعدد وخواص الهندسة والموسيقى والمنطق وفروعه واختلاف الاخلاق وطبيعة العدد وان العالم انسان كبير والانسان عالم صغير والاكوام والادوار وماهية العشق والبعث والنشور واجناس الحركات والعلل والمعلولات والحدود والرسوم . وبالجملة فقد ضمنوها كل علم طبيعي او رياضي او فلسفي او الهى او عقلي . وبين ايدينا خلاصة هذه الرسائل مطبوعة في ليبسك بعناية الدكتور ديتريشي في نحو ٦٥٠ صفحة كبيرة . ويظهر من امعان النظر فيها ان اصحابها كتبوها بعد البحث الدقيق والنظر الطويل . وفي جملة ذلك آراء لم يتصل اهل هذا الزمان الى احسن منها . وفي ذيل الكتاب فصل في كيفية عشرة اخوان الصفا وتعاونهم بصدق المودة والشفقة وان الغرض منها التعاضد في الدين . وذكروا شروط قبول الاخوان فيها وغير ذلك وكان المعتزلة ومن جرى مجراهم يتناقلون هذه الرسائل ويتدارسونها ويحملونها معهم سرّاً الى بلاد الاسلام ولم تمض مئة سنة على كتابتها حتى دخلت الاندلس على يد ابي الحكم عمرو ابن عبد الرحمن الكرماني وهو من اهل قرطبة رحل الى المشرق للتبحر في العلم على جاري عادة الاندلسيين . فلما عاد الى بلاده حمل معه الرسائل المذكورة وهو اول من ادخلها الاندلس^(٢) فما لبثت ان انتشرت هناك حتى تناولها اصحاب العقول الباحثة واخذوا في درسها وتدبرها

فلاسفة الاندلس

وكانت الفلسفة قد دخلت الاندلس في ايام عبد الرحمن الاوسط كما تقدم وقد اخذ الاندلسيون بشيء منها وظهر فيهم جماعة اشتهروا بعلوم الاوائل والنجوم واولهم ابو عبيدة مسلم ابن احمد المعروف بصاحب القبلة^(١) توفي في اواخر القرن الثالث للهجرة . ثم يحيى بن يحيى القرطبي المعروف بابن السمين المتوفى سنة ٣١٥ هـ وابو القاسم مسلمة بن احمد المعروف بالمرحيطي او الجريطي من اهل قرطبة كان امام الرياضيين في عصره بالاندلس توفي سنة ٣٩٨ هـ وانجب تلامذة جلة اشرهم ابن السمع المهندس الغرناطي وابن الصفار استاذ الرياضيات في قرطبة والزهرراوي صاحب كتاب الاركان في المعاملات على طريق البرهان وابو الحكم عمرو الكرماني المتقدم ذكره فانه رحل الى المشرق حتى نزل حران وتعلم فيها الهندسة والطب ثم رجع برسائل اخوان الصفا الى الاندلس وتوفي في سرقسطة سنة ٤٥٨ هـ على ان هؤلاء انما اقتصروا من علوم الاوائل على الرياضيات والنجوم والهندسة ونحوها اما الفلسفة بمعناها الحقيقي فلم يعن اهل الاندلس فيها الا بعد دخول رسائل اخوان الصفا وكان الحكم بن التاصر قد استجلب كتب الفلسفة من المشرق فتداولها الناس ولكنهم لم يتبنوها فيها الا بعد مطالعة تلك الرسائل . فنجع ابو بكر بن باجة الفيلسوف الاندلسي الشهير المتوفى سنة ٥٣٣ هـ ويعرف بابن الصائغ . ومن تلاميذه القاضي ابو الوليد ابن رشد الفيلسوف القرطبي المتوفى سنة ٥٩٥ هـ ونسج أيضاً ابن الطفيل وابن هود وغيرها وقد الفوا المؤلفات الضافية في فروع الفلسفة مما اتخذ الافرنج قاعدة لفلسفتهم في اوائل نهضتهم

على ان اولئك الفلاسفة كانوا عرضة لاحتقار العامة شأنهم في مثل هذه الحال في سائر العصور . وكان الملوك يسابرون العامة في ذلك رغبة في استرضائهم لتوطيد سلطانهم فسا من ملك الانقم على الفلاسفة واضطهدهم . ومن أشهر الحوادث من هذا القبيل نقمة المنصور بن ابي عامر صاحب الاندلس في اواخر القرن السادس للهجرة فانه اضطهد الفلاسفة ونفاههم وفي جملتهم ابن رشد وابو جعفر الذهبي وابو عبدالله قاضي بجاية وغيرهم^(٢) وعزم ان لا يترك شيئاً من كتب المنطق والحكمة في بلاده فأمر باحراقها في النار وشدد التفكير على المشتغلين بها وأصبح العامة كلما قيل فلان يشتغل في الفلسفة او التعجيم اطلقوا

عليه اسم زنديق وقيدت عليه انفاسه فان زلّ في شبهة رجوه بالحجارة او احرقوه .
أما الخاصة فكانوا يدرسون الفلسفة سرّاً وربما أمر السلطان بقتل بعض الفلاسفة تقرباً
من قلوب العامة ويكون هو نفسه يحجبها^(١)

٢- الطب في الاسلام

الطب الاسلامي

الطب الاسلامي خلاصة ما بلغ اليه علم الطب عند الامم المتقدمة قبل الاسلام . لان
المسلمين نقلوا الى لسانهم كتب ابقراط وجالينوس وغيرهما من أطباء اليونان واطلعوا
على ما كان عند السريان من الطب اليوناني الممزوج ببقايا طب الكلدان القدماء ونقل
اليهم أطباء مدرسة جنديسابور طب اليونان بصيغته الفارسية واطلعوا على طب الهنود ممن
جاؤا بقدر من اطبائهم . غير ما كان عند العرب في أيام الجاهلية وتنوّل في الاسلام .
ومن تفاعل هذه العناصر وتمازجها تألف الطب الاسلامي الذي تمثّل بعد نضج العلم
في الكتاب المملوكي (اوالملوكي) لابي بكر الرازي الملقب جالينوس العرب الفه لأملاك
عصبة الدولة بن بويه وجع فيه كل ما وجدته متفرقاً من ذكر الامراض ومداواتها
في كتب القدماء الى زمانه في أواسط القرن الرابع للهجرة وللرازي من كتب الطب
والفلسفة وغيرهما شيء كثير . وما زال الناس يعولون على الكتاب الملوكي حتى ظهر
القانون لابن سينا وهو مشهور ومشهور الى اليوم واذا قلبت صفحاته علمت انه قاموس
في الطب والصيدلة وقد جمع خلاصة ابحاث اليونان والكلدان والهنود والفرس والعرب
في الامراض ومعالجتها والعقاقير وخصائصها . وليس هو طب اليونان فقط كما توهم البعض
لأنك تقرأ في اماكن كثيرة منه تفصيلاً لآراء الهنود وانتقادها واستحسناتها . وبما ذكره
من طبهم مثلاً أنهم وصفوا انواع العلق واشكاله وخصائص كل منها^(٢) ومن آرائهم ان
اكل اللبن مع الحوامض او مع السمك يورث أمراضاً منها الجذام . وقولهم ان لا يוכל
ماست مع الفجل ولا مع لحوم الطير ولا سويق على ارز بلين او نحو ذلك^(٣) ناهيك
بالعقاقير الهندية التي تدلّ أسماءها على أصلها

(١) تفح الطيب ١٠٤ ج ١ (٢) القانون ١٠٧ ج ١ (٣) القانون ٨٤ ج ١

ومن الكتب الطبية الاسلامية التي استفاد منها الافرنج في نهضةهم الاخيرة كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف لابن القاسم خلف بن عباس الزهراوي الاندلسي من أهل القرن الخامس للهجرة وهو قاموس في الطب ويمتاز عن سواء بالقسم الجراحي . وكتاب التيسير لعبد الملك بن زهر الاندلسي الفه لابن رشد الفيلسوف في أواسط القرن السادس للهجرة واطباء المسلمين كثيرون وكتبهم كثيرة لا يحل لذكرها هنا

الاطباء المسمامون

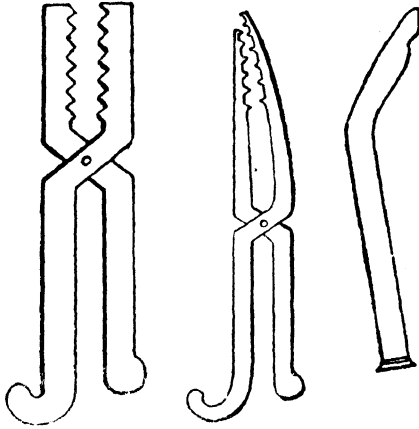
ولو أحصينا الاطباء المسلمين الذين نبغوا بعد ترجمة الكتب الطبية الى انقضاء النهضة العباسية وابتداء عصر التدهور اي في أثناء ثلاثة او اربعة قرون ل زاد عدد المؤلفين منهم ممن بلغت الينا اسماءهم على بضع مئات واكثرهم اشتغلوا بسائر العلوم الدخيلة والقوا الكتب العديدة وترى ذلك مفصلاً في طبقات الاطباء لابن أبي أصيبعة وتراجم الحكماء لابن القفطي وكتاب كشف الظنون وغيرها . اما عدد الاطباء على الاطلاق فما لا يمكن حصره لضياح ذلك مع الزمان وانما يستدل من بعض القرائن انه كان كثيراً جداً . فقد احصوا اطباء بغداد وحدها في زمن المقتدر بالله في أول القرن الرابع للهجرة فبلغ ٨٦٠ طبيباً احتاجوا الى الامتحان لنيل الاذن في التطبيب سوى من استغنى عن الامتحان لشهرته وسوى من كان في خدمة الخليفة ^(١) فلا يمكن ان يكون مجموع ذلك كله اقل من الف طبيب متعاصرين في مدينة واحدة . وبلغ عدد اطباء النصارى فقط في خدمة المتوكل بأواسط القرن الثالث للهجرة ٥٦ طبيباً ^(٢) . وكان سيف الدولة اذا جلس على المسائدة حضر معه ٢٤ طبيباً ومنهم من يأخذ رزقين لتعاطيه علمين ومن يأخذ ثلاثة ارزاق لتعاطيه ثلاثة علوم ^(٣)

وكان للاطباء عندهم نظام وعلمهم رئيس يمتحنهم ويميز من يرى فيه الكفاءة للتطبيب واشهر هؤلاء الرؤساء سنان بن ثابت في بغداد ومهذب الدين الدخوار في مصر . ويقال نحو ذلك في الصيادلة فقد كانوا كثاراً وتقش الغش في الادوية حتى اضطر اولي الامر الى امتحانهم واعطاء الاجازات او المشورات الى الذين يحسنون الصناعة ونفي الآخرين . وأول من فعل ذلك الافشين في بغداد فقد وكل زكريا بن الطيفوري به في حديث

(١) طبقات الاطباء ٢٢٢ ج ١ (٢) طبقات الاطباء ١٩٢ ج ١

(٣) طبقات الاطباء ١٤٠ ج ٢

يطول ذكره^(١) وكان من الاطباء أو الصيادلة من هو خاص بالجند يرافقه في اسفاره ومنهم من هو خاص بالخلفاء والامراء وهؤلاء رواتب خاصة ويعرفون بالمرتزقين • ومنهم من يطبون العامة وهم غير مرتزقين



وكان الاطباء طبقات وأصنافاً وفيهم الطبيب على اجماله والجراح والفاسد والكحال والاستاني ومن يعالج النساء والمحاطي فقط أو يطب المجانين فقط — على نحو الاطباء الاختصاصيين في هذه الايام • وكان الكحالون في مصر اكثر منهم في سواها لتعرضها لامراض العين وكانوا يعالجون الماء الازرق بقدرح العين على نحو عملية الكثر كتنا اليوم

ونبع جماعة من النساء اشهرن وصناعة الطب منهن^(٢) اخت الحفيد بن زهر الاندلسي وابنتها فقد كانتا عالمتين بصناعة الطب ولهما خبرة جيدة بمدواة النساء وكانتا تدخلان على نساء المنصور الاندلسي وأهله ولا يقبل المنصور سواهما^(٣) واشتهر في أيام بني أمية بالشام امرأة اسمها زينب طيبة بني أود كانت عالمة بالاعمال الطبية ومدواة العين بالجراحة^(٤) فضلاً عما اشتهر منهن بالعلم والادب كشهادة الديورية وبنت ديهين اللوز الدمشقية وغيرها

وكان الفحص الطبي عندهم قاصراً على فحص البول وجس النبض • فيأتي المريض ومعه قارورة الماء أي زجاجة البول فيسلمها الى الطبيب فينظر فيها ثم يذوقها ليتحقق وجود الحوامض أو القوابض أو السكر فيها ثم يجس النبض وعند ذلك يحكم في حال المريض لاعتقادهم ان النبض يدل على مزاج القلب والبول على مزاج الكبد وحال الاخلاط • ومهما يكن من اعتقادهم فان هذه الطريقة لا تزال مما يعوّل عليه الاطباء الى اليوم

(١) ابو الفرج ٢٤٤ (٢) طبقات الاطباء ٧٠ ج ٢

(٣) طبقات الاطباء ١٢٣ ج ١

ما الذي أحدثه المسلمون في الطب

بقي علينا النظر في ما أحدثه المسلمون في الطب من الاختراعات الجديدة أو الآراء المبتكرة والحكم في ذلك يستلزم درساً طويلاً لا يسهل هذا المكث . على أننا نقول بالاختصار ان المسلمين جمعوا بين طب اليونان والفرس والهنود والكلدان والعرب كما تقدم وأضافوا الى ذلك كثيراً من نتائج اختبارهم في هذه الصناعة كما يظهر من مراجعة كتبهم الطبية فانهم كثيراً ما يذكرون رأي جالينوس أو أبقراط مثلاً وبنقدونه ويبينون وجه الخطأ وصوابه ^(١) . فضلاً عما ادخلوه من الترتيب والتبويب في الكتب التي ترجموها كما فعل ابن ابي الاشعث بكتب جالينوس فانه رتبها وبوَّها وفصلها تسبيلاً لمطالعها ^(٢) غير ما أحدثوه من الشروح والذبول لكتب القدماء . ففي ذيل ابن جليل على كتاب ديسقوريدس عقاقير لم يعرفها القدماء

أما ما أحدثوه من عند انفسهم رأساً فالاحاطة به من الامور الشاقة التي يعسر تحقيقها فنذكر ما ثبت عندنا حدوثه على سبيل المثال . من ذلك أنهم احدثوا في الطب آراء جديدة تخالف آراء القدماء في تدبير الامراض وان لم يصلنا خبر غير القليل منها مثل نقلهم تدبير اكثر الامراض التي كانت تعالج قديماً بالادوية الحارة (على اصطلاحهم) الى التدبير البارد كالنالج واللقوة والاسترخاء وغيرها وذلك على غير ما سطره القدماء . واول من فطن لهذه الطريقة ونبه عليها وأخذ المرضى بالمداواة بها الشيخ ابو منصور صاعد بن بشر الطبيب في بغداد فانه أخذ المرضى بالفصد والتبريد والترطيب ومنعهم من الغذاء فأنتج تدبيره فعينوه رئيساً للمارستان العضدي فرفع منه المعاجين الحارة والادوية الحارة ونقل تدبير المرض الى ماء الشعير ومياه البزور فأظهر في المداواة عجائب فاقتدى به سائر الاطباء بعده ^(٣)

والعرب اول من استخدم المرقد ^(٤) (البنج) في الطب يقال انهم استخدموا له الزوان او الشليم وهم اول من استخدم اخلاص المعروف عند الاطباء

وقد وجد محققو الافرنج ان العرب اول من استخدم الكاويات في الجراحة على نحو استخدامها اليوم وأنهم اول من وجه الفكر الى شكل الاظافر في المسلولين ووصفوا علاج اليرقان والهواء الاصفر واستعملوا الافيون بمقادير كبيرة لمعالجة الجنون ووصفوا صب الماء البارد

(١) القانون ٢١ ج ٣ (٢) طبقات الاطباء ٢٤٦ ج ١

(٣) طبقات الاطباء ٢٣٢ ج ١ (٤) ابن خلكان ٣١٢ ج ١ والانيسكليويديا

لقطع النزف وعالجوا خلع الكتف بالطريقة المعروفة في الجراحة برد المقاومة الفجائي ووصفوا
 ابرة الماء الازرق وهو قودح العين وأشاروا الى عملية تفتيت الحطاة
 وقد ألف للعرب في بعض فروع الطب ما لم يسبق أحد الى مثله . فالجلذام أول من
 كتب فيه أطباؤهم وأول كتاب في هذا الموضوع ليوحنا بن ماسويه^(١) وهم أول من وصف
 الحصبية والجدري بكتاب لابي بكر الرازي غير ما ألفوه من الموسوعات الزافية في الطب
 الصيدلة والكيمياء والنبات

ومن فروع الطب الصيدلة وللعرب فضل كبير فيها فقد بذلوا الجهد في استجلاب
 العقاقير من الهند وغيرها . بدأوا بذلك من ايام يحيى بن خالد البرمكي كما تقدم ثم نبغ منهم
 الاطباء والصيدالة ووجهوا عنايتهم الى درس العقاقير وقد نقلوا كتباً فيها من الهندية واليونانية
 ثم اشتغلوا هم انفسهم في جمعها . وقد عني الافرنج بعد نهضتهم الاخيرة في درس تاريخ فن
 الصيدلة فتحققوا ان العرب هم واضعو اسس هذا الفن وهم أول من اشتغل في تحضير الادوية
 او العقاقير فضلاً عما استنبطوه من الادوية الجديدة . وانهم أول من الف الاقرباذين على
 الصورة التي وصلت الينا^(٢) وظل العرب في النهضة العباسية يعتمدون في المارستان ودكاكين
 الصيدالة على اقرباذين ألفه سابور بن سهل المتوفى سنة ٢٥٥ هـ حتى ظهر اقرباذين امين
 الدولة ابن التلمذ المتوفى في بغداد سنة ٥٦٠ هـ . وهم أول من انشأ حوانيت الصيدلة على هذه
 الصورة . ومن اقرب الشواهد على ذلك اسماء العقاقير التي اخذها الافرنج عن العرب ولا
 تزال عندهم باسمائها العربية او الفارسية او الهندية كما اخذوها عن العربية

على ان تقدمهم في الصيدلة تابع لتقدمهم في الكيمياء والنبات ولا خلاف في ان
 العرب هم الذين اسسوا الكيمياء الحديثة بتجارهم ومستحضراتهم — وقد تقدم ان أول
 من اشتغل في نقلها الى العربية خالد بن يزيد نقلها عن مدرسة الاسكندرية وعنه اخذ
 جعفر الصادق المتوفى سنة ١٤٠ هـ ونعده جابر بن حيان ثم الكندي فأبو بكر الرازي وغيرهم
 فاكشفوا كثيراً من المركبات الكيماوية التي بنيت عليها الكيمياء الحديثة وقد ذكر تحققوا
 الافرنج ان العرب هم الذين استحضروا ماء الفضة (الحامض النتريك) وزيت الزاج (الحامض
 الكبريتيك) وماء الذهب (الحامض النيتروهيديروكلوريك) واكتشفوا البوتاسا وروح
 النشادر وملحه وحجر جهنم (نترات الفضة) والسليمانى (كلوريد الزئبق) والراسب الاحمر
 (أكسيد الزئبق) وملح الطرطرير وملح البارود (نترات البوتاسا) والزاج الاخضر (كبريتات

الحديد) والكحول والقلي والزرنخ والبورق وغير ذلك من المركبات والمكشفات التي لم يصل اليها خبرها . على اننا نستدل على وجود بعض المركبات الكيماوية في ابامهم مما لم نسمع له بمثل في تاريخ الكيمياء قبل اواخر القرن الماضي — فقد اشار ابن الاثير الى ادوية استخدمها العرب في واقعة الزنج سنة ٢٦٩ هـ اذا طلي بها الخشب امتنع احتراقه^(١) ولم يذكر ما هي . وما يعد من قبيل الكيمياء ايضاً البارود فقد ترجع لنا بالبحث انهم هم الذين ركبه^(٢) . وهم اول من وصف التقطير والترشيح والتععيد والتبلور والتذويب وقد ألفوا في ابطال الكيمياء القديمة — اول من الف ذلك منهم حكيمهم وفيلسوفهم يعقوب الكندي في اواسط القرن الثالث للهجرة^(٣)



العرب يستقظرون العقاقير

وأما الثبات فللعرب القدح الممل في درسه والتأليف فيه وقد أخذوا هذا العلم في الهضة العباسية عن مؤلفات ديسقوريدس وجالينوس ومن كتب الهند . نقل كتاب ديسقوريدس في أيام المتوكل نقله اصطفان بن باسيل من اليونانية الى العربية فالعقاقير التي لم يعرف لها اسماء في العربية تركها على لفظها اليوناني اتكالا على ان يبعث الله بعده من يعرف ذلك

(١) ابن الاثير ١٥١ ج ٧ (٢) الهلال السنة العاشرة صفحة ٨٧

(٣) كشف الظلمون ٣٤١ ج ٢

ويضمه . وحمل هذا الكتاب الى الاندلس على هذه الصورة فانتفع به الناس الى أيام الناصر صاحب الاندلس في أواسط القرن الرابع للهجرة . فكتابه ملك القسطنطينية سنة ٣٣٧ هـ وهاداه بكتب من جامها كتاب ديسقوريدس باليونانية . مصور الحشائش بالتصوير الرومي العجيب ولم يكن في الاندلس من يحسن اليونانية فبعت الناصر الى الملك يطلب اليه رجلاً يعرف اليونانية واللاتينية لينقله الى اللاتينية وعارفو هذه اللغة في الاندلس كثيرون . فبعت اليه راهباً اسمه نقولا وصل قرطبة سنة ٣٤٠ هـ فتعاونوا على استخراج ما فات ابن باسيل تعريبه من عقاير هذا الكتاب . ثم جاء ابن جليجل في آخر القرن الرابع فألف كتاباً في ما فات ديسقوريدس ذكره من أسماء العقاير والادوية وجعله ذيلاً على ذلك الكتاب

حتى اذا نبغ ابن البيطار المالقي النباني في أواسط القرن السابع للهجرة تناول الكتاب المذكور فدرسه وتفهّمه ثم سافر الى بلاد اليونان والى اقصى بلاد الروم ولقي جماعة يعانون هذا الفن وأخذ عنهم معرفة نبات كثير عاينه في مواضعه واجتمع أيضاً في المغرب وغيره بكثير من علماء النبات وعان منابته بنفسه وذهب الى الشام ودرس نباتاتها وجاء الديار المصرية في خدمة الملك الكامل الايوبي وكان يعتمد عليه في الادوية المفردة والحشائش حتى جملة رئيساً على العشابين وأصحاب البسطات . وبمدطول ذلك الاختبار ألف كتابه في النبات وهو فريد في بابهِ ^(١) وكان عليه معمول أهل اوربا في نهضتهم الاخيرة ومن المبرزين في علم النبات رشيد الدين بن الصوري المتوفى سنة ٦٣٩ هـ صاحب كتاب الادوية المفردة وكان كثير البحث والتدقيق يخرج لدرس الحشائش في منابته ويستصحب مصوراً معه الاصباغ والليق على اختلافها وتنوعها ويتوجه الى المواضع التي بها النبات في لبنان وسوريا فيشاهد النبات ويحققه ويريه للمصور فيعتبر لونه ومقدار ورقه واعضائه وأصوله ويصور بحسبها بالدقة ^(٢) وذلك غاية مايفعله الباحثون في هذا العلم اليوم

المارستانات في الاسلام

المارستان او الهمارستان لفظ فارسي معناه مكان المرضى ويقال به اليوم المستشفى ولكن المارستانات كانت في القطن الاسلامي تشمل مدارس الطب والمستشفيات معاً لانهم كانوا يعلمون الطب فيها . والعرب أخذوا المارستانات عن الفرس وانشأوها على مثال مارستان جنديسابور المتقدم ذكره

وأول من أنشأ المارستانات في الاسلام الوليد بن عبد الملك الاموي انشأ مارستاناً بدمشق سنة ٨٨ هـ جعل فيه الاطباء وامر بحبس المجذومين وأجرى لهم الارزاق^(١) فانقضت الدولة الاموية وليس في الاسلام غير هذا المارستان فلما حكم العباسيون كان المنصور اول من استقدم الاطباء من مارستان جنديسابور كما رأيت ولم ينشئ مارستاناً ولكنه أنشأ داراً للعميان والايتام والقواعد من النساء^(٢) وأنشأ هو او من خلفه دوراً لمعالجة المجانين^(٣)

وأول من أنشأ المارستانات في الدولة العباسية الرشيد فانه لما رأى مهارة القادمين عليه من اطباء مارستان جنديسابور أراد ان يكون لبغداد مثل ذلك فأمر طيبه جبرائيل ابن نخيشوع بانشاء المارستان في بغداد . وكان رئيس مارستان جنديسابور يومئذ طيب هندي اسمه دهشتك فبعث اليه ليقبله مارستان بغداد فاعتذر ودلّه على ماسويه فولاه اياه . ثم تولاه ابنه يوحنا بن ماسويه^(٤) وكان البرامكة اهل علم ولهم رغبة في طب الهند وأطبائهم كما رأيت فأنشأوا مارستاناً باسمهم وولوا عليه طبيباً هندياً اسمه ابن دهن وهو ممن نقل الى العربي من اللسان الهندي رأساً^(٥)

ولما اشتهر مارستان بغداد أخذت المدن الاخرى في تقليدها كما قلدها في سائر أسباب ذلك التمدن وكان الفتح بن خاقان وزير المتوكل قد انشأ في مصر مارستاناً عرف بمارستان المغافر فلما تولاه ابن طولون انشأ فيها سنة ٢٥٩ هـ مارستاناً عرف باسمه واتفق على بنائه ٦٠,٠٠٠ دينار وشرط ان لا يعالج فيه جندي ولا مملوك بل يعالج فيه العامة من المرضى والمجانين وغيرهم وحبس ريعاً يضمن بقاءه . وكان يتعهد به بنفسه كل يوم جمعة حتى ساءه أحد المجانين فقطع الزبارة^(٦)

ولم ينقض القرن الثالث للهجرة حتى بنيت المارستانات في مكة والمدينة وغيرها . ولما دخل القرن الرابع تسابق الخليفة المقتدر ووزراؤه الى انشاء المارستانات في بغداد وضواحيها منها مارستان علي بن عيسى الوزير انشأه بالحرية سنة ٣٠٢ هـ واتفق عليه من ماله وقلده طيبه ابا عثمان الدهشقي^(٧) ومارستان السيدة فتحة سنان بن ثابت بسوق يحيى سنة ٣٠٦ هـ وبلغت النفقة عليه ٦٠٠ دينار في الشهر . وفي تلك السنة أشار سنان

(١) المقرئ ٤٠٥ ج ٢ (٢) ابن خلكان ٤٩٥ ج ١ (٣) الكشكول ٢١٣

(٤) طبقات الاطباء ١٧٤ ج ١ (٥) الفهرست ٢٤٥ (٦) المقرئ ٤٠٥ ج ٢

(٧) طبقات الاطباء ٢٣٤ ج ١

المذكور على الخليفة المقتدر ان يتخذ مارستاناً ينسب اليه فأمر فبنوا له بياب الشام من أبواب بغداد المارستان المقتدري وكان ينفق عليه من ماله ٢٠٠ دينار كل شهر • وبني أيضاً الوزير ابن الفرات نحو ذلك الزمن مارستاناً بدرب الفضل عرف باسمه ^(١) وبني غيرهم مارستانات أخرى في الري ونيسابور وغيرها • وفي أواسط القرن الرابع بني المارستان الكافوري بمصر • ثم أنشأ عضد الدولة بن بويه المارستان العضدي سنة ٣٦٨ هـ على طرف الجسر في الجانب الغربي من بغداد ورتب له ٢٤ طبيباً وفيهم الجراحون والكحالون والمجبرون والفاصدون والاطباء الطبيعيون ففاق سائر ما تقدمه من المارستانات وكان على الاطباء رئيس يسمونه « الساعور »

وظل المارستان العضدي صدر المارستانات حتى بنى نور الدين زنكي مارستانه الكبير في دمشق في أواسط القرن السادس ثم بنى صلاح الدين الايوبي المارستان العتيق في القاهرة وغيره • ولما تولى السلاطين المماليك مصر بنى الملك المنصور قلاوون المارستان المنصوري بالقاهرة سنة ٦٨٣ هـ على مثال مارستان دمشق وقد وصفه المقرئزي وصفاً مسهباً في الجزء الثاني من خططه • ولا تزال آثار المارستان المنصوري باقية الى اليوم في شارع النحاسين • ثم بنى الملك المؤيد سنة ٨٢١ هـ المارستان المؤيدي بمصر • ناهيك بما أنشأوه من المارستانات في سائر بلاد الاسلام في فارس وخراسان والموصل الشام والاندلس وغيرها مما يطول شرحه • وفي رحلة ابن جبير وصف ما شاهده بنفسه من مارستانات المسلمين في القرن السادس للهجرة هناك

وكانت تلك المارستانات في غاية النظام يعالج فيها المرضى على اختلاف طوائفهم ونحلهم وفيها لكل مرض قاعة اوقاعات خصوصية يطوفها الطبيب المختص بها وبين يديه المشارفون والقوام لخدمة المرضى فينفق المرضى ويصف لهم الادوية ويكتب لكل مريض دواءه ^(٢) فمن شفي فيها زود السلام ومن مات كفنوه ودفنوه • وكانت تلقى فيها الدروس في الطب والصيدلة وتمارس بها هاتان الصناعتان

وكان من ضروب المارستانات عندهم مارستان يقال يحملونه على الجمال او البغال على نحو المستشفيات الثقالة في دول هذه الايام • فكان في معسكر السلطان محمود السلجوقي مارستان يحمله اربعون رجلاً يستصعبه العسكر حينما توجهوا ^(٣)

(١) طبقات الاطباء ٢٢٢ و ٢٢٤ ج ١ (٢) طبقات الاطباء ١٥٥ ج ٢

(٣) ابن خلكان ٢٧٤ ج ١ وتراجع الحكماء

٣ - التنجيم والنجوم او الفلك

النجوم عند القدماء علمان علم طبيعي ينظر في النجوم من حيث مواضعها وحركاتها واحكامها بالنظر الى الخسوف والكسوف . وعلم ينظر فيها باعتبار علاقتها بمجداث العالم من حيث الحرب والسلم والولادة والوفاة والسعد والنحس والمطر والصحو ونحو ذلك . وتسهيلاً للبحث نسمي الاول علم النجوم او الفلك والثاني علم التنجيم . وقد علمت مما تقدم ان العرب كانوا يعرفون هذين العلمين فلما تمدنوا ونقلوا العلم اضافوا ما اخذوه عن اليونان والفرس والهند والكلدان الى ما كان عندهم فتولد من ذلك كله التنجيم والنجوم عند المسلمين

التنجيم

اول من عني بالتنجيم والنجوم في النهضة العباسية ابو جعفر المنصور فترجموا له السندهند كما تقدم واقتمد به خافاؤه واصبح للتنجيم شان كبير عندهم حتى في ابان العصر العباسي وكان النجومون فئة من موظفي الدولة كما كان الاطباء والكتّاب والحساب ولم الرواتب والارزاق^(١) وكان الخلفاء يستشيرونهم في كثير من احوالهم الادارية والسياسية فاذا خطر لهم عمل وخافوا عاقبته استشاروا النجومين فينظرون في حال الفلك واقتران الكواكب ثم يشيرون بموافقة ذلك العمل او عدمها . وكانوا يعالجون الامراض على مقتضى حال الفلك وكانوا يراقبونها ويعملون باحكامها قبل الشروع في اي عمل حتى الطعام والزبارة . على ان علماء الشرع الاسلامي كانوا يبينون فساد هذا الاعتقاد ويخطئون به ويردونه والناس على اعتقادهم ولا يزال بعضهم على ذلك الى اليوم

علم النجوم او الفلك

كان للمسلمين حظ وافر في علم النجوم وفضل كبير عليه بكثيفك انهم جمعوا فيه بين مذاهب اليونان والهند والفرس والكلدان والعرب الجاهلية شأنهم في اكثر العلوم الدخيلة . فقد رأيت ان محمد الفزاري نقل السندهند للمنصور ليكون قاعدة علم النجوم عند العرب وانه ظل معولم عليه الى عصر المامون . وفي ايامه نبغ محمد بن موسى الخوارزمي وكان منقطعاً الى بيت الحكمة وله علم واسع في النجوم فاصطنع زيجاً جمع فيه بين مذاهب الهند والفرس والروم فجعل اساسه على السندهند وخالفه في التعاديل والميل فجعل تعاديله على مذاهب الفرس وجعل ميل الشمس فيه على مذهب بطليموس واخترع فيه ابواباً حسنة فاستحسنه

اهل عصره وطاروا به في الآفاق . ولكنه جعل تاريخه على الحساب الفارسي فنقله مسلمة بن احمد المرحطي الاندلسي المتوفى سنة ٣٩٨ هـ الى الحساب العربي ووضع اواسط الكواكب لاول تاريخ الهجرة^(١) والزيج كتاب فيه جداول حركات الكواكب يؤخذ منها التقويم واشتهر منهم في علم النجوم بنو شاكر الثلاثة وقد تقدم ذكرهم . ومن اعلام الماثورة انهم قاسوا للمأمون درجة خط نصف النهار واستعملوا فيها تحيط الارض في حديث ذكره ابن خلكان وغيره . وقد الف بنو شاكر كتباً جلية في الفلك والهندسة ونبغ في عصرهم ابو معشر البلخي المتوفى سنة ٢٧٢ هـ كان معاصراً للكندي يغري به العامة ويشنع عليه بعلوم الفلاسفة فدرس له الكندي من حسن له النظر في الرياضيات فدخل ذلك واستغرق فيه واتصل بعلم النجوم والف فيه كثيراً . ومنهم حنين بن اسحق العبادي المترجم الشهير وثابت ابن قرة الحراني المتوفى سنة ٢٨٨ هـ واحمد بن كثير الفرغاني وسهل بن بشر كان يخدم طاهر ابن الحسين . ومحمد بن عيسى الماهاني ومحمد بن جابر الحراني المعروف بالبتاني وكان صائياً اصطنع زيجاً عرف بالزيج الصابي وهو نسخان الثانية اصح . ابتداء بالرصد سنة ٢٦٤ الى سنة ٣٠٦ هـ واثبت الكواكب في زيجه سنة ٢٩٩ هـ وكان اوحده عصره في فنه وتوفي سنة ٣١٧ هـ^(٢) وغيرهم . يليهم في القرن الرابع والخامس ابو الفواف البوزجاني والبيروني ومعاصروه كثيرون . وامام فلكي القرن السابع للهجرة نصير الدين الطوسي ونبغ في عصره المؤيد الغري وابنه محمد والفخر المراغي بالموصل والفخر الخلاطي بنفليس ونجم الدين القزويني^(٣) وغيرهم في عصور اخرى وتفصيل مؤلفاتهم ووصفها من شؤون « تاريخ آداب اللغة » وانما يهمننا في هذا المقام النظر في ما احداثه التمدن الاسلامي في علم الفلك

واول ما يستلقت انتباهنا من هذا القبيل ان العرب (او المسلمين) قالوا بابطال صناعة التنجيم المبنية على الوهم^(٤) ولعلمهم اول من فعل ذلك وان كانوا لم يستطيعوا ابطالها ولكنهم مالوا بعلم النجوم نحو الحقائق المبنية على المشاهدة والاختبار كما فعلوا بعلم الكيمياء . وكانوا كثيري العناية بعلم الفلك يرصدون الافلاك ويؤلفون الازياج ويقسسون العروض ويراقبون السيارات ويرتحلون في طلب ذلك العلم الى الهند وفارس ويتبحرون في كتب الاوائل وبقمون ما نقص منها او يجمعون بين مذاهبها . ولعلم الفلك عند العرب تاريخ طويل لايسعه هذا المكان فنذكر اولاً المراصد ثم نأتي على امثلة مما استنبطوه في هذا العلم

(١) تراجم الحكماء (خط) (٢) الفهرست ٢٧٩ (٣) ابو الفرج ٥٠١

(٤) ابن خلدون ٤٥٧ ج ١

المراسد

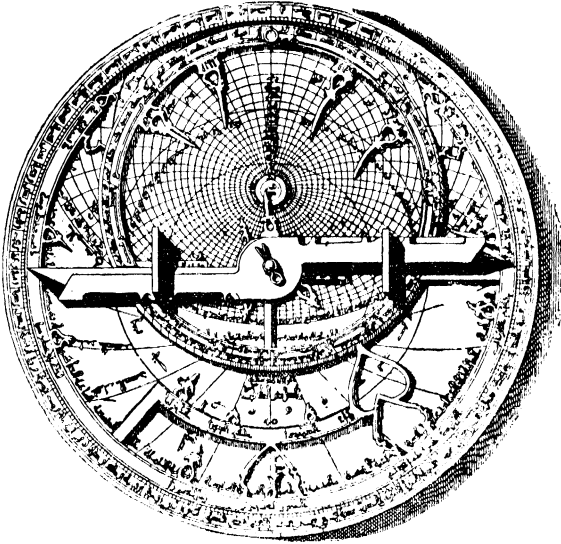
الرصد اساس علم الفلك وعليه المعول في تعيين اماكن النجوم وحركاتها وكان له شان كبير عند اليونان فرصدوا النكواب واصطنعوا آلات الرصد وفي القرن الثالث قبل الميلاد بنوا مرصداً في الاسكندرية بلغ قمة ارتفاعه على عهد بطليموس القلوذي صاحب المجسطى . وظل المرصد الاسكندري وحيداً في العالم حتى نهض العرب وانشاوا المراصد في بغداد ودمشق ومصر والاندلس ومروغة وسمرقند وغيرها كما سيجي .

﴿ آلات الرصد ﴾ وللرصد آلات كان منها في عهد التمدن الاسلامي بضعة عشر شكلاً تختلف باختلاف الغرض منها وهالك اهمها :

- (١) اللبنة : وهي جسم مربع مستوي يستعمل به الميل الكلي وابعاد النكواب وعرض البلد
- (٢) الحلقة الاعندالية : هي حلقة تنصب في سطح دائرة المعدل ليعلم بها التحويل الاعندالي
- (٣) ذات الاوتار : هي اربع اسطوانات مربعة تغني عن الحلقة الاعندالية ويعلم بها تحويل الميل

- (٤) ذات الحلقى : هي اعظم الآلات هيئة ومدلولاً وتركب من حلقة تقوم مقام منطقة فلك البروج وحلقة تقوم مقام المارة بالانطاب تركب احداها في الاخرى بالتنصيف والتقطيع . وحلقة الطول الكبرى وحلقة الطول الصغرى تركب الاولى في محذب المنطقة والثانية في مقعرها . وحلقة نصف النهار وقطر مقعرها مساو لقطر محذب حلقة الطول الكبرى . ومن حلقة الارض قطر محذبها قدر قطر مقعر حلقة الطول الصغرى . وهي توضع على كرسي
- (٥) ذات السميت والارتفاع : هي نصف حلقة قطرها سطح من سطوح اسطوانة متوازية السطوح يعلم بها السميت وارتفاعه وهي من مخترعات الرصاد الاسلاميين

- (٦) ذات الشعبتين : هي ثلاث مساطر على كرسي يعلم بها الارتفاع
- (٧) ذات الجيب : هي مسطرتان منتظمتان انتظام ذات الشعبتين
- (٨) المشبهة بالناطق : لمعرفة ما بين الكوكبين من البعد وهي ثلاث مساطر
- (٩) الاسطرلاب : وهو انواع كثيرة منها التام والمسطح والطوارى والهلالى والزورقي والعقري والاسي والقوسي والجنوبي والشمالي والمبطح والمسرطق وحق القمر والمغني والجامعة وعصا موسى . ناهيك من آلات الرصد بالارباع واشكالها ولكل شكل تنوعات مما لا يحصىه عدد (١)



اسطرلاب عربي

﴿ المرصد في الاسلام ﴾ لما اشتغل المأمون في نقل علوم الاوائل الى العربية ووقف العلماء على كتاب المجسطي وفهموا صور آلات الرصد الموصوفة به نزعته به همته الى تحديه فجمع علماء النجوم في عصره وامرهم ان يصنعوا آلات يرصدون بها الكواكب كما فعل بطليموس صاحب المجسطي ففعلوا وتولوا الرصد بها بالشامية في بغداد وجبل قيسون في دمشق سنة ٢١٤ هـ^(١) ولما توفي المأمون سنة ٢١٨ هـ توقفوا عن العمل وقيدوا ما كانوا قد تبينوه من رصدهم وسموه الرصد المأموني . وكان الذين تولوا ذلك يحيى بن ابي منصور كبير النجدين في عصره وخالد المروزي وسند بن علي والعباس بن سفيد الجوهري فالتفت كل منهم في ذلك زيجاً منسوباً اليه . وارصاد هؤلاء اول الارصاد في الاسلام^(٢) .

ثم بنى بنو شاذلي مرصداً في بغداد على طرف الجسر عند اتصاله بالطاق ورصدوا الكواكب فيه واستخرجوا حساب العروض الاكبر من عروض القمر^(٣) وبنى شرف الدولة ابن عضد الدولة مرصداً في طرف بستان دار المملكة في اواسط القرن الرابع للهجرة وقد رصد فيه الكواكب السبعة ابوسهل الكوفي^(٤)

(١) تراجم الحكماء (خط) (٢) كشف الظنون ٥٧٣ هـ ج ١

(٣) فوات الوفيات ١٥١ هـ ج ١ (٤) ابو الفرج ٢٠٧

ولما ضعف شأن الخلافة في بغداد وتشعبت المملكة العباسية الى فروع تحولت اهمهم الى تلك الفروع واكبرها المملكة المصرية في ايام الفاطميين فانشاوا رصداً (او مرصداً) على جبل المقطم عرف بالرصد الحاكمي نسبة الى الحاكم بامر الله المتوفى سنة ٤١١ هـ وفيه استخرج ابن يونس الزيج الحاكمي^(١) ثم اعيد بناء هذا الرصد في ايام الافضل بن امير الجيوش المتوفى سنة ٥١٥ هـ وذكر المقرئ في خبر انشائه في حديث طويل . وانشأ بنو الاعلم ببغداد سنة ٤٢٥ هـ رصداً عرف باسمهم . وذكر صاحب فوات الوفيات رصداً في حدود الشام سماه البيهقي (كذا) وما زال الرصد الحاكمي عمدة الراصدين حتى نشأ نصير الدين الطوسي على عهد هولاكو التتري فبنى مرصداً في مراغة من بلاد تركستان سنة ٦٥٧ هـ اعدّ فيه كل ما يلزم من الآلات وأنفق فيه الاموال الطائلة وانشأ له مكتبة فيها ٤٠٠,٠٠٠ مجلد^(٢) ثم بنى تيمورلنك مرصداً في سمرقند وبنى غيرهم مرصداً أخرى في اصبهان ومصر والاندلس وارصاداً خصوصية او عمومية لم يصل الينا تفصيلها

علم النجوم والاسلام

وفي هذه المراصد اشتغل المسلمون في رصد الكواكب ووضع الازياج واطولها الزيج الحاكمي المتقدم ذكره كتبه ابن يونس في اربعة مجلدات وكان عليه تعويل المسلمين بعد ما سبقه من الازياج البغدادية . ومن أشهر الازياج زيج الفزاري صاحب المنصور وازياج الخوارزمي وأبي حنيفة الدينوري صاحب رصد اصبهان وأبي مشعر الباهلي وضع زيجه على مذهب الفرس وزيج ابي السمع الغرناطي المتوفى سنة ٤٢٦ هـ وزيج ابي حماد الاندلسي والزيج الايباخي لنصير الدين الطوسي وزيج ابن الشاطر الانصاري سنة ٧٧٧ هـ وغيرهم^(٣) وقد اصلحوا في هذه الازياج كثيراً من الارصاد اليونانية

وللمسلمين طرق جديدة ادخلوها في الرصد من عند انفسهم واخترعوا كثيراً من آلاته كذات السمات والارتفاع اللتين تقدم ذكرهما وذات الاوتار والمشبعة بالناطق فانها من اختراع تقي الدين الراصد^(٤) . والبديع الاسطرلابي البغدادى اتوفى في اوائل القرن السادس للهجرة زاد في الكرة ذات الكرسي ما كمل عملها بعد ان مرت السنين على نقصها والف رسالة في ذلك وكل الآلة الشاملة التي ابتدعها الحنبدى وجعلها بعرض واحد واقام الادلة على انها لا تكون لعروض متعددة فنظر فيها البديع المذكور وعملها

(١) ابن خلسكان ٣٧٥ ج ١ (٢) فوات الوفيات ١٤٩ ج ٢

(٣) كشف الظنون ١٣ ج ٢ (٤) ابجد العلوم ٣٤٢

لعروض متعددة غير ما اخترعه من المساطر والبراكيز وغيرها^(١)
وادخل الشيخ شرف الدين الطوسي تحسيناً في الاسطرلاب فاستنبط ان يقع المقصود
من الكرة والاسطرلاب في خط فوضعه وسماه العصا وعمل فيه رسالة بديمة وهو اول
من اظهر هذا في الوجود فصارت الهيئة توجد في الكرة وهي جسم وفي السطح وفي
الخط ولم يبق غير النقطة^(٢) وبين البتاني نقطة الذنب للارض واصلاح قيمة مبادرة
الاعتدالين وقيمة ميل دائرة البروج على دائرة خط الاستواء وهو اول من استخدم
الجيوب والاوثار في قياس المثلثات والزوايا^(٣)

والبيروني اول من استنبط تسطيح الكرة وقد فصل ذلك في كتابه الآثار الباقية^(٤)
والبيروني استنباطات جلية في الفلك والرياضيات يستدل عليها من قراءة كتابه المذكور
ومن فهرست مؤلفاته في مقدمة ذلك الكتاب • يكفيه انه نقل علوم اليونان الى الهند
ونقل حكمة الهند الى المسلمين • فقد دخل بلاد الهند واقام فيها عدة سنين وتعلم من
حكماؤها فنونهم وعلمهم طرق اليونانيين في فلسفتهم^(٥) بظل السلطان محمود الغزنوي كما
فعل نصير الدين الطوسي في نشر علم النجوم بين المغول في ظل هولاكو التتري وكما
نشره عمر الحيامي بين السلاجقة ومرجع الفضل في ذلك الاسلام

فطار خبر فلنكي المسلمين في اقطار العالم وأصبح المرجع اليهم في تحقيق المسائل فان
ملوك الافرنج كانوا يرسلون اليهم في حل المشكلات الفلكية فيعرضون عليهم المسائل
ويطلبون حلها ليس في الاندلس فقط لقربها من بلادهم ولكنهم كانوا يوفدون الوفود
الى ممالك الاسلام في الشرق لهذه الغاية • ومما نقله ابن أبي أصيبعة ان الانبرور ملك الافرنج
انفذ الى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل رسولا ويده مسائل في علم النجوم وغيره فبعث
بدر الدين الى كمال الدين ابن يونس في حلها في حديث طويل^(٦)

ويمتدح الاسبان ان العرب علموهم الرقاص (البندول) لقياس الزمان ولا يخفى
ما بني على الرقاص من الآلات الفلكية وغيرها • على انهم كانوا يعرفون عمل الساعات من
قبل ويقال ان الرشيد اهدى الملك شارلمان ساعة بديعة تناقل الافرنج خبرها
ومن فضل العرب على الفلك وسائر الرياضيات انهم نقلوا عن اليونانية كتباً ضاع
اصلها بعد نقلاها وحفظت العلوم في ترجماتها العربية • منها مؤلفات تموخارس وارستولس

(١) تراجم الحكماء (٢) ابن خلكان ١٨٥ ج ٢ (٣) القبة الزرقاء ٥

(٤) البيروني ٣٥٧ (٥) ابو الفرج ٣٢٥ (٦) طبقات الاطباء ٣٠٦ ج ١

وكرويات منيلاوس وكرويات ثاوون وشرحه للمجسطي^(١) ولم يقتصر ذلك على كتب الفلك ولكنه تناول كثيراً من العلوم حتى كتب الادب فان كلية ودمنة نقله ابن المقفع من الفارسية وقد ضاع أصله الفارسي فلما عمد أهل أوروبا الى ترجمته نقلوه عن العربية

الحساب والجبر والهندسة

كان العرب في صدر الاسلام يستنكفون من تعلم الحساب لانه من شأن عمال الخراج أهل الذمة والموالي وكانوا يقتصرون على العمل بوصية عمر بتعليم أولادهم الشمر والفروسية والسباحة والمثل • فلما تحضروا ورأوا افتقارهم للحساب مالوا اليه وشاع فيهم قول ابن التوأم « علم ابنتك الحساب قبل الكتاب »^(٢) ثم ما لبثوا ان استغرقوا في طلب العلم كله على اختلاف انواعه ونقلوه الى لسانهم فكان الحساب في جملة تلك العلوم وهو مما اشتغل فيه الفلكيون والمهندسون ونحوهم وقلما انفرد واحد منهم بالحساب وحده

ومن اكبر مآثر التمدن الاسلامي في الرياضيات نقلهم الحساب الهندي والارقام الهندية من الهند الى سائر اقطار العالم • فالعرب يسمونها ارقاماً هندية لانهم نقلوها عن الهنود والافرنج يسمونها عربية لانهم أخذوها عن العرب^(٣) واول من تناول تلك الارقام من الهنود ابو جعفر محمد بن موسى الخوارزمي^(٤) ومن اسمه اشتق الافرنج لفظ (Algorism) الافرنجية

وأما الجبر فلهرب فضل كبير في وضعه او تأليفه فقد رأيت في كلامنا عن نقل العلوم اليونانية ان العرب نقلوا كتابين في الجبر أحدهما لذيوفانتوس والآخر لابرخس • وقد وجد الباحثون بعد نهضة التمدن الحديث ان ما كتبه هذان ليس من الجبر في شيء او هي أصول ضعيفة لا يعتد بها وهم يعتقدون ان الجبر من موضوعات العرب • والحقيقة على ما نرى ان العرب بعد ان اطلوا على حساب الهنود اضافوه الى ما نقلوه عن اليونان وبنوا على ذلك علم الجبر • ومن اشهر كتب المسلمين في الجبر كتاب الجبر والمقابلة للخوارزمي المذكور فالظاهر ان الخوارزمي جمع بين ما عثر عليه من الاصول الجبرية عند اليونان والهنود

(١) القبة الزرقاء ٥ (٢) البيان والتبيين ٢١٣ ج ١

(٣) راجع كتابنا الفلسفة اللغوية الطبعة الثانية ١١٦

(٤) تراجم الحكماء (خط)

والفرس فاستخرج منه الجبر العربي كما جمع في زيجيه بين أراء الهند والفرس واليونان • وقد عني العرب بشرح كتاب الخوارزمي مراراً • والف ايضاً في الجبر ابوكامل شجاع ابن اسلم وابو الوفاء البوزجاني واكثر مؤلفاته في الحساب وابو حنيفة الدينوري المتوفى سنة ٢٨١ هـ وابوالعباس السرخسي المتوفى سنة ٢٨٦ هـ وغيرهم • ولما نهض الافرنج في تمدنهم الحديث اخذوا الجبر عن العرب

ومما احدثه المسلمون في الهندسة انهم طبقوها على المنطق وقد فعل ذلك ابن الهيثم في اوائل القرن الخامس للهجرة فانه الف كتاباً جمع فيه الاصول الهندسية والعديد من اقليدس وابولونيوس ونوع فيها الاصول وقسمها وبرهن عليها ببراهين نظمها من الامور التعليمية والحسية والمنطقية حتى انتظم ذلك مع انتقاص توالي اقليدس وابولونيوس وأدخل في الجبر والحساب اساليب جديدة في استخراج المسائل الحسابية من جهتي التحليل الهندسي والتقدير العددي وعدل فيه عن اوضاع الجبريين والفاظهم^(١)

والحسن بن موسى بن شاكر اشتغل في استخراج مسائل هندسية لم يستخرجها احد من الاولين كقسمة الزاوية الى ثلاثة اقسام متساوية وطرح خطين بين خطين ذي توالي على نسبة (كذا) وكان يحلها ويردها على المسائل الاخرى ولا ينتهي الى آخر أمرها لانها أعيت الاولين^(٢)

الفنون الجميلة

الفنون الجميلة تسمية جديدة لما تنبسط له النفس من المصنوعات الجماله وروقه لالمنفعته ومئاته • والفنون التي تدخل في اعتبارهم تحت هذه التسمية قسمان الاول تظهر اشكاله محسوسة كالخمر والتصوير والنحت والتمثيل • والثاني ما لا يحس ولا يرى بل هو من قبيل الخيال كالشعر والموسيقى • او ان الفنون المذكورة ترجع بكليتها الى التصوير وابعضها صور محسوسة كالمنحوتات والمرسومات وللبعض الاخر صور خيالية كالشعر والموسيقى • والامم التي تمدنت قبل الاسلام اشتغلت في هذه الفنون على تفاوت في اتقانها • ومن اجاد فيها اليونان والرومان فانهم نحتوا التماثيل وصوروا الصور ومثلوا الحوادث ونظموا الشعر وضبطوا الالحان

ومن الاعتقادات الشائعة ان التمدن الاسلامي مقصر في هذه الفنون لانه لم يخاف ما خلفه اليونان أو الرومان من الآثار الجميلة لابلنية والتماثيل والصور ونحوها . ولو دققنا النظر لرأينا المسلمين او العرب من أكثر الامم استعداداً للفنون الجميلة والابادة فيها لا يتقنون شيئاً عن اليونان والرومان وربما فاقوها في بعضها . اما الجمال المحسوس فقد اجادوا في ما يتعلق منه بالبناء ولهم نمط خاص فيه مشهور ومن آثارهم البنائية الحمراء في الاندلس وجوامع القاهرة والشام وفارس والهند وهي تدل على تقدم عظيم في هندسة البناء مع ما فيها من زخارفه كالفسيفساء ونحوها مما يدهش النظر . ولهم نحو ذلك في الصياغة والنسج ونحوها من الصنائع الجميلة . اما التصوير فلم يشتغلوا فيه لانه محرم عندهم كما هو معلوم

اما الشعر فقد يئنا في ما تقدم ان العرب اكثر الامم انطباعاً على الشعر واتقاناً له واكثرهم نظاماً واوسعهم خيالاً

الموسيقى

واما الموسيقى فالعرب فاقوا سواهم فيها وقد وضعوا الالحان واخترعوا الآلات المطربة واثقنوا صنعها وكان للموسيقى عندهم شأن كبير . والمشهور ان العرب كان عندهم من الالحان شيء يوافق سذاجتهم وخشونة الجاهلية فلما ظهر الاسلام واخלטوا بالروم والفرس اقتبسوا الموسيقى عن تلك الامم قبل سائر العلوم الدخيلة لان اقتباسها لا يحتاج الى نقل أو ترجمة . واول من فعل ذلك عبد مكي اسمه سعيد بن مسجع كان حسن الصوت مغرمًا بالموسيقى وكان في مكة عند حصار الامويين لها على عهد عبدالله بن الزبير في الثلث الاخير من القرن الاول للهجرة . واستخدم ابن الزبير بعض رجال الفرس في ترميم الكعبة فسمع ابن مسجع بعضهم يغني بالفارسية فطرب والتقط النغم منه ثم رحل الى الشام وفارس واخذ الالحان الرومية والفارسية والتي منها ما استقبجه من الثبرات والنغم مما لا يألفه الذوق العربي وغنى على هذا المذهب وهو اول من فعل ذلك . واخذ عنه من جاء بعده من مغنيي المسلمين فنبتغ منهم جماعة كبيرة . وكان الغناء يزداد اتقاناً ويزداد نبوغ المغنيين كلما قربت الدولة من الترف والقصف ولذلك كثروا في اواخر الدولة الاموية واواسط الدولة العباسية . ومن اشهر المغنيين ابن سريج والغريض ومعبد وحكم الوادي وفليج بن ابي العوراء وسياط ونشيط وعمر الوادي وابراهيم الموصلي وابنه اسحق وغيرهم . ومن المغنيات جميلة وحبابه وسلامة وعقيلة وغيرهن

ولما اشتغل المسلمون في نقل العلوم الدخيلة كان من جملة ما كتبوا الموسيقى لليونان والهند فتناولها المسلمون ودرسوها واصبحت الموسيقى علماً عندهم باصول وقد جمعوا بين الحان اليونان والهند والفرس والعرب فالفوا من ذلك علماً خاصاً بالتمدن الاسلامي بلغ درجة حسنة من الاتقان . فالفوا فيه المؤلفات المسببة فضلاً عما استنبطوه من الالحان او اخترعوه من الآلات . وكان للخلفاء عناية كبرى في الغناء يبدلون الاموال في سبيل تشييطه كما هو مشهور وكانوا يشترطون في المغني ان يكون حافظاً للشعار والنوادر يحسن النحو والاعراب فكان المغنون في الدولة العباسية من احسن اهل الادب وفيهم من يحسن النقة فضلاً عن الادب واللغة كابراهيم بن اسحق الموصلي^(١) وغيره وبعضهم كان عالماً بالنجوم مثل زرياب المغني . وكثيراً ما كان الخلفاء يجمعون المغنين للمناظرة بينهم في التلحين^(٢) ويميزون الجيدين و يغدقون عليهم الرواتب والجواري . فقد كان راتب الموصلي عند الهادي ١٠,٠٠٠ درهم في الشهر غير الصلات وغلات الضياع وغيرها^(٣) . ولما قدم زرياب المغني من العراق الى الاندلس ركب الامير عبد الرحمن بنفسه لقائه^(٤)

وقد ادخل الموسيقيون المسلمون في فن الموسيقى الحاناً لم تكن من قبل وفيها ما لم يسبق له مثيل في تأثيره . ذكروا منها الحاناً لا يقدر الشعبان الممتلي على غنائها ولا سقاء يحمل قرابة على الترنم بها واخرى لا يقدر المتكلم ان يغنيها حتى يقعد مستوفزاً ولا القاعد حتى يقوم^(٥)

❖ الآلات الموسيقية ❖ والآلات الموسيقية اخذوا اكثرها عن الفرس والانباط والروم والهند فقد كان لكل من هذه الامم آلات خاصة يتغنون بها — كان غناء الفرس والبيدان والصنوج وغناء اهل خراسان بالزنج ذات سبعة اوتار ايقاعه يشبه ايقاع الصنج . وغناء اهل طبرستان والديلم بالطنابير . وغناء الانباط والجرامقة بالعيروارات وهي كالطنابير . والروم كان غنائهم بالآلة يسمونها الاوعر عليها ١٦ وترّاً والسابان له ٢٤ وترّاً واللوزا وهي كالرباب من خشب لها خمسة اوتار والقيثارة ولها ١٢ وترّاً والصليح من جلود البجاجيل والارغن وهو منافخ من الجلود . وكان للهند الكيناكة بوتر واحد يمد على قرعة فيقوم مقام العود والصنج . وكان عند العرب الدف والزهر . فاسلمون جمعوا بين هذه الآلات الكثيرة كما جمعوا بين علوم تلك الامم واستخرجوا احسنها وزادوا فيها وحسنوها فضلاً عما استنبطوه من عند انفسهم كآلة المعروفة بالقانون فقد اخترعها الفارابي الفيلسوف

(١) ابن خلكان ٦٦ ج ١ (٢) حلبة الكيت ١٨٠ (٣) حلبة الكيت ٦٣

(٤) نصح الطيب ١٦٣ ج ١ (٥) الاغاني ٢٠ ج ١

وهو اول من ركبها هذا التركيب ولا تنال عليه الى الآن
 واصطنع الفارابي آلة مؤلفة من عيدان يركبها ويضرب عليها وتختلف انغامها باختلاف
 تركيبها ولكنها في كل حال غريبة في بابها - ذكروا ان الفارابي حضر مجلس غناء لسيف
 الدولة ولم يكن احد من الحضور يعرفه فعاب المغنين فسأله سيف الدولة هل يحسن الغناء
 ففتح خريطة واستخرج تلك الآلة وركبها ثم لعب بها فضحك منها كل من كان في
 المجلس ثم فكها وركبها تركيباً آخر وضرب عليها فبكى كل من كان في المجلس ثم فكها وغير
 تركيبها وضرب ضرباً آخر فنام كل من في المجلس حتى البواب فتركهم نياماً وخرج^(١)
 وزاد المسلمون في العود وترّاً خامساً زاده زرباب بالاندلس وكان للعود اربعة اوتار
 على الصنعة القديمة التي قوبلت بها الطبائع الاربع فزاد عليها وترّاً خامساً احمر متوسط
 ولون الاوتار وطبقها على الطبائع . وهو الذي اخترع مضرب العود من قوادم النسر وكانوا
 قبله يضربون بالخشب . وعباس بن فرناس في الاندلس اصطنع الآلة المعروفة بالمتقال
 يعرف بها الاوقات على غير رسم ومثال^(٢)
 وبالجملة ان العرب لم يقصروا في الفنون الجميلة بل هم فاقوا سواهم في اكثرها وانما
 قصروا في بعضها مراعاة للدين

المدارس في الاسلام

التعليم

قد رأيت في ما تقدم ان القرآن اساس العلوم الاسلامية فتعليمه اساس التعليم الاسلامي
 واول دروس القرآن قراءته فاول المعلمين في الاسلام النبي ﷺ للصحابة وهم علموه للناس
 مع ما ترتب عليه او تفرع عنه من العلوم . ولهذا السبب كانت مدارس المسلمين في
 جوامعهم كما كانت مدارس النصارى في اديرتهم وكنائسهم . وكانوا يسمون التلامذة
 المجتمعين حول استاذ يتلقون علماً من العلوم « حلقة » . وتفرعت العلوم بتوالي الاعوام
 واتسعت دوائرها حتى اصبح للعلم الواحد عدة حلقات والغالب ان تنسب الحلقة الى استاذها
 فيقولون مثلاً حلقة ابي اسحق الشيرازي في جامع المنصور او نحو ذلك . وكانوا يجعلون في كل
 جامع خزانة كتب للمطالعة او الاستنساخ

على ان التعليم لم يكن خاصاً بالمساجد فكثيراً ما كانوا ينشئون حلقات التدريس في
الماستانات او الربط او المنازل او غيرها . وكان الاغنياء اذا ارادوا تعليم اولادهم احضروا
المعلمين الى منازلهم كذلك كان يفعل الخلفاء والامراء ولا يزال اهل الوجاهة يفعلون ذلك
الى اليوم

واشهر الجوامع في التدريس على الاطلاق الجامع الازهر في القاهرة فقد بني مع القاهرة
في اواسط القرن الرابع للهجرة وكانت تلقى فيه دروس القرآن والنقه على جاري العادة في
سائر الجوامع . وكان جماعة من الطلبة يقيمون فيه ويسمّون المجاورين ومنهم من جاء من
اقاصي البلاد الاسلامية حتى تركستان والهند وزيلع وسنار ولكل طائفة منهم رواق باسمها
كرواق الشوام او المغاربة او العجم او الزبالة او السنارية او اليمنية او الهندية فضلاً عن
اروقة اهل الصعيد . وبلغ عدد تلامذة الازهر في اوائل القرن التاسع للهجرة ٧٥٠ طالباً
من طوائف مختلفة وكانوا يقيمون في الجامع ومعهم صناديقهم وخزائنهم يتعلمون فيه الفقه
والحديث والتفسير والنحو والمنطق ومجالس الوعظ وحلق الذكر . وربما بات في الجامع
كثيرون من غير الطلبة للتبرك او المأوى وللجامع المذكور تاريخ طويل ترى تفصيله في
خطط المقرئزي والخطط التوفيقية . على ان حاله كانت تختلف باختلاف المذهب السائد
بمصر وباختلاف مناقب الحكماء . وبلغ عدد مجاوريه في عهد العائلة الخديوية بضعة عشر
الفاً والهمة مبذولة في ادخال بعض العلوم الحديثة فيه

المدارس

ومما لاحظناه من امر التعليم في التمدن الاسلامي ان العلم نضج على اختلاف وجهاته
واثرونيغ العلماء والفقهاء والاطباء والفلاسفة وليس في الاسلام مدرسة مستقلة نحو مدارس
هذه الايام . وقد اجمع المؤرخون المسلمون تقريباً على ان اول من بنى المدارس في الاسلام
نظام الملك الطوسي وزير ملك شاه السلطان السلجوقي في اواسط القرن الخامس للهجرة .
ومن الغريب ان ينقضي العصر العباسي ويتم نقل الكتب وينضج العلم على اختلاف مواضعه
ولم ينشئ المسلمون مدرسة او ان ينشئوا المدارس ولا يرد ذكرها في تاريخهم . ولكننا
رأبنا الافرنج بذكرهم للمسلمين مدرسة انشأها المامون في خراسان وهو وال هناك ^(١)
ولا ندرى من اين نقلوا ذلك ولم نزل ذكرها في كتب العرب التي طالعتها . على اننا
رأبنا في ما ذكره المسلمون عدة مدارس انشئت في نيسابور عاصمة خراسان قبل زمن

نظام الملك منها مدرسة ابن فورك المتوفى سنة ٤٠٦هـ^(١) والمدرسة البيهقية نسبة الى البيهقي المتوفى سنة ٤٥٠هـ والمدرسة السعيدية بناها نصر بن سبكتكين اخو السلطان محمود الغزنوي الشهير ومدرسة بناها اسمعيل الاسترابادي الصوفي الواعظ واخرى بنيت للاستاذ ابي اسحق^(٢) وكل هذه المدارس بنيت قبل بناء المدرسة النظامية في بغداد . حتى نظام الملك نفسه بنى مدرسة بهذا الاسم في نيسابور ايضاً قبل مدرسة بغداد بناها لامام الحرمين في سلطنة الب ارسلان^(٣) فلعل السبب في اشتهار اسبقية نظام الملك في انشاء المدارس الاسلامية انه اول من بنى مدرسة كبرى في بغداد وجعل التعليم فيها مجاناً وفرض لتلامذتها الارزاق والجواري والمعاليم

وفي كل حال ان اول من بنى المدارس في الاسلام الامراء الاعاجم واذا صحت رواية الافرنج عن مدرسة المأمون في خراسان (او نيسابور) فقد بنيت في بلاد اعجمية لغرض اعجمي والا فلماذا لم يبن المأمون مثلها في بغداد لما تولى الخلافة واشتغل في نقل العلوم ؟ — فما هو السبب في اختصاص انشاء المدارس في الاسلام بغير الخلفاء : —

قد رايت في ما تقدم منزلة العلماء المسلمين عند الخلفاء والامراء لارتباط السياسة بالدين عندهم ولان العلماء هم حملة الدين والداعون اليه . فكان العلماء في اوائل الاسلام يشاركون الخلفاء في التفوذ على العامة ويساعدونهم فيه . فلما ضعف شأن الخلفاء وافضت الحكومة الى السلاطين والامراء من الفرس والأتراك والديلم والاكراذ وغيرهم اصبح هؤلاء في حاجة الى اكتساب قلوب العامة لتأييد سلطانهم بما يقوم مقام نفوذ الخلفاء الديني . واقرب السبل المؤدية الى ذلك الاحسان الى الفقراء واکرام العلماء والفقهاء . فأصبح السلطان او الامير اذا تولى بلداً وكان حكيماً عاقلاً فأول ما يسعى فيه تقریب العلماء والفقهاء واسترضاء العامة بانشاء الجوامع والربط والمارستانات ونحوها وتعيين الرواتب والارزاق للعلماء والفقراء وغيرهم فيكتسبون بذلك ثقة العامة ورضى الخاصة — غير ما يرجونه من الثواب . كذلك فعل احمد بن طولون بمصر وعضد الدولة في بغداد ونور الدين في الشام وصلاح الدين بمصر . وآخر من نسج على هذا المنوال محمد علي باشا مؤسس العائلة الحديوية وكان من نتائج مساعيه في هذا السيل حدوث النهضة العلمية في مصر والشام

وذلك ايضاً مما حمل نظام الملك على انشاء المدارس لانه وزر للسلطان الب ارسلان عشر

(١) ابن خلكان ٤٨٢ ج ١ (٢) السيوطي ١٨٥ ج ٢ (٣) ابن خلكان ٢٨٧ ج ١

سنتين وكان بمنزلة والده وله التفوذ الاكبر عنده فلما توفي الب ارسلان وازدحم اولاده على الملك وطد المملكة لولده ملك شاه فصار الامر كله لنظام الملك وليس للسلطان غير التخت والصيد — اقام على ذلك عشرين سنة وكانت طائفة الباطنية قد استفحل امرها في ذلك العصر وكثر المزاحون على السلطة • وكان نظام الملك عاقلاً حكيماً فبذل جهده في استمالة الاعداء وموالاته الاولياء فأكثر من الاحسان حتى عمّ به العدو والصديق والبغض والحبيب • وكان من اهم مساعيه في ذلك انه بنى دور العلم للفقهاء وانشأ المدارس للعلماء وأسس الرباطات للعباد والزهاد واهل الصلاح والفقراء ثم أجرى الجرايات والنفقات لطلبة العلم وغيرهم • وعمّ بذلك سائر اقطار مملكته في الشام وديار بكر والعراقين وخراسان الى سمرقند فلم يكن فيها حامل علم او طالبه او متعبد او زاهد الا وكرامة نظام الملك شاملة له سابغة عليه وقدر واما كان ينفقه في هذا السبيل فبلغ ٦٠٠,٠٠٠ دينار في السنة • فوشى به بعضهم الى السلطان وقالوا « ان الاموال التي ينفقها نظام الملك في ذلك تقيم جيشاً يركز رايته في سور القسطنطينية » فعاتبه ملك شاه في ذلك فأجابه « يا بني انا شيخ اعجمي لو نودي عليّ في من يزيد لم احفظ خمسة دنائير وأنت غلام تركي لو نودي عليك عساك تحفظ ثلاثين ديناراً وأنت مشغول بلذاتك منهمك في شهواتك واكثر ما يصعد الى الله تعالى معاصيك دون طاعاتك وجيوشك الذين تعدّهم للتوابع اذا احتشدوا كاخفوا عنك بسيف طوله ذراعان وقوس لا ينتهي مدى مرماها ثلثائة ذراع وهم مع ذلك مستغرقون في المعاصي والخور والملاهي والمزمار والطنبور وأنا اقم لك جيشاً يسمى جيش الليل اذا نامت جيوشك ليلاً قامت جيوش الليل على أقدامهم صفوفاً بين يدي ربهم فأرسلوا دموعهم واطلقوا السهم ومدوا الى الله اكفهم بالعداء لك ولجيوشك فأنت وجيوشك في خفارتهم تعيشون وبدعاتهم تبيتون وبركاتهم تمطرون وترزقون » فقبل ملك شاه وسكت ^(١) وتوفي نظام الملك مقبلاً سنة ٤٨٥ هـ

ومن الاسباب التي كانت تحمل الامراء غير العرب على انشاء المدارس والمساجد غير التماس الاجر والثواب انهم كانوا ينشأون في بلاط السلطان ويغلب ان يكونوا من صنائعه او مواليه فيكون له عليهم حق الولاء او الرق • فاذا توفي أحدهم عن مال او ضياع وأراد السلطان قبضها فعل وحرم ابناءه منها • فكان الرجل منهم اذا بلغ الامارة وكثر ماله خاف عادية السلطان على من يخلفه من ذريته فيبني المدارس او الزوايا او الربط ويقف

عليها الاوقاف المغلة من ضياعه او ابيته ويجعل في شروط الاوقاف ان يتولاهها بعض ولده وله نصيب منها والاوقاف ثابتة فيما من بذلك على أولاده الفقر وكان من أسباب انشاء المدارس أيضاً تأييد المذهب الذي يتبعه السلطان او الامير فقد كانت القاهرة شيعية منذ بنيت وكانت الدروس التي تلقى في الجامع الازهر على مذهب الشيعة فلما تولاهها صلاح الدين الايوبي ابطال هذا المذهب واحيا المذهب المالكي والشافعي فانشاء المدارس لتعليم هذين المذهبين فبنى المدرسة الناصرية سنة ٥٦٦ هـ للمذهب الشافعي وهي اول مدرسة حدثت بمصر^(١) واقتدى به من جاء بعده من الاكراد والأتراك ومهما يكن السبب فلا خلاف في ان نظام الملك أول من اشتهر بانشاء المدارس في الاسلام في اواسط القرن الخامس للهجرة • فبنى المدارس في بغداد وأصبهان ونيسابور وهرات وغيرها وكل منها تمتع بالنظامية نسبة اليه أشهرها المدرسة النظامية في بغداد تولى بناءها أبو سعيد الصوفي سنة ٤٥٧ هـ على شاطئ دجلة وكتب عليها اسم نظام الملك وبنى حولها اسواقاً تكون محبسة عليها وابتاع ضياعاً وخانات وحمامات وقفها عليها فبلغت النفقة ما يقارب ٦٠,٠٠٠ دينار

وكان للمدرسة المذكورة شأن كبير في العالم الاسلامي وقد تخرج فيها جماعة من رجال العلم طار ذكرهم في الافاق • اول اساتذتها الشيخ ابواسحق الشيرازي ثم الامام ابو نصر الصباغ صاحب الشامل ثم أبو القاسم الدبوسي وأبو حامد الغزالي والشافعي والكيماهراسي والسهرووردي وكل الدين الانباري وغيرهم من اقطاب العلم • فأصبح التعليم في هذه المدرسة من اكبر اسباب الثقة بالمعلمين وكانت تعلم فيها العلوم الدينية والفقهية واللسانية واقتدى السلاطين والامراء بنظام الملك في انشاء المدارس المجانية على هذه الصورة في انحاء المملكة الاسلامية وأشهرهم على الترتيب السلطان نور الدين زكي صاحب دمشق المتوفى سنة ٥٧٧ هـ وهوتركي الاصل بنى المدارس في جميع بلاد الشام وغيرها مثل دمشق وحلب وحماه وحمص وعبابك ومنبج والرحبة غير ما بناه من المارستانات والمساجد ودور الحديث والربط • ثم السلطان صلاح الدين المتوفى سنة ٥٨٩ هـ وهو كردي بنى المدارس في مصر والاسكندرية والقدس وغيرها • ثم الملك المعظم مظفر الدين صاحب اربل المتوفى سنة ٦٣٠ هـ فقد بنى كثيراً من المدارس ودور الايتام والملاقيط والارامل وغيرها • واقتدى بالسلطان صلاح الدين من خلفه من أهله في مصر فتسابقوا الى انشاء المدارس

فيها فبلغ عددها بعد انقضاء ملكهم ٢٥ مدرسة ولما افضى الملك الى السلاطين المماليك ساروا على خطواتهم واقتدى بهم الاغنياء فبلغ عدد ما أنشأوه بمصر الى أيام المقرئ في أواسط القرن التاسع للهجرة ٤٥ مدرسة وصار المجموع ٧٠ مدرسة. ويقال نحو ذلك في الاصقاع الاخرى. وأول من أنشأ المدارس في الدولة العثمانية السلطان اورخان المتوفى سنة ٧٦١ هـ واقتدى به سلاطين آل عثمان بانشائها وأشهرها المدارس الثمان التي انشاها السلطان سليمان ^(١)

وجاء في رحلة ابن جبير الذي طاف الشرق الاسلامي في القرن السادس انه شاهد عشرين مدرسة في دمشق و ٣٠ في بغداد. اما الاندلس فقد نقل الأمير علي صاحب تاريخ الاسلام في الانكليزية ان العرب أنشأوا المدارس في قرطبة واشبيلية وطليطلة وغرناطة ومالقة وغيرها وان مملكة غرناطة وحدها بلغ عدد مدارسها ١٧ مدرسة كبرى و ١٢٠ مدرسة صغرى ^(٢) ولكن يظهر ان مدارس الاندلس أنشئت على غير مثال المدرسة النظامية — قال المقرئ صاحب نفح الطيب « وليس لاهل الاندلس مدارس تعينهم على طلب العلم بل يقرأون جميع العلوم في المساجد باجرة فهم يقرأون لان يتعلموا لا لان ياخذوا جازياً » ^(٣) فترى في عبارة المقرئ نقياً صريحاً للمدارس في الاندلس فالظاهر ان الامير علياً المذكور نقل كلامه عن الافرنج وهؤلاء ربما يعنون مدارس المساجد والمدارس في الاسلام على اشكال منها حلقات الجوامع والربط والزوايا ومنها المدارس الحانية الكبرى للعلوم الاسلامية والمارستانات للطب والفلسفة غير ما قد يعقده العلماء من مجالس التعليم في منازلهم. وعدد الطلبة في كل حال يختلف باختلاف شهرة الاستاذ في فنه فكان يجتمع في حلقة الفارابي مئات من المثمن من الطلبة. وقد يكون للاستاذ تلامذة يحتم تلامذة — ذكروا ان أبا بكر الرازي الطيب الشهير كان يجلس في مجلسه ودونه التلاميذ ودونهم تلاميذهم ودونهم تلاميذ آخر فكان يجيء الرجل فيصف ما يجد لأول من يلقاه فان كان عندهم علم والا تعدهم الى غيرهم فان اصابوا والا تتكلم الرازي ^(٤) وكان الاستاذ يزداد شهرة ونفوذاً بازدياد تلامذته واذا مشى مشوا حوله وقد يركب وهم مشاة — كان الامام نحر الدين بن خطيب الري اذا ركب مشى حوله ٣٠٠

(١) الشقائق النعمانية ١٠٤ ج ٢

(٢) Ameer Ali's Short History of the Saracens 627

(٣) نفح الطيب ١٠٤ ج ١ (٤) الفهرست ٢٩٩

تلميذ من الفقهاء^(١) . وكان الشيخ الاستاذ اذا قرأ عليه احد كتاباً كتب هو علامته على الكتاب شهادة بأنه قرئ عليه . ومن اكثر العلماء تلازمة الشيرازي والفارابي والرازي وابن خطيب الري وابن سينا والغزالي . وكان التعليم شاملاً كل طبقات الناس حتى المماليك والجواري والعبيد والمخائيت وغيرهم

المكاتب او خزائن الكتب

ما برح الناس منذ اخذوا في تدوين اعمالهم واخبارهم وعلومهم وهم يحرصون على استبقاء ما يدونونه لانهم انما دونوه رغبة في استبقائه . ويعبرون عن المكان الذي يحفظون الكتب فيه بالمكتبة او خزانة الكتب واقدم من انشاء المكاتب في العالم البابليون سنة ١,٧٠٠ قبل الميلاد ومن بقاياهم مكتبة عثر عليها علماء القرن الماضي في خرائب بابل واشور هي عبارة عن قرميدات من الطين المجفف عليها كتابة بالحرف الاسفيني . يليهم المصريون القدماء فقد وصف ديودورس مكتبة وجدوها في قبر ملك مصري اسمه اوسيندياس . ثم اليونان وهم اول من انشاء المكاتب العمومية لفائدة الناس واقدم منشئها بيسستراتوس في اواسط القرن السادس قبل الميلاد . وذكر بلوتارخس مكتبة في برغاموس مؤلفة من ٢٠,٠٠٠ مجلد . وانشاء البطالسة مكتبة الاسكندرية الشهيرة . ثم الرومان واول مكاتبهم نقلوها عن مكدونية الى رومية سنة ١٦٧ ق م ثم استولوا على مكتبة برغاموس المذكورة سنة ١٣٣ ق م ثم نقلوا مكاتب اثينا سنة ٨٦ . ولما عظم شان قسطنطين في القسطنطينية انشاء فيها مكتبة سنة ٣٥٥ م غير ما تقدم ذكره من خزائن الفرس في الرساتيق والازج . ثم كف الناس عن انشاء المكاتب حتى تمدن المسلمون وانشاوا مكاتبهم

المكاتب الاسلامية

لما ظهر الاسلام ونهض المسلمون للفتح احرقوا ما عثروا عليه من الكتب لاسباب تقدم بيانها لكنهم ما لبثوا ان تحضروا وذاقوا طعم العلم حتى اصبحوا احرص الناس على الكتب واكثرهم بذلاً في الحصول عليها واشدهم عناية في صيانتها . وقد رأيت ان العرب قضوا القرن الاول ونصف الثاني وابحاثهم قاصرة تقريباً على العلوم الاسلامية ولم يدونوها الا في اواخر تلك المدة . فكان ما يجمعونه من الكتب محصوراً في الاشعار والاخبار والامثال

مكتوبة على الرقوق او الجلود او الانسجة او نحوها - قالوا ان كتب ابي عمرو بن العلاء كانت تملأ بيته الى السقف وقالوا نحو ذلك في سائر رواة الادب والشعر كلاسعي وحماد وابي عبيدة

غير ان ذلك لا يعد من قبيل المكاتب العمومية التي انما يقوم بانشاءها ولاية الامور او من يجري مجراهم . ومرجع الفضل في انشاء هذه المكاتب الى خلفاء النهضة العباسية وان كنا نرى ذكر خزائن الكتب في ايام بني امية التي اخرج عمر بن عبد العزيز منها كئناس هرون فتلك على الغالب مما انشأه الاطباء او الفلاسفة الذين كانوا في خدمة تلك الدولة لانفسهم اولادهم

* مكاتب بغداد * اما في الدولة العباسية فكان انشاؤها من جملة اسباب نهضتهم لنقل العلوم فانشاوا مكتبة في بغداد سموها « بيت الحكمة » الغالب ان الرشيد انشأها وجمع اليها ما كان قد نقل الى العربية من كتب الطب والعلم وما ألف من العلوم الاسلامية مع ماسعى يحيى بن خالد في جمعه من كتب الهند وما وقع للرشيد من كتب الروم في انقره وغيرها . ولما تولّى المأمون وانشأ مجالس الترجمة جمع في بيت الحكمة كتب العلم في لغاتها وفيها اليونانية والسريانية والفارسية والهندية والقبطية فضلاً عن العربية . وعلم الناس رغبته في ذلك فاتوه بالكتب على اختلاف مواضعها واشكال خطوطها ولو لم يكن لها قيمة علمية ككتاب ذكر ابن النديم انه بخط عبد المطلب بن هاشم جد النبي علي جلد وفيه ذكر حق عبد المطلب المذكور « علي فلان بن فلان الحميري من اهل صنعاء عليه الف درهم فضة كبراً بالمديدة ومتى دعاه بها اجابه شهد الله والملائكة »^(١)

وكان بيت الحكمة عبارة عن مجالس للترجمة او النسخ او الدرس او التأليف فيجاس النساخ في اماكن خاصة بهم ينسخون لانفسهم او باجور معينة وكذلك المترجمون والمؤلفون والمطالعون . ومن نساخ بيت الحكمة علان الشعبي اصله فارسي وكان راوية عارفاً بالانساب والمناقب وكان ينسخ في بيت الحكمة للرشيد والمأمون والبرامكة وله كتاب في مثالب العرب هنك فيه العرب واطهر مثالها^(٢) ومن كان يتردد الى بيت الحكمة للطباعة او التأليف محمد بن موسى الخوارزمي النخعي ويحيى بن ابي منصور الموصلی أحد اصحاب الارصاد في ايام المأمون والفضل ابن نوح بن النخعي واولاد شاكرو وغيرهم . وكان لبيت المذكور قيم يدير شؤونه يسمى صاحب بيت الحكمة واشهر مديريها سهل بن هارون وهو فارسي شعوبي

شديد التعصب على العرب وله في ذلك كتب كثيرة ومنهم سلم وله نقول من الفارسي الى العربي . فترى من ذلك ان البيت او الخزانة المذكورة انشئت على يد الفرس وخدمتها والمترددون اليها من الفرس واكثرهم من الشعوبية الذين يكرهون العرب ولذلك سبب متصل بقيام الخراسانيين بنصرة المامون لاسباب ذكرناها في الجزئين الماضيين من هذا الكتاب ثم انشأ البغداديون المكاتب على مثال بيت الحكمة اشهرها مكتبة وقفها سابور ابن اردشير وزير بهاء الدولة في محلة بين السورين في الكرخ سنة ٣٨١ هـ وجعل فيها اكثر من عشرة آلاف مجلد كلها بخطوط الائمة المعنبرة وكان المؤلفون يقفون عليها نسخاً من مؤلفاتهم — واحترقت في ما احترق من محال الكرخ عند مجيء طغرل بك اول ملوك السلجوقية الى بغداد سنة ٤٤٧ هـ^(١) ومن تولّى حفظها والاشراف عليها عبد السلام البصري اللغوي المتوفى سنة ٤٠٥ هـ^(٢) . واشتهر بجمع الكتب من بني العباس الخليفة الناصر بن المستضيء المتوفى سنة ٦٢٢ هـ^(٣)

* مكاتب الاندلس * وكان المأمون مثلاً في انشاء المكاتب بالمالك الاسلامية كما كان مثلاً في سائر اسباب النهضة العلمية . فاقتدى به بنو امية في الاندلس واشبههم به الحكم بن الناصر الذي تولّى الخلافة سنة ٣٥٠ هـ وتوفي سنة ٣٦٦ هـ وكان نجباً للعلوم مكرماً لاهلها جماعاً للكتب على انواعها بما لم يجمعه احد من الملوك قبله . فانشأ في قرطبة مكتبة جمع اليها الكتب من انحاء العالم فكان يبعث في شرائها رجالاً من التجار ومعهم الاموال ويحرضهم على البذل في سبيلها لينافس بني العباس في اقتناء الكتب وتقريب الكتاب . وكان ابو الفرج الاصبهاني صاحب الاغانى معاصراً له وهو اموي مثله فبعث اليه ان يرسل اليه كتاب الاغانى قبل اخراجه الى بني العباس وبذل له على ذلك الف دينار ذهب . وفعل نحو ذلك مع القاضي ابي بكر الابهري المالكي في شرحه لمختصر ابن عبد الحكيم وغيره فاجتمع له من الكتب ما لم يسبق له مثيل في الاسلام . فجعلوها في قاعات خاصة من قصر قرطبة اقاموا عليها مديراً ومشرقاً ووضعوا لها الفهارس لكل موضوع على حدة . وذكروا ان فهارس الدواوين وحدها ٤٤ فهرساً في كل فهرس عشرون ورقة^(٤) فاذا قدرنا للصفحة ٢٥ اسماً فقط كان مجموع عدد الدواوين ٤٤,٠٠٠ كتاب فكيف بسائر الكتب ولا نظننا نبالغ اذا سلمنا

(١) ابن الاثير ١٤٥ ج ١٠ ومعجم ياقوت ٧٩٩ ج ١

(٢) طبقات الادباء ٤١٢ وابن خلكان ٣٥٠ ج ٢ (٣) ابن خلدون ١٤٦ ج ٤

(٤) ابن خلدون ١٤٦ ج ٤

مع ابن خلدون والمقري ان مجموع ماحوته تلك المكتبة ٤٠٠,٠٠٠ مجلد^(١)
واقترى بالحكم رجال دولته وعظماء مملكته وانشأوا المكاتب في سائر بلاد الاندلس
حتى قالوا ان غرناطة وحدها كان فيها سبعون مكتبة من المكاتب العمومية . واصبح حب
الكتب في الاندلس سجية في اهلها واصبح اقتناؤها من شارات الوجاهة والرئاسة عندهم .
وقد يكون الرئيس منهم جاهلاً ويحفل ان يكون في بيته خزانة كتب ليقال فلان عنده
خزانة كتب والكتاب الفلاني ليس عند احد غيره والكتاب الذي هو بخط فلان قد حصله
وظفر به — قال الحضرمي « أقت مرة بقرطبة ولازمت سوق كتهامة اترقب فيه وقوع كتاب
كان لي يطلبه اعناء الى ان وقع وهو بخط فصيح وتفسير مليح ففرحت به اشد الفرح فجعلت
ازيد في ثمنه فيرجع اليّ المئادي بالزيادة عليّ الى ان بلغ فوق حده . فقلت له يا هذا ارني
من يزيد في هذا الكتاب حتى بلغه الى مالا يساوي — قال فاراني شخصاً عليه لباس رئاسة
فدنوت منه وقلت له اعز الله سيدنا النقيب ان كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك
فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حده . فقال لي لست بفقيه ولا ادري فيه ولكنني اقت
خزانة كتب واحفلفت فيها لا تجمل بها بين اعيان البلد وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب
فلما رأته حسن الخط جيد التجليد استحسنته ولم ابال بما ازيد فيه والحمد لله على ما انعم به
من الرزق فهو كثير — قال الحضرمي فاحرجني وحملني على ان قلت له نعم لا يكون الرزق
كثيراً الا عند مثلك يعطي الجوز من لاله اسنان وأنا الذي اعلم مافي هذا الكتاب
واطلب الانتفاع به يكون الرزق عندي قليلاً وتحول قلة ما يدي بي وبني»^(٢)

وظل اهل قرطبة في كل حال احسن الاندلسيين رغبة في الكتب كما كان اهل
اشبيلية ارغبهم في اللهو والطرب فاذا مات عالم في اشبيلية فاريد بيع كتبه حملت الى
قرطبة حتى تباع فيها واذا مات مطرب بقرطبة فاريد بيع تركته حملت الى اشبيلية^(٣) —
اما مكتبة قرطبة فما زالت في قصرها حتى بيع اكثرها في حصار البربر ثم اتم عليها الافرنج
* مكاتب مصر * واقترى بخلفاء بغداد والاندلس الخلفاء الفاطميون بمصر بدا
بذلك منهم العزيز بالله ثاني خلفائهم تولى الخلافة سنة ٣٦٥ هـ وهو شاب فاستوزر يعقوب
ابن كلس وكان يعقوب مدبراً ونجماً للعلم فرتب له الدواوين وقرب اليه العلماء على اختلاف
طبقاتهم واجرى لهم الارزاق وحبب الى الخليفة اقتناء الكتب فجمع منها جانباً كبيراً اخصص
لها قاعات في قصره وسماها « خزانة الكتب » وبذل الاموال في الاستكثار من المؤلفات

المهمة في التاريخ والادب والفقه ولو اجتمع من الكتاب الواحد عشر نسخ او مئة نسخة او اكثر — ذكروا انه كان فيها من كتاب العين للغيل نيف وثلاثون نسخة منها نسخة بخط الحليل نفسه وعشرون نسخة من تاريخ الطبري واشتروا النسخة بمئة دينار ومئة نسخة من كتاب الجهرة لابن دريد . وكان عدد النسخ المكررة يزداد بتوالي الاعوام حتى بلغ عدد النسخ من تاريخ الطبري عند استيلاء صلاح الدين الايوبي علي مصر ١,٢٠٠ نسخة وكان فيها ٣,٤٠٠ ختمة قرآن بخطوط منسوبة محلاة بالذهب . فلا عجب اذا قالوا انها كانت تحوي ١,٦٠٠,٠٠٠ كتاب^(١) في الفقه والنحو واللغة والحديث والتاريخ والنجامة والروحانيات والكيمياء منها ١٨,٠٠٠ كتاب في العلوم القديمة فيها ٦,٥٠٠ جزء من كتب النجوم والهندسة والفلسفة خاصة^(٢) غير ادوات الهندسة والنلك

علي اننا نرى في تقدير تلك الكتب مبالغة . وقد قدرها آخرون ٢٠٠,٠٠٠ كتاب وغيرهم ١٢٠,٠٠٠ ونظن في تقديرهم التباساً من حيث المراد بخزانة الكتب او خزائن الكتب . لان العزيز بعد ان اشأ خزائنه بقصره اقتدى به جماعة من اهله فأشأوا مثلها في قصورهم . فالظاهر ان المراد بالتقدير القليل عدد الكتب في خزانة العزيز خاصة وبالكثير عدد ما في خزائن القصور كلها . وبهذا الاعتبار لا يقل عدد الكتب في خزائن القصور عن ١,٠٠٠,٠٠٠ مجلد او كتاب

وكان للعزيز عناية كبيرة في خزائنه يتعهد بها بنفسه حيناً بعد حين وقد رتب لها قيماً يتولى شؤونها ويحاسبه ويقراً له الكتب ويناديه . ومن تولى ذلك ابو الحسن الشافعي الكاتب المتوفى سنة ٣٩٠ هـ^(٣)

وقد اصاب هذه الخزائن من الاحن بتوالي الفتن مثل ما اصاب مكتبة الاسكندرية في عهد الرومان . فالتى بعض صحتها في النار والبعض الآخر في التيل وترك بعضها في الصحراء فسفت عليه الرياح حتى صار تلاماً عرفت بتلال الكتب . واتخذ العبيد من جلودها نعلاً مما يطول شرحه . وبالاجمال فقد طرح ما بقي منها عند دخول الاكراد للمسيح في واسط القرن السادس وكان في جملة ما أخرجه من تلك القصور نحو ١٢٠,٠٠٠ كتاب اعطاها صلاح الدين للفاضل عبد الرحيم البيساني^(٤)

(دار الحكمة) وتسمى أيضاً دار العلم وهي غير خزانة العزيز او خزائن القصور

(١) المقرئ ٤٠٨ و ٤٠٩ ج ١ (٢) تراجم الحكماء

(٣) ابن خلكان ٣٣٨ ج ١ (٤) ابن خلدون ٨١ ج ٤

كما توهم الاكثرون • انشأها الحاكم بامر الله بن العزيز بالله سنة ٣٩٥ هـ بجوار القصر الغربي بالقاهرة وحل اليها الكتب من خزائن التصور ووقف لها اما كن بنفق عليها من ريعها • ففرشوها وزخرفوها وعلتوا السطور على أبوابها وعمراتها وأقاموا عليها القوام والمشرفين • والغرض من دار الحكمة مثل الغرض من بيت الحكمة الذي انشأه العباسيون اي لخدمة الناس في المطالعة والدرس والتأليف • وهي طريقة التقدماء في تعليم الناس اذ يتعذر على غير الاغنياء اقتناء الكتب الكثيرة نظراً لغلائها فمن احب تعليم رعيته انشأ مكتبة جمع فيها الكتب وفتح أبوابها للناس كما فعل البيطالسة في مكتبة الاسكندرية والعباسيون في بيت الحكمة ببغداد • وقد عدّ بعضهم دار الحكمة مدرسة لان الحاكم اقام بها القراء والمجتمين واصحاب النحو واللغة والاطباء وأجرى لهم الارزاق والباح الدخول اليها السائر الناس على اختلاف طبقاتهم من محبي المطالعة ليقروا او ينسخوا ما شاؤا وجعل فيها ما يحتاجون اليه من الخبر والافلام والورق والمحابر • وكان الحاكم يستحضر بعض علماء الدار المذكورة الى ما بين يديه ويأمرهم بالمناظرة كما كان يفعل المأمون ويخلع عليهم الخلع • وقد اباح المناظرة بين المتردين الى دار الحكمة فكانوا يعقدون المجتمعات هناك وتقوم المناظرات وقد يفضي الجدل الى الخصام • واتخذ بعض اصحاب البدع تلك الاجتماعات وسيلة لبث آرائه فاضطر الافضل بن أمير الجيوش في أوائل القرن السادس للهجرة الى ابطالها دفعاً للأسباب • فلما توفي الافضل أمر الخليفة الأمر بحاكم الله وزبره المأمون بن البطائحي فأعادها سنة ٥١٧ هـ ولكنه اشترط فيها المسير على الاوضاع الشرعية وان يكون متولياً رجلاً ديناً وان يقام فيها متصدرون برسم قراءة القرآن • ولا نظن عدد كتبها يقل عن ١٠٠,٠٠٠ كتاب ولما أفضت الحكومة الى صلاح الدين الايوبي هدم دار العلم وبنائها مدرسة للشافعية ^(١)

(مكاتب الشام) لما كانت الشام مركز الخلافة في أيام بني أمية لم يكن للخلفاء رغبة في العلم ولا التفات العباسيون اليها • ولكنها اشتهرت في عهد الدولة الفاطمية بمكتبة كانت في طرابلس الشام حتى فتحها الافرنج سنة ٥٠٢ هـ فانتهبوا ^(٢) وذكر جين ان عدد كتبها ٣,٠٠٠,٠٠٠ مجلد احرقها الافرنج ^(٣) • فلما تولى نور الدين الشام وأنشأ المدارس في مدائنهم جعل فيها خزائن الكتب وتعرف بالخزائن النورية وهكذا فعل صلاح الدين

(١) ابن خلدون ٧٩ ج ٤ (ويسمى دار المعرفة) (٢) ابن خلدون ١٢٨ ج ٢

(٣) Gibbon's Rom. Emp. II, 505

اما بلاد فارس فقد تقدم في غير هذا الباب ما كان فيها من الخزائن الحفأة في الرساتيق والازج والقباب مكتوبة بالاحرف الفهلوية على الجلود ونحوها قبل الاسلام . فلما اضجت الحضارة الاسلامية في بغداد كان الفرس من اكبر العرامل فيها وفي جملة مساعيهم انشاء بيت الحكمة وغيره كما تقدم

وأما خراسان فقد كانت بلاد علم وأدب لما علمته من انشاء المدارس فيها قبل سائر بلاد الاسلام . وأما المكاتب فلم يتصل بنا من اخبارها الا لقليل فقد ذكر ياقوت في معجمه انه ترك مرو والشاهجان اشهر مدن خراسان يومئذ سنة ٦١٦ هـ وفيها عشر خزائن للوقف لم ير في الدنيا مثاها كثرة وجودة وقد فصل اخبارها واخبار واقفها وذكر ان واحدة منها كان فيها ١٢,٠٠٠ مجلد وانه أخذ علمه منها ^(١)

اما ما وراء النهر فقد ذكروا في بخارى مكتبة اشهرت باقبناس ابن سيناء علمه عنها وكانت لنوح بن منصور سلطان بخارى — قال الشيخ الرئيس « ورأيت فيها من الكتب ما لم يقع اسمه الى كثير من الناس وما كنت رأيت من قبل الخ » وأنشأ هولاء الكو التتري نصير الدين الطوسي في مراغة مكتبة فيها ٤٠٠,٠٠٠ مجلد مما نهبه التتر من بغداد والشام والجزيرة

هذا ما عثرنا على خبره من المكاتب العمومية التي أنشأها الخلفاء او السلاطين لمنفعة الناس غير خزائن الكتب التابعة للمدارس او المارستانات او الجوامع فلها كانت كثيرة جداً ومنها ما لا تقل كتبها عن المكاتب الكبرى وهي مرتبة ابواباً حسب المواضيع وعليها الوكلاء والقوام . وغير الخزائن الخصوصية التي كان يقفها العلماء لانفسهم وهي كثيرة وعظيمة فقد كانت كتب الصاحب بن عباد تسقى على ٤٠٠ مجلد وخلف افرام الطيب المصري ٢٠,٠٠٠ مجلد ولما مات موفق الدين بن المطران كان في خزائنه ١٠,٠٠٠ مجلد غير ما استنسخه وكان له ثلاثة نساخ يكتبون . وكان عند أمين الدولة ٢٠,٠٠٠ مجلد وقس عليهم كثيرين كالمتج بن خاقان وابن القفطي وغيرها

ولا تتضح نغمة تلك المكاتب الا اذا قارناها بمكاتب هذا العصر مع اعتبار الفرق بين العصرين وما كان لانتشار الطباعة من تسهيل اقتناء الكتب مع مرور الازمنة الطويلة على مكاتب هذه الايام وكثرة الوسائل المساعدة على اقتناء الكتب لقللة النفقة وغير ذلك . ونقتصر على المكاتب الاسلامية الكبرى التي عرفنا عدد مجلداتها ونقايها بشهر مكاتب اوربا اليوم :

أشهر مكاتب المسلمين في عهد التمدن الاسلامي

عدد المجلدات

بيت الحكمة في بغداد	
مكتبة سابور »	١٠,٠٠٠
الحكم بقرطبة »	٤٠٠,٠٠٠
خزائن القصور بالقاهرة	١,٠٠٠,٠٠٠
دار الحكمة »	١٠٠,٠٠٠
مكتبة طرابلس ?	٣,٠٠٠,٠٠٠
مراغة »	٤٠٠,٠٠٠

أشهر مكاتب هذه الايام في عواصم اوربا الكبرى

عدد المجلدات

مكتبة باريس الاهلية	٢,٧٠٠,٠٠٠
المتحف البريطاني في لندن »	١,٦٤٨,٠٠٠
بطرسبرج القيصريّة »	١,٣٦٠,٠٠٠
برلين الاهلية »	١,٢٣٠,٠٠٠
فيينا الملوكية »	٩٢٤,٠٠٠
رومية الاهلية »	٦٧٧,٠٠٠

وفي الولايات المتحدة ٤,٠٢٦ مكتبة مجموع عدد كتبها ٣٣,٠٥١,٨٧٢ مجلداً وبالجملة ان المسلمين جمعوا في مكاتبتهم العمومية والخصوصية من الكتب على اختلاف مواضعها ما يعُدُّ بالملايين . ولم يبق منها الاّ جزء صغير جدّاً وقد ضاع معظمها في اثناء القرون الوسطى وذهب بذهاب ذلك التمدن

اما الباقي من تلك الكتب فاكثره تجمع في عاصمة الاسلام في اثناء تلك القرون وهي القسطنطينية . وقد توفى المستشرق غوستاف فلوجل ناشر كتاب الفهرست وكتاب كشف الظنون الى احرار قوائم المكاتب العربية على ما بلغت اليه قبل النهضة الاخيرة

وشيوع الطباعة في الشرق وذبل كتاب كشف الظنون باسماء تلك الكتب بحسب مواضعها . فبلغ عدد تلك المكاتب بضعا وعشرين مكتبة منها ٢١ في القسطنطينية بلغ مجموع كتبها ٢٧,٤٤٥ كتابا . واما ما بقي في مصر ودمشق وحلب ورودس ومجموع كتبها ٢,٤٠٠ كتاب فيكون الباقي من كتب التمدن الاسلامي في المكاتب العمومية نحو ٣٠,٠٠٠ كتاب هاك تفصيلها باعتبار اما كتبها :

مكاتب المسلمين في اواخر القرون الوسطى وكتبها

عدد المجلدات

مكتبة السلطان محمد الثاني في القسطنطينية	١,٥٣٧
» سليمان »	٨٠٣
» قليج علي باشا بالعجخانه	٧٥٢
» حافظ احمد باشا	٤١٢
» كبويرلي اوغلو	١,٤٤٨
» شهيد علي باشا	٢,٩٠٦
» ابراهيم باشا	٨٣١
» والده سلطان	٧٣٢
» بشير اغا	٥٥٢
» عاطف افندي	١,٣٣٦
» ابا صوفيا	١,٤٤٥
» سراي غلطة	٥٥٦
» عثمان الثالث	٢,٤٢١
» محمد راغب باشا	١,٠٧٧
» لعله لي دفتر اول	٩٨٠
» » » » ٢ » » »	١,٩٤٧
» سراي هايون	٩١٦
» ولي الدين افندي	١,٧٦٩
» عاشر افندي	١,٨٧٧
» داماد زاده محمد مراد افندي	١,١٠٩

مكتبة عبد الحميد	١,٣٨٣
في القسطنطينية	
» حالت افندي	٦٥٦
(مجموع الكتب في القسطنطينية)	٢٧,٤٤٥
مكتبة الازهر	١,٠٩٩
في القاهرة	
» عبدالله باشا العظم	٤٢٢
بدمشق	
» المدرسة الاحمدية	٢٦٩
بجلب	
» رودس	٦٠٩

(المجموع كله) ٢٩,٨٤٤

وبديهي أن هذه الكتب ليست كل ما بقي من المؤلفات العربية فقد كان منها شيء كثير في المكاتب الخصوصية وغيرها ولكنها في كل حال لا تعد شيئاً بالنظر الى ما كانت عليه في ابان التمدن . وخصوصاً اذا اعتدنا نكثر المؤلفات بتوالي القرون مما يدعو الى زيادة عدد الكتب الباقية في القرون الوسطى كما لا يخفى لا الى نقصانها ولكن لكل شيء أجلاً لا يتعداه سنة الله في خلقه

❖ تم الجزء الثالث ❖



الفهرست

صفحه	صفحه
المقدمة	٣
العلوم الشرعية الإسلامية	
القرآن	٥٨
الحديث	٦٥
الفقه	٦٩
العلوم اللسانية	
النحو	٧٤
الادب واللغة	٧٧
بلاغة الانشاء	٨٠
التاريخ	٨٦
الجغرافية	٩٥
الادب العربية الجاهلية	
الخطابة بعد الاسلام	٨٩
الشعر " "	١٠٢
العلوم الدخيلة	
آداب اللغة اليونانية	١١٦
الشعر اليوناني	١١٧
الادب والعلم والفلسفة عند اليونان	١١٨
الدور الاسكندري	١٢٣
المصر البيزنطي	١٢٩
علوم العرب قبل الاسلام	
تمهيد في جزيرة العرب	٩
علم النجوم في الجاهلية	١٠
" الانواء "	١٣
الميتولوجيا	١٥
الكهانة	١٦
الطب في الجاهلية	١٩
الشعر " "	٢١
الخطابة " "	٢٩
مجالس الادب وعكاظ	٣٢
الانساب في الجاهلية	٣٤
التاريخ	٣٦
الاسلام والعلوم الاسلامية	٣٧
العرب والقرآن والاسلام	٣٩
احراق مكتبة الاسكندرية وغيرها	٤٠
الرومان والاسلام والعلم	٤٦
حملة العلم في الاسلام اكثرهم المعجم	٤٨
تدوين العلم في الاسلام	٥٠
الحط العربي	٥٢

صحيفة	صحيفة
١٦١ الكتب المنقولة عن العبرانية	١٣٠ آداب اللغة الفارسية
واللاتينية والقبطية	١٣٢ » » السريانية
١٦٢ الخلاصة	١٣٤ » » الهندية
١٦٣ محاسنة الخلفاء للعلماء غير المسلمين	١٣٥ العرب والعلوم الدخيلة
١٦٦ انتشار العلوم الدخيلة في المملكة الاسلامية	نقل العلوم في العصر العباسي
١٦٩ الخلفاء والامراء والعلم	١٤٧ المنصور والنجوم والطب
١٧٣ المؤلفون والمؤلفات	١٤٠ المأمون والفلسفة والمنطق
تأثير الاسلام في العلوم الدخيلة	١٤٣ نقلة العلم في العصر العباسي
١٧٥ الفاسفة في الاسلام	١٤٨ السوربون ونقل العلم
١٨٠ الطب » »	١٤٩ نقل العلم لغير الخلفاء
١٨٩ التنجيم والنجوم	الكتب التي ترجمت
١٩٥ الحساب والجبر والهندسة	١٥١ الكتب المنقولة عن اليونانية
١٩٦ الفنون الجميلة	١٥٦ » » » الفارسية
١٩٩ المدارس في الاسلام	١٥٧ » » » الهندية
٢٠٥ المكتاب في الاسلام	١٦٠ » » » التبعية



